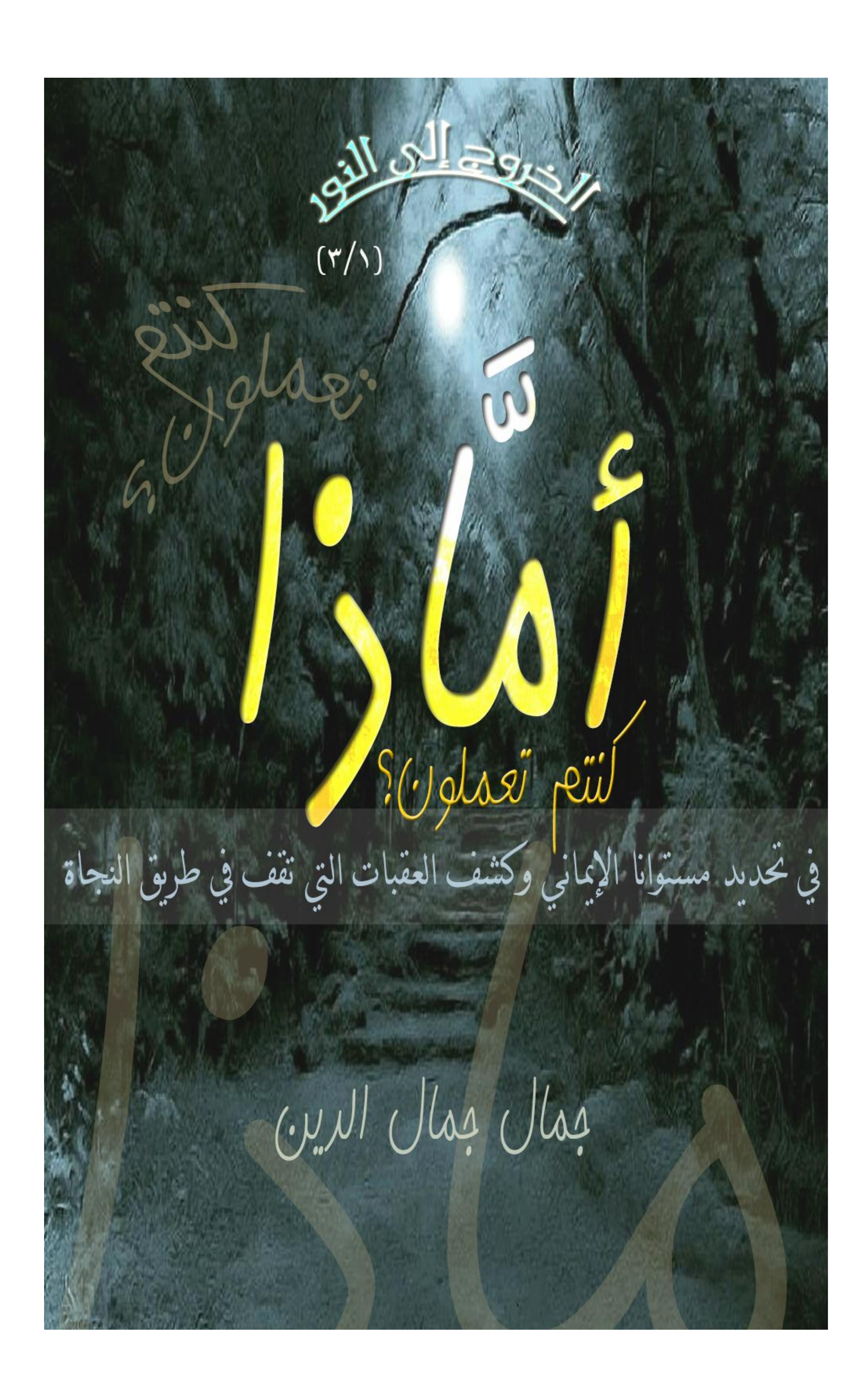

الخروج إلى النور
(٣/١)
كنتم تعملون؟
أمَّاذا
كنتم تعملون؟
في تحديد مستوانا الإيماني وكشف العقبات التي تقف في طريق النجاة
جمال جمال الدين
أماذا

الخروج إلى النور

مساهمة في تأصيل وتفعيل مشروعي النهضة والنجاة

التحرر من قيود المنظومة الدينية المزيفة السائدة

وإعادة بناء المنظومة الفكرية لدين الله القويم

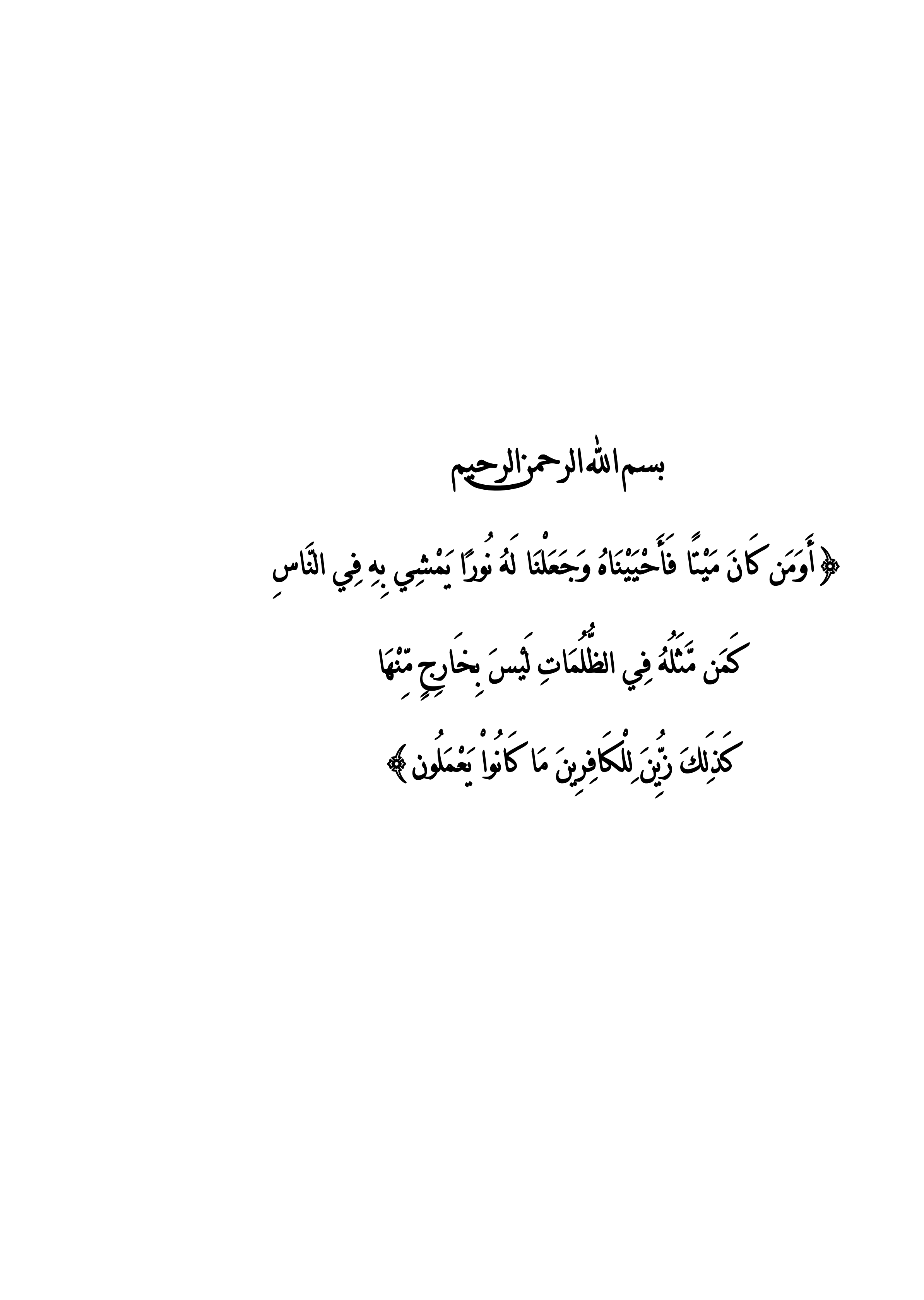
الكتاب الأول

أَمَاذَا كُنتم تعملون؟

في تحديد مستوانا الإيماني

وكشف العقبات التي تقف في طريق النجاة

جمال جمال الدين



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ

كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا

كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾

إهداء

إلى الأرواح الطاهرة للمفكرين المجدِّدين الذين قدَّموا مصالح أمتهم ودينهم على مصالحهم العاجلة

قاسَوا وعانوا ودفعوا ثمن مواقفهم لإنجاح مشروع الله في الأرض والإنسان

فأناروا لنا الدرب .. لنتعلم منهم .. ونبني على جهودهم

مع النبييِّن والصدّيقين والشهداء والصالحين

وحسن أولئك رفيقا

المحتوى

المقدمة

(**أمّاذا**) هو الأول من مجموعة من ثلاثة كتب تحت عنوان (**الخروج إلى النور**) .. تبحث في تساؤلين مستعصيين طالما تكرر النقاش حول موضوعاتهما والخوض في محاولة الإجابة عليهما دون الوصول إلى أجوبة شافية ومقنعة.

الأول: ما هي المنظومة الفكرية لدين الله التي تضع المسلم في الطريق السليم لأداء مهمته وتحقيق رسالته، فيكون ناجحاً في امتحانه تمهيداً لنجاته والفوز في آخرته؟.

الثاني: لماذا يفشل العالم الإسلامي في إقلاع مشروع نهضته واستعادة دوره الحضاري، وما هي طريقة الحياة التي توافق المسلم ليحافظ على وجوده، ويعمل على نجاح مشروع الله في الأرض والإنسان؟.

والإجابة بدقة ومسؤولية على هذين التساؤلين يمهّد الطريق للنجاح في هدفين نصطلح هنا على تسميتهما بهدفي (**النهضة**) و(**النجاة**)، وهما يعتبران من أهم وأكبر الأهداف التي يسعى المسلم المعاصر الحريص ويجدُّ للنجاح فيهما خلال مسيرة حياته .. وقد حالت وما تزال تحول دون النجاح الحقيقي في أي منهما عوائق صعبة وعقبات كثيرة وكبيرة تمنعه من رؤية طريقه ليبدأ مشوار نهضته، وتتسبب في فشله المزمن في معرفة حقيقة دينه.

وتدافع مجموعة كتب (**الخروج**) هذه عن فكرتين أساسيتين .. تتلخص الأولى في أهمية الربط بين هذين الهدفين وتوحيد الجهود المبذولة فيهما واعتبارهما مشروعاً واحداً، وتتلخص الثانية في ضرورة إيلاء اهتمامنا لتحديد العوائق والعقبات التي تمنع نجاحنا في هذا المشروع، وبيان وزن وتأثير كل منها، واقتراح ما ينبغي القيام به حيال أكبرها وأصعبها وأكثرها عرقلة وإعاقة في هذه المرحلة المضطربة التي تعيشها أمتنا المنكوبة.

يبدأ هذا الكتاب بإلقاء نظرة على الواقع الراهن الذي يعيشه العالم الإسلامي – العربي منه خصوصاً – يحلّل من خلالها أوضاعه الراهنة، ويبحث عن حقيقة مشكلاته ومواقع الخلل التي تحول دون تحقيق النتائج المرجوة .. كما يبين طبيعة الفكر المنتشر بين الناس ومفهومهم عن الإسلام، ويكشف عن وجود مظاهر التشويه التي أصابت الفكر الديني القديم منها والمعاصر، ويُظهر كيف لا يتوافق كل من الواقع والفكر مع ما نحسبه دين الله القويم.

ولأن مراجعة المعتقد الذي نؤمن به والتحقق من صلاحه واجب لا يعفى منه أحد، بل يقع في جوهر امتحان كل منا ومسؤوليته، فقد كان لا بد من تحليل واقع الاعتقاد الموروث وبيان العبء الثقيل الذي يحمله المسلم من تراثه وآبائيته، وأهمية التخلص من قيودهما الشديدة بالتوازي مع التخلص من جميع أشكال التشويه والتزوير التي أصابت فكرته الدينية من تعقيم وتفخيخ وإغراق.

وبهدف تحديد المشكلات التي نعاني منها، والتي يدل الواقع أنها مشكلات في قضايا أساسية،كان لا بد من تحليل أهم ركيزة من ركائز النجاح في هذا المشروع وهي (الإيمان)، وهو يمثل -كما نعتقد كمسلمين – المحرك الذي تنطلق به حافلة النهضة وتكمل به المسير.

حيث تم المرور على بيان نوع الإيمان المنتشر بين المسلمين وتقويم طاقته ومستواه، وإظهار الفارق الكبير بين إيمان الإقرار الناجم عن الوراثة والتقليد وإيمان قائم على إمعان التفكر في آيات الله الكونية وكتابه المسطور، لنصل إلى نتيجة مفادها أن الإيمان المتوفر للمسلمين في الوضع الراهن هو – مع وجود الاستثناءات بطبيعة الحال – من النوع الآبائي الموروث، وأنه ذو طاقة ضعيفة .. وأنه، وإن افترضناه كافياً في كلتا الحالتين بإذن الله لنجاتنا في آخرتنا، فلن يكون بأي حال من الأحوال كافياً لنهوضنا من كبوتنا والسير على طريق الحضارة .. وأنه لا بد من معالجة الفكر الذي يستند إليه هذا الإيمان.

أما الثغرات ومواقع العجز وأوجهه، ومسؤولية التقصير فيما سبق طرحه من مشاريع وبذله من جهود في سبيل النهضة واستعادة الدور الحضاري، وأين نحن اليوم من هذه المهمة، فهي مواضيع الكتاب الثاني من المجموعة بعنوان (**على الطريق أم في النفق؟**)، ومهمته تحديد موقعنا الحضاري والعقبات التي تقف في طريق النهوض وما يجب عمله لتجاوزها .. والذي توصَّلت في خلاصته إلى أنه لم يحن الأوان بعد للحديث عن النهضة والتحضر، وأننا لا نزال نرزح تحت وطأة الجهل والعتمة، وأننا ما لم نخرج إلى نور الله فلن تنفع محاولاتنا وتطلُّعاتنا.

فمشكلاتنا كبيرة وكثيرة وتتطلب جهوداً نوعية في مجالات شتى كالتربية والتعليم والفاعلية والتوجيه — وهذا أمر معلوم — ولكن ما يحاول الكتاب تقديمه والتركيز عليه وإقناع القارئ به هو إعطاء الأولوية اليوم للعمل على إزالة العقبات الأكثر تأثيراً من بين العوائق الداخلية التي تقف في طريقنا دون إهمال التوعية بخطر المؤامرة الخارجية والعمل على إسقاطها .. وهي الشروط الأولية لنتمكن من تسجيل نجاح أولي يخرجنا مما نحن فيه من تيه، ومن ثم السير في الخطوات الأولى والتي يمكن أن تتبعها خطوات.

ومن ثم فقد توجه الكتاب الثالث بعنوان (**تمهيد الطريق**)[1] – والذي يمثل جوهر هذا العمل وجزأه الأكبر – للمساهمة في مهمة إزالة عقبة (الانحراف الفكري) كواحدة من أهم وأخطر العوائق، وذلك من خلال مراجعة المنظومة الفكرية القائمة لدين الله عند المسلمين، ودعم المحاولات الفكرية الساعية إلى إجراء عملية التصحيح اللازمة عليها وتنقيتها من الشوائب وتخليصها من كل تشويه وتزييف، لتكون الحامل السليم لمشروع النهضة والنجاة.

1 أنظر تعريفاً ونبذة مختصرة عن أبحاث ومضمون كتاب (التمهيد) في نهاية هذا الكتاب.

وآمل أن تسهم هذه المجموعة في تأصيل قناعات الذين يؤمنون بضرورة إعادة النظر في المنظومة الفكرية السائدة والخروج منها والتمرد على من نصَّبوا أنفسهم أوصياء على عقولهم ووكلاء على فهم دين الله .. وتسهِّل عليهم التخلص من الأفكار السقيمة التي يخشون إسقاطها، وتحررهم من قيود الآبائية وسجن الامتثال والتقليد.

كما آمل أن تواكب وتعزز مسيرة أولئك الذين شهدوا التجارب المريرة وانضموا إلى ركب المؤيدين لهذا الخروج دون أن يملكوا الدليل على موقفهم السليم .. وأن تجيب على ما أفرزته المعاناة الأليمة الراهنة من تساؤلات غير مسبوقة، وما كشفته من سوآت الكثير من رجال الدين، وقادة الرأي والسلطة، ومن يلوذون بهم .. وتفسر ما حصل من ارتدادات كشفت عورات الشعوب "المؤمنة" ليصبح عنوان المرحلة اليوم (انكشاف الهشاشة)[1].

وإذ أقدم هذا المشروع الذي بذلت فيه ما بوسعي لتكون أفكاره مبسطة ومفهومة لجميع القراء على اختلاف درجات ثقافتهم واطلاعهم، فإنني أرجو من أبناء جيلي أن يصبروا على قراءته حتى النهاية قبل أن يحكموا عليه ويزهدوا فيه .. وألا يصرفهم الملل من قراءة المواضيع المعروفة لهم في كتابيه الأول والثاني عن قراءة كتابه الأخير والأهم.

فقد كان لا بد من الانطلاق من شرح أبسط الأمور مراعاة لبعض القراء الشباب الذين لم يسبق لهم أن اطلعوا على موضوعات هذا الكتاب من مصدر آخر، والتدرج معهم خطوة خطوة، فلا تفوتهم حلقة واحدة من سلسلة المشروع المترابطة.

فإذا حصل أن انصرفوا عن متابعة القراءة مع انتهائهم من تصفُّحه، فإنني أتحمل وحدي كامل المسؤولية عن فشل هذه المهمة .. أما إن وجد بعضهم فيه ما يبحثون عنه ويفيدهم، وانتقلوا إلى قراءة الكتاب الثاني أكون قد بلغت شيئاً من هدفي.

فإن راق لهم ما فيهما وروى شيئاً من ظمئهم أو أثار فضولهم لمعرفة المزيد فسيكون بانتظارهم كتاب (**التمهيد**) الأكثر دسامة وعمقاً وتفصيلاً .. ولن أشك حينها في التغيير الذي سيحدثه في مواقف الكثيرين ممن يكملون قراءته وفهمه، وعندها سيتمكَّنون بجهودهم من إيجاد طريقهم للخروج من حال الاستعصاء التي نعيشها .. وأكون قد نجحت في مهمتي.

وهنا لا بد لي أن أعبر عن شكري وامتناني لكل من اطَّلع على الكتاب في مسودته الأخيرة قبل وضعه في شكله ومحتواه في طبعته الأولى، وكل من أدلى بملاحظات قيِّمة وشرَّفني برأيه ونقده كالأستاذين خالد شعبان وبراء أصفري، وأخص بالشكر الصديق المحترم وزميلي في العمل المهندس جهاد كنعان لما كرَّسه من وقت في قراءة

1 هذا العنوان مقتبس من تغريدة من التغريدات الهامة للأستاذ (أحمد طلحة) على الفيسبوك، وهي من العبارات الأكثر تعبيراً عن واقعنا في هذه المرحلة .. يقول: (*انكشاف الهشاشة عنوان المرحلة.. قيم لم ترتكز على المبادئ، ومعتقدات لم تبن على فكر*).

مخطوطة الكتاب وتقديم رأيه الثمين في الكثير من محتواه وترتيب مواضيعه، فكان لرأيه وخبرته النادرة أثر جليٌّ جعلني ممتناً للفرصة الطيبة التي جمعتنا لنصرف ساعات منتظمة في التفكير والحوار حول مواضيع وقضايا مصيرية كثيرة ومتنوعة.

الباب الأول: في تشخيص الوضع الراهن

تناقضات الفكر والواقع

من الواضح أن وضع عنوان (الخروج إلى النور) لهذه المجموعة ينطوي في معناه على قناعتي أننا لسنا في النور .. وهذا صحيح إلى حد كبير.

وقد يخطر في بال من يقرأ هذا الكلام أننا نعترف بحال التخلف التي نعيشها، ويمكن أن نتفهم ضرورة لفت النظر إلى ما نعانيه من تقصير أو مشكلات طفيفة هنا وهناك بهدف الجدِّ في معالجتها وتصحيح الطريقة التي يعيشها المسلم في حياته اليومية، وهذا ليس بجديد .. ولكن، أليس هناك شيء من المبالغة عند الحديث عن عدم وجودنا في النور؟ .. وإلى متى نستمر في جلد أنفسنا؟ .. ألا ترى المؤامرات التي يواجهها المسلم وتحبط جهوده على الرغم من كل تضحياته ومحاولاته؟.

ثم أي نور هذا الذي تبشر في الخروج إليه؟ .. ألا تؤمن بصدق وعد الله تعالى بتولِّي المؤمنين وإخراجهم من الظلمات إلى النور ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾؟ .. ألا تعرف أن الرسالة التي جاء بها محمد بن عبد الله ﷺ غايتها إخراج الناس إلى النور ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾؟ .. وطالما أننا والحمد لله مؤمنون، ونحفظ القرآن ونتلوه صباح مساء فما جدوى عملك ولماذا تتعب نفسك؟ .. وهل هناك نور أسطع من نور الله؟ .. أليس الحق واضحاً ومعروفاً؟ .. وهل لنا نحن المسلمين غير كتاب الله وسنة نبيه وما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين نوراً وهداية وطريقاً؟.

تلك أسئلة محيرة حقاً .. ولا أستطيع أن أخفي حرجي وترددي في الإجابة على أي منها .. ولكن مشكلتنا كبيرة وعويصة .. وكلما حاولت البحث عن مخرج منها اكتشفت أننا في مواقع أشد ظلمة من تلك التي توقعتها وقدَّرتها من قبل .. وعندما أحاول طرح هذه المسألة بجرأة وصراحة فذلك لعلمي أن طريقنا ستبقى مسدودة ما لم نضع هذه التساؤلات تحت الأنوار الكاشفة، فلا نرسم حدوداً لتساؤلاتنا وأجوبتنا ولا نفرض قيوداً على طريقة تفكيرنا.

فلا مفرَّ لنا بعد الآلام التي عانينا ونعاني منها من القيام بمراجعة شديدة صارمة نتحمل فيها مسؤوليتنا غير آبهين برضا الناس ومواقفهم منا .. وهل يعقل أن نجازف فلا نعير موضوعاً بهذه الخطورة جُلَّ اهتمامنا، أو نجامل أنفسنا ونراعي قبول الناس وتعاطفهم، أو نقبل بممارسة الخيانة والنفاق ونستمر في مداهنتهم ومسايرتهم لنيل رضاهم في مسائل تحدد مصيرنا في دنيانا وآخرتنا؟.

نعم .. إنه الخروج إلى النور .. ولو كنت أشعر أننا في النور أو أننا نسير على منهج الله القويم، أو كنت مقتنعاً أن عملية الخروج مهمة سهلة وواضحة، لما صرفت يوماً واحداً في هذا المشروع الذي قضيت فيه عقداً كاملاً من عمري، ولما فكرت في هذا الموضوع ولاكتبت سطراً واحداً فيه.

وقد لا يكفينا أن نسأل أنفسنا كيف نخرج من الظلمات إلى النور، بل ربما علينا أن نطرح أسئلة أشد قسوة وأكثر إحراجاً وإزعاجاً إلى أن نرى مؤشرات واضحة تؤكد لنا أننا –كما نظن – ممن أنعم الله تعالى عليهم وهداهم إلى الصراط المستقيم .. ولسنا من الأخسرين أعمالاً، ولا من الكافرين أو الظالمين أو الفاسدين أو – لا سمح الله – من المشركين أو المغضوب عليهم أو الضالين.

الفصل الأول: ما وراء الإحباط المزمن

الأخسرون أعمالاً

إن القرآن الكريم يخبرنا عن نوع من الناس يقضون حياتهم راضين عن حالهم مع أنهم لم يغادروا الظلام في يوم من الأيام .. وهم يسعون في طريق يحسبونها قويمة، ويظنون أنهم يقومون بأعمال فاضلة حسنة مع أن سعيهم وعملهم هذا لا قيمة له ولا يساوي شيئاً عند الله عز وجل، ويعدُّهم القرآن من الأخسرين أعمالاً ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾.

سيضع الكثيرون منا أنفسهم خارج موضوع هذه الآيات، ويقولون أنها تتحدث عن الكافرين بالله واليوم الآخر .. أما نحن فمسلمون والحمد لله .. وهذا الغرور والاطمئنان مؤشر قوي على وقوعنا في الفخ المحكم الذي نصبه الشيطان ونجح في إيقاع الكثيرين ممن سبقونا فيه.

فصحيح أن هذه الآية تتحدث عن ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ .. ولكن هل يمكن أن تشمل بنسبة أقل أو أكثر شريحة من الناس ممن يعتبرون أنفسهم مؤمنين صالحين؟.

إن أحدنا ليظن أنه يتّبع كتاب الله عز وجل ويتأسى برسوله الكريم، ويحرص على أن يقلد ما روي له من سلوكيات ومواقف قيل له أنه ﷺ كان يوصي بها فيحاول أن يحوز عليها بحذافيرها .. وآخر يظن نفسه قريباً من درجة الكمال لالتزامه طريقة في اللباس أو المظهر أو لتكلُّفه في نطق الأحرف بالقلقلة والادغام والإخفاء عند قراءة القرآن وفي حديثه العادي أيضاً .. ولكن لا أحد من هؤلاء يقف مرة واحدة ليفكر أنه قد يكون بدرجة أو أخرى واحداً من هؤلاء (الأخسرين أعمالاً).

ومن المؤسف حقاً أن يعيش الإنسان حياته ظانّاً أنه على طريق الصواب، ولا يملك الحكمة الكافية ليراجع ذاته ويتساءل عن صحة ما يؤمن به من أفكار، وسلامة ما يقفه من مواقف، واستقامة ما يقوم به من ممارسات عملية .. ولا يتأكد أنها ليست تقليداً أعمى أو مسايرة للتيار السائد أو خوفاً منه، أو حرصاً على حسن سمعته وسلوكه فيه .. ليفاجأ يوم القيامة أن عمله وجهده قد ذهب هباءً، وأودى به إلى خسارة مبينة في مراهنة خطيرة وكبيرة لا فرصة بعدها للتصحيح أو الإعادة.

الورطة التي كشفها الواقع

المعتقدات والفهم الفاسد

تنتقل الأفكار الفاسدة من أمة إلى أمة ومن جيل إلى جيل تماماً كما تنتقل الأفكار السليمة الحسنة .. والمسلمون من أتباع الرسالة الخاتمة ليسوا استثناء من هذه القاعدة .. ويبين لنا القرآن أن ضلال فئة من الناس في عصر من العصور لا يعفي الأجيال اللاحقة من المسؤولية، فإذا جهل أصحاب الرأي في جيل من الأجيال وأفسدوا وافتروا في دين الله أو أخطؤوا أو زيفوا في فهمه، فلن يكونوا وحدهم من يتحمل المسؤولية .. وإنما سيدفع الثمن من انخدع بهم وتبعهم في ضلالهم .. وتطال العقوبة من يمارس فسادهم حتى آخر أمة .. لأن الله خلق لهؤلاء عقولاً كما خلق لأولئك .. فلا تقبل الحجة الواهية ببراءة الأتباع من الخلف، وتحميل مسؤولية انحرافهم لأسلافهم.

وطالما كررنا ممارساتنا الخاطئة أو المنحرفة أو الناقصة، ولم نبذل جهوداً حقيقية في معرفة رسالتنا، ولم نستكمل الشروط الصحيحة لتحقيق غاياتنا، واتبعنا من سبقونا فيما تعمَّدوه من تحريف أو فيما قصروا في فهمه، أو فيما بذلوا فيه وسعهم فلم يمكنهم زمنهم وعلمهم من إدراكه .. فسنتحمل كامل المسؤولية عن تقصيرنا.

فهل فكرنا يوماً أننا قد نكون في **بعض** ما نفاخر فيه من طريقة فهمنا لكتاب الله وسنة نبيه إنما نتبع قوماً فقدوا رشدهم، فاستمعنا إليهم دون تشغيل عقولنا وانحرفنا بعيداً عن سبيل الله القويم وصراطه المستقيم؟ .. وكيف نتأكد أننا لسنا ممن وصفهم الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ ؟.

ماذا لو كانت أفكار بعض الذين نتبعهم دون تفكير ولا وعي هي التي شلَّت حركتنا وأجهضت محاولاتنا في نهضة أمتنا فأصبحنا خلف الجميع؟ .. وهل فكرنا أن تفسيراتهم وطريقة فهمهم التي وصلت إلينا وقدَّسناها هي التي وضعتنا في طريق مسدودة ولم تزدنا إلا تيهاً وضياعاً؟ .. وكيف نعرف أننا لم نفقد وجهتنا ونبتعد عن كتاب الله ورسالته إلينا، أو أننا أهملناه وقدسنا آباءنا وساداتنا وكبراءنا؟.

ومهما كانت أجوبتنا على هذه التساؤلات، فإن الحال يبقى نسبياً وتختلف نسبة صحة الأفكار وانحرافها من فرد إلى آخر ومن فئة إلى أخرى، ويختلف بذلك تأثيرها، كما تتراوح شدة التأثير من مسألة إلى أخرى .. ولكنها

تساؤلات عامة لا بد من طرحها على كل حال .. وليس لأحد أن يؤكد صحتها ودقة مطابقتها على شخص محدد أو جماعة محددة في جميع المسائل والمواضيع.

ولكن ...

عندما لا يتجاوز اهتمامنا بشؤون الدين تكديس المعلومات والمبارزة فيها دون تمييز الغث من السمين والأصيل من المزيف .. وعندما نهتم بحفظ القرآن وطريقة تجويده وعدد أحرفه وإعجازه الأدبي أو العلمي أو العددي المشبوه أكثر من فهم مقاصده الكبرى ناهيك عن تطبيق الوسائل التي تضمن تحقيقها .. وعندما تكون أولوياتنا في ترديد بعض الأوراد والتكلف في نطق الكلمات أو الاعتناء ببعض المظاهر والحركات .. وعندما نضيّع عمرنا في معرفة أحكام المسائل الهامشية على جميع المذاهب والأقوال.

وعندما نبالغ في إطراء الرسول ومدحه عوضاً عن معرفته للإقتداء به وفهم الرسالة التي كُلِّف بتبليغها، أو نهتم في سند الحديث وتفاصيل عن حياة ناقليه بدلاً من المعنى الذي ينطوي عليه متنه ومدى توافقه مع كتاب الله .. وعندما نكون واثقين مطمئنين أن الجنة لنا وحدنا، أو نعتقد أن الله يفضِّلنا على غيرنا من الناس مهما كانت أعمالنا ومعاملاتنا لمجرد مولدنا في عائلة تنتمي إلى دين معين أو طائفة محددة، أو نعتقد أن انتماءنا هذا سوف يحصِّننا من السقوط في الجهل والتخلف والانحطاط مهما كانت طريقة فهمنا لهذا الدين وتطبيقه.

وعندما نصدق في حادثة أو مصادفة واحدة أن الله تعالى قد ألغى أو أوقف أو بدَّل قوانينه الأزلية وسننه الكونية من أجلنا لأننا أحب الناس إليه أو حظوته من بين خلقه .. أو نعتقد أننا سنتمكن من النهوض من سباتنا ونخرج من هذا النفق المظلم الذي نعيش فيه دون أن نبذل إمكاناتنا لتحقيق هذه النهضة .. أو يخطر في بالنا للحظة واحدة أنه يمكننا أن نحصل على نتائج جيدة في العزة والنصر والكرامة دون العمل على تحقيق موجباتها بأيدينا.

فهذه مؤشرات لا تخطئ الدلالة على وجود خلل ما في فهمنا لدين الله وطريقة تعاملنا معه من البداية إلى النهاية، وتدفعنا لأن نراجع أنفسنا ونشكك في إخلاصنا وصحة وضعنا .. كما تفرض علينا أن نتوقف ونعيد النظر ونبحث عن حقيقة فكر دين الله بطريقة جديدة ومختلفة، فقد يكون ما نعتقده ليس من فكر هذا الدين، بل من فكر آخر دخيل ومنحرف أو كاذب ماكر.

ومع وجود استثناءات كثيرة، فقد لا أكون مبالغاً إن زعمت أن الدين الذي يعرفه عامة المسلمين في العالم اليوم أو (الثقافة الدينية) التي يعيشون بموجبها قد انحرفت انحرافاً خطيراً عن دين الله كما أنزله تعالى قرآناً يتلى على رسوله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ .. كما قد لا أكون مبالغاً إذا قلت أنها انحرفت بقدر لا يقل كثيراً عما انحرفت فيه اليهودية عن هذا الدين الذي أنزله عز وجل توراة مقدسة على رسوله

موسى عليه السلام ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ .. ولا أقل بكثير عما انحرفت به الثقافة المسيحية عنه كما نزل إنجيلاً حقاً على نبيه المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ﴿وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ .

ولم يعد صعباً إثبات أن ما نحمله من دين قد تأثر بعبث الجهال والأغبياء وتآمر الخبثاء والشياطين ومكرهم .. ووحدهم أولئك الذين لا بصيرة لهم ولا يريدون تشغيل عقولهم سيستمرون بالإصرار على القول بصحة ما وصلنا وتقديسه والأخذ بأقوال السابقين واللاحقين والتسليم لها، ولا يهتمون فيما إذا كانت جهلاً أم صواباً .. فكل موروث يبدو كنور ساطع لأعين عليها غشاوة أو لقلوب مختومة أو أدمغة مقفلة.

وعلى الذين يدافعون عن فكرة بقاء هذا الدين صافياً نقياً كما أنزله الله تعالى أن يثبتوا أن إبليس وجنوده قد انقرضوا، أو أن الشيطان قد استقال من المهمة التي أخذها على عاتقه في إضلال الناس وتزييف دينهم وحرفهم عن صراط الله القويم، وهو من تعهد بملاحقتهم في كل زمان ومكان﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ . . ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ .

أما الذين أنار الله بصيرتهم بعد أن جاهدوا بحق لمعرفة حقيقة دين الله، فإنهم سيكتشفون مع أول محاولة في فهم أول قضية من قضايا الدين الذي نشأنا عليه واتبعناه أننا ضائعون تائهون، وأننا نسير في متاهات ودروب جانبية معتمة لا نشعر فيها بنور الله الذي يضيء السبل ونعرف به الأجوبة الشافية على القضايا الخلافية والتساؤلات الكثيرة التي لا تزال تحيرنا.

فما نظنه نور الله ودينه هو نور وهمي ودين مزيف .. لأن دين الله هدى كامل ونور ساطع .. وبنور الله لا يبقى أي جهل، ولا تبقى حيرة، ولا يبقى للظلام أي مكان.

دور الدين

كيف تحول من النقيض إلى النقيض

ما الذي حلَّ بالمسلمين؟ .. وكيف تحول على أيديهم دين يغير الأمم ويقلبها رأساً على عقب إلى دين مخدّر أو قاتل؟ .. وما الذي حاولوا طمسه أو تحريفه في دين الله؟ .. وكيف أصبح المسلمون الذين قادوا العالم بإسلامهم عبئاً على الإسلام وعالة على العالم؟.

كيف تحوَّل دين يدمر حصون الطغاة والجبابرة والظالمين، ويقف ضد من يعمل على إهانة كرامة الإنسان، ويصنع رجالاً من قامة مصعب وعلي وعمر إلى دين يقف سدنته على أعتاب الطغاة يبررون لهم طغيانهم ويشاركونهم في إهانة الإنسان؟.

كيف انقلب من دين يدعو إلى تجاوز العنف والاقتتال وسفك الدماء إلى دين لا تخلو نشرة أخبار واحدة من الحديث عن الدماء التي تسيل من أتباعه أو على أيديهم في كل مكان؟.

ما الذي أصاب عقول حملة كتاب الله العظيم؟ .. وكيف آل إليه حالهم مع دين جاء للمساواة بين البشر وإنصاف عامة الناس وبسطاءهم، وتحريرهم وصون كراماتهم؟ .. وكيف صار يجعل منهم جنوداً يدافعون عن تصرفات طغاة أوغاد حمقى ويمجّدون موبقاتهم؟.

وكيف تحولت أمة الدين الذي يدعو إلى الإصلاح واجتثاث الفساد إلى مجتمعات يعمُّها الفساد والاستبداد، ويرتع فيها الظلم والجهل والعبودية وإهانة الإنسان؟.

كيف تحول من دين يعترف بأهمية إرادة الإنسان ورفعة شأنه بما نفخ الله فيه من روحه وأسجد له ملائكته وسخر له الكون إلى عقبة كأداء تحول دون وعيه وحريته ويداس فيها على كرامته؟.

كيف صار الفكر الذي جاء ليخفف عن الناس ويزيل عنهم إصرهم والأغلال التي في أعناقهم إلى أغلال تلتف حول أعناقهم وعقولهم وقلوبهم؟.

كيف تقزّم دين مليء بالعزة والفعالية والتمرد على المألوف إلى دين مراسم وأعياد وأناشيد وحفظ وتجويد واحتفالات موسمية عند طائفة من المسلمين .. ونحيب وبكاء ولطم وعزاء عند طائفة أخرى؟.

وهل هناك اختلاف بين الأسس التي يقوم عليها كل من دين الله والدين السائد عند المسلمين؟ .. وهل تختلف خصائص كل منهما؟.

هل هناك من عمل ويعمل على محاربة دين الله وتعطيله؟ .. ومن هم؟ .. وكيف قاموا ويقومون بذلك؟.

الدين الذي جاء ليوحد الأمة ويذكِّرها ﴿إِنَّ هَـذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ .. ويؤلف بين القلوب المتنافرة ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ .. ويحذرها من التفرق ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . . مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ .. **كيف انقلب** إلى عامل رئيس يفرقها إلى مذاهب وطوائف وشيعاً لا تختلف بالرأي فتتجادل وتتنافس وتتدافع ويفرح كل منها بما لديه فحسب، بل يسفك بعضها دماء بعض، ضاربين عرض الحائط بما أوصاهم به رسول الله في حجة الوداع: "لا ترجِعوا بعدي كُفَّارًا يضرِبُ بَعضُكم رِقابَ بَعْضٍ"؟.

لا يمكن أن نعمم صفة الانحراف على جميع المسلمين، ولسنا بصدد تصنيف الناس وتحديد درجة قربهم من دين الله القويم أو ابتعادهم عنه .. وليس من حقنا أن نحكم على ما في قلوبهم ولا التفتيش عن صوابية تصرفاتهم .. ولكن ما يمكن زعمه هو أن المنظومة الفكرية التي نفهمها عن دين الله ونعيشها في واقعنا هي منظومة محرفة ومزيفة .. ويكاد التحريف يمس كل مكون من مكوناتها .. بل إن التشويه الأكبر هو الذي طال الأمور الأساسية فيها.

وبعيداً عن خلفاء راشدين أربعة أو خمسة أو ستة أو عشرة .. فإن المسلمين على مرِّ تاريخهم — مع استثناءات نادرة وقليلة – لم يحكموا إلا من قبل فاسدين ماجنين من ورثة الحقد والدسائس .. فما الذي نتوقعه أن يؤول إليه فهم الدين وتفسيره تحت ظلال عروشهم الموبوءة؟ .. وهل أبقوا شيئاً من رسالة الإسلام الحقيقية إلا وأعملوا فيها تزييفاً وتحريفاً وتفريغاً وتعقيماً بما يخدم فسادهم ويثبت سلطانهم؟.

أليس الفكر الذي نحمله هو عينه الفكر الذي صنعه وأورثه لنا أقوام حاقدون ومتقاتلون متفرقون عملوا على تصفية وذبح بعضهم بعضاً؟ .. أليسوا هم الذين وصلتنا أخبارهم بأنهم كانوا يدسُّون السم في الطعام، ويطعنون في الظهر؟ .. ثم أتى من بعدهم من هم أخبث وأنجس وأكثر سفاهة منهم.

أم ماذا نتوقع أن يصل إليه حال عامة المسلمين وأصحاب الرأي الذين يقودونهم بعد كل التشويه الذي قام به أسلافهم؟ .. هل صاروا يحملون أسفاراً كالذين حُملوا التوراة ثم لم يحملوها؟ .. هل هم آبائيون؟ .. هل أصبحوا كقطيع من الأنعام لا يفكرون ولا يفهمون كما وصف القرآن الكريم من لا يستخدمون عقولهم؟ .. وهل يستطيعون أن يستوعبوا أنهم تحولوا إلى شيء من الكفر والضلال بإتباع السادة والكبراء من رجال الدين في التفرق في الدين والانتماء إلى الشيع والفرق والمذاهب؟.

أين الخلل؟ .. ولماذا لا يفعل الإيمان فعله فينا ولا يعمل إسلامنا؟ .. ولم لا ينعكس اعتقادنا إلى واقع ملموس في حياتنا؟.

أين أخطأنا وانحرفنا؟ .. وما هي أسباب انحطاطنا وتخلفنا؟ .. ما الذي غيرناه في ديننا وما الذي تغير فينا؟ .. وكيف نعيد الأمور إلى نصابها ليتكرر صنع الإنسان المسلم في نموذجه المأمول؟.

إن ما حصل من تغيير في المجتمعات التي اعتنقت الإسلام أول مرة، والزمن القياسي الذي حصل فيه هذا التغيير هو شيء قريب من المعجزة بضخامته وسعته وشموله وعمقه وسرعته .. أضخم وأوسع وأشمل وأعمق من أن يحيط به أي تحليل أو تفسير .. إنه شبيه بعاصفة عاتية أطاحت بما صادفته في طريقها ليعاد بناء كل شيء من جديد في أرفع وأرقى المستويات.

حصل ذلك على مستوى الفرد والمجتمع على حد سواء، وفي كل شأن من الشؤون الفكرية والاجتماعية والأخلاقية .. ولا يزال أثر هذا التغيير مؤثراً بإيجابياته وسلبياته في العالم بجميع أركانه حتى يومنا هذا على الرغم من تخلف العالم الإسلامي وانحطاطه وبعده عن جوهر دينه .. فلماذا لا يكرر هذا الدين فعله في التأثير في قلوب معتنقيه ولو مرة واحدة أخرى؟.

دين حوَّل في ثلاث وعشرين عاماً قوماً غلاظاً من قبائل متخلفة إلى حملة رسالة حضارية يقدمونها للعالم أجمع .. وفكرة غيَّرت مجتمعاً منحطًّاً جاهلاً إلى ما نعتقد أنه واحد من أرقى المجتمعات التي عرفها التاريخ، واستطاعت أن تصنع من القساة الذين يدفنون بناتهم أحياء رجالاً يبنون واحدة من أعظم الحضارات .. قبائل مفككة متناحرة تعيش في صحراء قاحلة تقدس الأوثان والأصنام المصنوعة من الخشب والحجر والتمر تتحول في بضع عقود إلى أمة قوية متماسكة موحدة ذات دين عالمي وحضارة متميزة .. ثم تقوم هذه الأمة خلال قرن واحد بإزاحة سيطرة الروم عن الشرق بعد أن دامت إمبراطوريتهم فيه ألف عام، وإزاحة سيطرة الفرس الذين سادوا فيه أكثر من ذلك، وتنشئ دولة مترامية الأطراف تمتد من الهند مروراً بالشام وشمال أفريقية وصولاً إلى الأندلس .. ثم، وعلى الرغم من الوهن الذي أصاب هذه الدولة، والمآسي التي ألمت بها، لا تزال بقاياها وأطلالها تشكل إلى اليوم تهديداً وخطراً عظيماً في نظر غيرها في الشرق والغرب فلم تتوقف صيحات التنبيه من الخطر الإسلامي القادم.

ولنفكر معاً .. إذا كنا نعتقد أننا نحمل تلك **الرسالة أو الفكرة** أو العقيدة ذاتها التي صنعت معجزة حقيقية في يوم من الأيام، وأننا نفهمها ونمارسها بطريقة سليمة .. وأثبت الواقع أن هذه الفكرة لم تعد تملك القدرة التأثيرية اللازمة لتفعل فعلها في معتنقيها ولا تحدث أثراً في نفوسهم، أليس علينا أن نعترف أننا أفقدناها فعاليتها كما يقول المفكر الجزائري مالك بن نبي؟ .. أو نسلِّم أنها لم تعد صالحة لزماننا، أو أنها غير صحيحة أصلاً وأن ما حصل مرة في التاريخ كان مجرد مصادفة.

أم أن هناك عوامل وموانع أخرى تحول دون تأثيرها كأن تكون وصلت إلينا مشوهة أو عقيمة أو منحرفة فصرنا نحمل فكرة بعيدة كل البعد عما تمثله حقيقة دين الله؟.

الميل إلى تبرئة النفس

كم أُمرنا ألَّا نكون .. وكنَّا

إن معرفة حقيقة مشكلاتنا يتطلب منا الإجابة على أسئلة كبيرة وعديدة لا بدَّ من التوقف عندها طويلاً .. ولن نسمح لأحد أياً كان أن يحرِّم علينا البحث فيها بدعوى مسِّ المقدسات والثوابت، ولا أن يضع في طريق بحثنا أي موانع أو حدود مهما كانت المبررات والحجج والمخاوف.

فالشك والتدقيق والتقويم بهدف العلم والمعرفة ليست ضد الإيمان، بل هي مقدمات الإيمان الصحيح .. ورسالة الأنبياء والمصلحين كانت تبدأ في بث روح التفكر والتمحيص والمراجعة، وتفضي على الدوام إلى توعية الناس لإخراجهم من الظلمات إلى النور .. والمنتفعون من غباء الناس وجهلهم هم وحدهم الذين يخافون من تفكرهم ووعيهم.

وعلينا أن نراجع أنفسنا بصدق وتواضع ومسؤولية، ونتفحص أحوالنا دون تلفيق أو تجاهل أو إنكار أو غرور ونتساءل: أين سقطنا فيما سقط فيه غيرنا؟ .. وهل سقطنا في شيء يشبهه أو قريب منه أو أشد خطراً منه؟ .. بل وأين انحرفنا زيادة على ما انحرفوا فيه؟.

هل وقعنا فيما حذرنا منه القرآن مما وقع فيه من سبقونا؟ .. وعندما حذرنا عز وجل ألا نتبع سبل الأمم السابقة، وحدثنا عما فعله اليهود والنصارى في دينهم، فهل كان يخبرنا بذلك لنشمت بهم؟ .. وهل هناك ما يدل على أن المسلمين سيكونون استثناء من ذلك؟ .. وهل تحذير القرآن لنا وقصِّه أخبار ما حصل لمن سبقونا كفيل بأن يحصِّننا من السير على شاكلتهم وعدم وقوعنا فيما وقعوا فيه، أم أن تحذيره هو دليل على إمكانية وقوعنا؟.

إن الله تعالى لم يقص علينا في كتابه العزيز ما قام به من سبقونا من الأمم السابقة من تحريف لدينهم عبثاً، ولم يحدِّثنا عن أخطائهم وعمَّا اقترفوه لنتسامر في سرد أحداثهم .. ونتعجَّب كيف أنهم تفرقوا وزوروا ثم نحمد الله على ما نحن عليه من نعمة الإسلام وكأننا لسنا بشراً ممن خلق.

بل حذرنا جل جلاله لنعتبر منهم ونتعلم فلا نقع فيما وقعوا فيه .. وهذا يعني تماماً أن وقوعنا احتمال وارد فعلاً .. والحقيقة والواقع يدل على أننا – وعلى الرغم من تحذيرات الله لنا — قد وقعنا في كثير منها، ولكننا لا نريد أن نصدِّق ذلك.

ولنأخذ عينات مما أخبرنا به تعالى عن الأمم السابقة وحذرنا من تكرار ما فعلوه .. فهم مثلاً تفرقوا في دينهم ﴿ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .. فهل تفرقنا في ديننا؟ .. وهل المسلمون اليوم أمة واحدة متحابة متماسكة؟ .. أم أننا افترقنا إلى ملل ونحل وطوائف وشيع تتقاتل وتكفِّر بعضها بعضاً وتفيض الكراهية من أتباع كل فرقة منهم لبقية الفرق وتمتلئ حقداً عليها، وتعمل كل جماعة على التنكيل بالجماعات الأخرى وإفنائها إن استطاعت عن بكرة أبيها؟.

وهم مثلاً حرَّفوا في دينهم ﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾ وأخفوا منه وأضافوا إليه[1] ما ليس منه ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ .. فهل حرَّفنا في ديننا؟ .. وكم بلغ تحريفنا مقارنة بتحريفهم؟ .. وهل كان هذا التحريف ظاهراً واضحاً أم خفياً غامضاً مقارنة مع فعلتهم؟ .. هل هناك آيات وضعناها في العتمة ونكاد لا نذكرها على الرغم من تكرار التأكيد عليها في كتاب الله الكريم؟ .. وكم أدخلنا على ديننا من آراء مشبوهة وباطلة تخالف العقل والمنطق والدين، ثم قدَّسناها فصارت عماد المعتقدات التي نتمسك بها فلا نترك فرصة ولا مناسبة إلا ونتحدث فيها؟.

ويخبرنا القرآن الكريم أن أهل الكتب السابقة تحوَّل الكثير منهم إلى كافرين ومشركين على الرغم من ادعائهم الالتزام في دينهم، فإلى أي مدى بلغنا في كفرنا؟ .. بل هل أشركنا بالله بطريقة أو أخرى؟.
وبمناسبة الحديث عن التفرق والشرك معاً .. كيف كان موقفنا من الآية الكريمة ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . . مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ .. هل كان شركنا أخف أو أثقل من شركهم؟.

إننا لا نتوانى عن نقد النصارى الذين يطرون عيسى بن مريم إلى أن قالوا أنه ابن الرب، ثم صار الكثيرون منهم يقولون أنه الرب .. والرسول أوصانا ألا نطريه (لا تُطروني كما أَطرتِ النصارى عيسى ابن مريمَ فإنَّما أنا عبدُ اللهِ ورسوله) .. فهل خالفنا أمره وأطريناه؟ .. وهل لا نزال نعتقد أنه لا بأس بالمبالغة في إطرائه؟ .. بل أين وصل **بعضنا** في إطراء محمد ﷺ وآل محمد وأصحاب محمد وأصغر تلميذ من تلاميذ محمد .. ألا يقدسونهم أكثر مما يقدس النصارى مسيحهم؟.

هل فكرنا في ذلك وفي عشرات الأمثلة الأخرى أو خطر في بالنا أننا وقعنا فيها؟ .. أم أننا ننكرها من أساسها ولا نسمح لأنفسنا التفكير فيها ونكره أن يخطر على بالنا مجرد الشك في سلامة اعتقادنا؟.

---

1 سنبحث بالتفصيل في بحث بعنوان (من مشنا الحبر يهودا هنسيا إلى رسائل الراهب بولص الرسول) — في الجزء الأول (بين منظومتين) من الكتاب الثالث، كيف حصل التحريف والتزييف عند السابقين وإلى أي درجة وصل تحريفنا مقارنة بهم.

وماذا لو كان كُفرنا وشركنا أكثر التباساً من كفرهم وشركهم بحيث يصعب كشفه فخفي علينا ولم نعد نبصره أو نشعر به كما حصل لأمم تعيش بيننا ويظهر لنا كفرها وشركها بوضوح كنور الشمس كما يقولون؟.

الفصل الثاني: مكانةٌ لا تتوافق

نظرة في واقع إنسان عاجز وأمة تحتضر

﴿ وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾

تعددت آراء المفكرين وتنوعت حول توصيف أحوال العالم الإسلامي .. ولكن هناك شبه إجماع على وجود انحطاط أخلاقي وعلمي واجتماعي واقتصادي ومعنوي في هذا العالم، كما أن هناك اعتراف بوجود مشكلات كبيرة تعمُّه وتعاني منها شعوبه يمكن إجمال جميع مكوناتها بما نطلق عليه صفة التخلف.

وإذا كنا نفاخر بأن لدينا دين عظيم حفظه الله تعالى لنا في كتابه العزيز، ونعتقد بما وصلنا من تعاليم رسوله الكريم من أقوال وأفعال، فما الذي أصاب المسلمين ليعانوا ما يعانونه؟ .. ولماذا لا نزال تائهين ومختلفين؟.

ولماذا لا تتناسب النتائج الحقيقية لواقعنا مع ما هو متوقع من المؤمنين وأتباع دين الله الحق القويم؟.

وما هي حقيقة المصيبة التي ألمت بالعالم الإسلامي لتظهر فيه كل هذه العوارض؟ .. وما هي جذور وأسباب الأمراض التي يعاني منها؟ .. وما الذي يحتاجه ليعود إليه توازنه وينهض من غفوته؟.

على المستوى الفردي

آفات ومعاناة

لقد أضاع المسلم رسالته وفقد اتجاهه وانتكست حضارته منذ زمن بعيد .. وأضحى اليوم كائناً معقداً يعيش حالات التخلف الإنساني بامتياز، وكأنما فَقَدَ ما نُفخ فيه من روح الله .. ويظهر ذلك في عيونه وكلامه ومواقفه وتصرفاته .. وباتت تعصف به وتمزِّقه وتحول دون انطلاقه آفات وعاهات وعقبات كثيرة.

صحيح أن هذا التخلف يتراوح في شدته وسوئه من شخص لآخر، وأن تعميمه على الجميع لا يتوافق مع المنهج السليم في التقويم، ولكن هذا التوصيف ينطبق على واقع المسلم في عمومه وما يغلب فيه .. و**صحيح أنه لا يستطيع أحد أن ينكر ما حصل من وعي نسبي نتيجة** جهود الدعاة والمصلحين الذين عملوا في القرن العشرين وأفضى إلى شيء من التغيير .. ولكن هذا الوعي لا يتناسب على الإطلاق مع القفزات الهائلة التي تقدمت بها البشرية في ذلك القرن، فاضمحلَّت آثاره مقارنة بها إلى ما يشبه العدم.

ومع بداية هذا القرن، وبعد أن وصل الأمر إلى وضع لم يعد من الممكن السكوت عليه، وشعر جميع حاضري الذهن أنه لا بد من تغيير جذري فيما نحمله من فكر ونسلِّم له من تراث، بدأت تبزغ الكثير من الأفكار الجديدة في الكتب وعلى الفضائيات وصفحات الإنترنيت .. وقد سهَّل بعضها على الذين يقرؤون ويفكرون للإنطلاق إلى آفاق جديدة وفهم جديد، كما ساهم في تسريع مراجعتهم لأفكارهم الموروثة وقبولهم للكثير مما لم يتعودوا قبوله .. إلا أن آثار هذه الأفكار كانت في المحصلة النهائية آثاراً مشوشة ومبلبلة أكثر من كونها مصححة مقوِّمة، حيث اختلط فيها الحابل بالنابل، وبدلاً من تخليصنا من حال الضياع التي نعيشها، فقد زادت في حيرتنا، ولم يعد شبابنا يدرون من أي مصدر يستقون ثقافتهم ودينهم، فاتجه عدد لا يستهان به منهم إلى الإلحاد والتبرؤ من الدين جملة وتفصيلاً.

ومع شيوع الجهل والأمية والعطالة والجمود، ومع وجود استثناءات قليلة وأحياناً نادرة، لم يعد من المستغرب رؤية آفات من كل شكل ولون ابتلي بها رجالنا ونساؤنا على حد سواء .. منها ما هو ذو طبيعة بسيطة كالكبت والانفصام والسلبية .. ومنها ما هو مركب .. فغرور ممتزج بعدم الثقة، وجهل ممتزج بالتعالم، ويأس من سوء أوضاع مترافق مع تكبر واعتزاز بالنفس، وتظاهر بالزهد يخفي وراءه انغماساً في ممارسات منحرفة من الناحية

المادية تجاوزت انحراف من نصفهم بالماديِّين والانتهازيين والوصوليين، واحتقار للآخر يضمر حسداً لأمم متقدمة مزدهرة لا نستطيع أن نطال شيئاً مما تستمتع به شعوبها.

وسواء صحت مواقف الآخرين منا أم لم تصح، فهل لنا منافس بين الذين يُحذَّر من شرهم ولا يوثَق بهم ولا يأمنهم غيرهم أو يشعرون بالسلام معهم؟ .. وهل يتفوق أحد علينا في صفات من يُخلفون في مواعيدهم ويخونون في عهودهم مع الآخرين وفيما بينهم؟.
ألسنا في نظر بعضنا ونظر الكثير من أقراننا أكثر الناس جهلاً وكذباً ونفاقاً وخداعاً وعنفاً وإرهاباً؟ .. ألا نتربع على قمة من يُستخف بعقولهم وكراماتهم وأرواحهم وإرادتهم؟.

وماذا عن الثقافة الشائعة بين أفرادنا؟.

أليست ثقافةً معقدة ومركبة لا تستطيع أن تمسك بطرف من أطرافها؟ .. ألا تعجُّ بعقائد منحرفة وأفكار واهمة فاسدة، وخرافات وأساطير لا يستطيع الشباب تمييزها عن حقائق العلم والدين؟.

وماذا عن التراث والتاريخ؟ .. ألايفهمه أفراد كل فئة على هواهم، ويتلاعب به كبراء كل ملَّة ليتوافق مع أفكارهم المسبقة السفيهة؟.

أم ماذا عن آراء وصلت إلى الشباب المسلم من مستعمِرين ومستشرقين ومستغربين، ناهيك عما يتلقفه من كل حدب وصوب من وسائل إعلام لا تُعدُّ ولا تحصى؟ .. ألم يكن لها مع ما فيها من فوائد إيجابية أثر سلبي، فزادت من جهلهم وعززت تعالمهم وعمقت مأساتهم؟.

مزيج من أفكار ومواقف لا تناغم فيها ولا انسجام، وخصائص محيِّرة تنعكس تناقضات في أخلاق المسلم المعاصر وسلوكه ومواقفه وأعماله .. فأصبح مشرذماً مشتت الذهن بين عشرات المؤثرات التي تتجاذبه، فلا نستطيع أن نخمِّن ما يملأ دماغه من أفكار، ومن أين وصلته، وكيف يمكن تخليصه من السيئ منها، وكيف نتعامل معه أو نحكم عليه.

واتسعت الفجوة بين واقع المسلم اليومي وتطبيق النظري مما يفكر ويقتنع به، وصحبته معاناة مؤلمة انعكست على شكل هزائم يومية في صراعه مع أهوائه وإغراءات الحياة ومطالبها، وحاجاته والهرولة وراء تلبيتها .. وصار يجمع ببراعة وارتياح بين رغبة جامحة في ممارسة ما يؤمن ويبشر به، وعجز كامل عن القيام بعمل واحد يوصله إلى غايته .. طهارة في الصلاة مع خبث وخداع في السوق .. بكاء من خشية الله ومعاملة سيئة مع الناس .. حِملٌ وديع مع الغرباء والأعداء، وذئب فاتك بين أهله وأتباع دينه .. كذب وغش ونفاق اجتماعي قَلَّ أن تجد له مثيلاً في أي أمة أخرى، مما كرس الضعف في إرادته وإخلاصه، وأحبط مساعيه في تحقيق التغيير المنشود، وأعجزه عن فعل شيء لتقويم مساره أو التخفيف من أضرار انحرافه وبؤسه.

ثم .. وما يثير العجب بعد ذلك .. ترى بيننا من هو راض عن نفسه راثياً لحال الآخرين ومشفقاً عليهم لما هم فيه من ظلام وضلال! .. وترى فينا من هم سعداء مطمئنين يملؤهم اليقين بصحة ما يروى على أسماعهم، ولا يدركون ما هم فيه من جهل وغياب.

وفي حين كانت الأسئلة عن تخلفنا مقارنة بالأمم الأخرى مطروقة ومتداولة إلى عهد قريب، صار فينا من يشكك بتقدم غيرنا علينا، ويرضى بتفاصيل حالنا، فلا يريد تغيير شيء في حياته ومواقفه وظروفه .. بل إن فينا من وصل فيهم الغرور والوهم لدرجة الشعور بالتميز على الأمم الأخرى، والخشية من حسدهم لنا على ما نحن فيه من نعم خاصة ورعاية ربانية وحماية إلهية لا يتمتع بها غيرنا.

فكيف يمكن تحسيس شخص أو إقناعه بتغيير طريقته في الحياة، وهو من يعتز ويفاخر بحاله بكل جهله وسوء أوضاعه؟.

إن قلت له: دعنا نبحث عن حقيقة الإيمان .. أجاب: نحن والحمد لله مؤمنون ونشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، ونقيم الصلاة ونصوم ونحج وندفع الصدقات .. فما هو المطلوب منا أكثر من ذلك؟.

وإن تحدثت أمامه عن جانب من جوانب النهضة ودور كل منا فيها، بادرك بالحديث عن الأخلاق الرفيعة للمسلم التي لا تجد لها مثيلاً في العالم، وعن نظافة تفكيره وصفاء سريرته، فما الذي يفيدنا من النهضة والتحضر؟ .. فكيف ندعي بعد هذا أننا مؤمنون وأننا في النور؟ .. وكيف ننام مرتاحي البال بما نحن فيه من جهل وضياع؟.

لقد راوحنا في مكاننا لزمن طويل، ولم تنفع محاولات المفكرين والمخلصين في إعادتنا إلى رشدنا .. وما زالت كلمات محمد إقبال التي قالها منذ أكثر من قرن تصف واقعنا الراهن وكأنه يقولها اليوم: *"إن كعبتنا عامرة بأصنامنا، وإن الكفر ليضحك من إسلامنا .. شيخنا قامر بالإسلام في عشق الأصنام .. هو في سفر دائم مع مريديه، وفي غفلة عن حاجات أمته .. واعظنا إلى بيت الصنم ناظر، ومفتينا بالفتوى يتاجر .. إنك أيها المسلم لا تزال أسيراً للمتزعمين للدين، والمحتكرين للعلم، ولا تستمد حياتك من حكمة القرآن رأساً .. إن الكتاب الذي هو مصدر حياتك ومنبع قوتك، لا اتصال لك به إلا إذا حضرتك الوفاة فتُقرأ عليك سورة «يس» .. فوا عجباً، لقد أصبح الكتاب الذي أنزل ليمنحك الحياة والقوة، يتلى عليك الآن لتموت براحة وسهولة"* .

على مستوى المجتمعات والدول

مآسي ومشكلات من كل صنف ولون

والعالم الإسلامي بشكل عام عالم يسوده الفقر والعنف والفساد والاستبداد .. أمراض مزمنة تفتك بنا ونعاني بسببها عذابات أليمة لا نعرف سبيلاً للخروج منها، ولا يتوفر بين أيدينا رؤيا واضحة ترشدنا، ولا منهج مقنع يمكن أن يبشر الناس بنهضة وشيكة .. ولا يكاد يجمع اثنان أو ثلاثة من مفكرينا أو مجموعة صغيرة من مثقفينا أو عامة الناس فينا على السير معاً خطوة واحدة إلى الأمام كبقية خلق الله.

لقد فقدنا وجهتنا ولم نعد نعرف كيف نخرج من مأزقنا، ولا كيف نقرر مصيرنا .. بل لا نعرف ماذا نريد وفيما إذا كان ما نريده يمكن تحقيقه .. وتحطَّمت نفوسنا وصار الحليم فينا حيران، وسيطرت علينا حال من الانكفاء واللامبالاة .. فولَّد ذلك فينا يأساً مطبقاً، وكأن كل الأبواب قد سُدَّت في طريقنا.

والبلدان والمجتمعات العربية والإسلامية تعاني على جميع المستويات **من كثير من المشكلات والأزمات** .. **بل** مشكلات مستعصية **من كل الأصناف** وفي مجالات ومناحي الحياة المتنوعة، وإن اختلفت درجات تأثيرها بين دولة وأخرى ومجتمع وآخر .. وتكاد تمس كل جانب من جوانب حياتنا .. مشكلات في الصناعة والزراعة والتعليم والأمن والصحة والإسكان وتأمين المرافق والخدمات الأساسية لحياة لائقة كريمة.

صحيح أنه تشاد منشآت جديدة في كل مكان، وتستورد أجهزة حديثة من كل مكان .. ولدينا في بعض الدول من وسائل الإتصال والنقل والرفاهية ما لدى غيرنا من الأمم والشعوب وأحياناً أكثر .. ولكنها لا تعدو عن كونها ضرورات النمو حيناً ومظاهر التفاخر والزهو في أحيان أخرى .. وهناك فرق كبير بين النمو والتقدم .. فالنباتات والأشجار تنمو .. والحشرات والأنعام والدواب تنمو .. وأكثر التجمعات تخلفاً في العالم لم تنمو ويزداد عددها وتتوسع معه خدمات عيشها .. أما التقدم والتحضر والنهضة والتطور فهي مسائل أخرى مختلفة.

فعلى الرغم من ذلك الشعور الكاذب في عيش حياة عصرية في بعض بلداننا نتيجة توافر الكثير من الأدوات التي تحيط بنا مما أبدعه وصنعه غيرنا .. فإن هناك قناعة لاشعورية بأن التخلف لم يبارحنا في يوم من الأيام .. وأن أوجه التمدن هذه ما هي إلا مظاهر خادعة تخفي وراءها صفات الانحطاط والعجز والضياع .. وغدا الحديث عن التحضر والنهضة في معظم هذه البلاد عملاً مؤجلاً، وأدركنا أنه ليس بوسعنا أكثر من العمل على تقويم بعض القضايا الأساسية والنجاح في التغلب عن شيء من المشكلات التي نعانيها.

فقد أمضت الحكومات المتعاقبة في معظم بلاد المسلمين عقوداً تحاول – أو تبدو أنها تحاول — دون جدوى في حل مشكلات التنمية من صحة أو تعليم أو حكم رشيد دون تحقيق أي نجاح يذكر .. بل إنها أخفقت في تذليل عقبة واحدة من العقبات التي تحول دون حلِّها.

وأمضينا عقوداً، ولا نزال نسمع عن عجز وزارات متتالية عن حل مشكلة الرغيف والكهرباء والمياه وتنظيم السير والتعامل مع القمامة والتلوث .. بل إن بعض البلدان لا تزال تحبو في أول خطوة في الوصول إلى أبسط الإنجازات كالمحافظة على نظافة الطريق وتنظيم المرور، أو النجاح في تعديلٍ ولو طفيف في آداب السلوك والذوق العام، ولا يتجاوز مفهوم الحضارة عند قادتها وشعوبها الكف عن رمي القمامة في الشارع أو فوق رؤوس الجيران .. وصار الشعار الوحيد المتفق عليه دون تنفيذ هو "النظافة حضارة".

ويشعر المتعلمون وغير المتعلمين بهذه المشكلات ويتناقشون فيها ويضعون لها حلولاً نظرية تبدأ بتغيير مناهج التعليم، وتمرُّ في تعزيز دور مراكز البحوث والجامعات وتحرر المرأة، وتنتهي عند إصلاح القضاء والبرلمانات والحكومات أو إصلاح الإنتخابات والصحافة وتعدد الأحزاب .. وهذه حلول ترقيعية كاذبة نضحك بها على أنفسنا، ولن يفيدنا أي عمل ما لم يتغير الإنسان[1] .. ولا يمكن تغيير هذا الإنسان إلا بتغيير فكره.
أما عن مكانتنا بين الأمم .. **فحدِّث ولا حرج** .. فنحن باعتراف جميع الذين يستخدمون عقولهم جيداً لم نمارس يوماً حريتنا ومسؤوليتنا .. ولم نشهد منذ قرون نظاماً واحداً لحكم رشيد .. وبغض النظر عن مواقف الآخرين منا، والمعاملة الظالمة التي يُعاملونا بها، فلم يعد خافياً على أحدكم نشنِّع بأنفسنا عندما ندعي تقدمنا وتحضرنا بمقارنة بسيطة بين ما يحصل في بلادنا مع نسمعه عن تعامل غيرنا من الدول مع مواطنيها وازدهار مؤسساتها وحرية وكرامة وقيمة الإنسان فيها[2].

فالمجتمع المسلم عموماً، والعربي خصوصاً، يعيش في ظل غياب شبه كامل للحرية والعدالة، ولا يتحقق فيه الحد الأدنى من الكرامة والإنسانية .. الفرد فيه مقهور من قبل حاكمه المتسلط عليه بغير حق، وهو مجرد من حقوقه الأساسية .. فكيف يتوافق دين الله الذي يدعو إلى القسط والرحمة والإحسان والإصلاح وكرامة الإنسان وإعمال العقل وإطلاق الفكر ومنع الإكراه والظلم والفساد مع واقع يتناقض مع ذلك؟.

---

1 وردني نقد من أحد الأصدقاء يرفع فيه اللوم عن الشعوب فيما آلت إليه حال مجتمعاتنا، كما يرفع اللوم عن الأفكار التي تحملها هذه الشعوب ويضع المسؤولية على الذين يحكمون .. وهذا يعيدنا إلى المربع الأول، وإلى قرن مضى عندما كان المفكرون يعزون مشكلاتنا إلى سبب وحيد .. وهذا ما يجعلنا نؤكد أن المشكلة معقدة وليست بالبساطة التي نتوهمها.

2 أشير هنا إلى أنني كتبت هذا الموضوع وكثيراً من مواضيع مجموعة (الخروج) قبل انطلاق ما سمي بثورات "الربيع العربي" .. ثم قمت بإجراء التعديل اللازم في ضوء الأحداث الجارية والمتسارعة .. وربما لا يصل إلى القارئ إلا ويكون بحاجة إلى المزيد من التصويب والتعديل الذي أثق بقدرته على إجرائه لينسجم مع الواقع.

وكيف يتوافق إيمان صحيح بالله مع إحصاءات ومؤشرات التنمية التي تنشر عن العالم العربي والإسلامي وتمنحنا الدرجات الدنيا، بل تصنفنا مع الأوائل في التعاسة والفقر؟ .. وماذا عن الأمية التي تتعايش مع نصف سكان العالم العربي؟ .. وأين يقع تصنيفنا عند الحديث عن الجهل والعزوف عن التعلم والقراءة أو حين توضع البيانات عن الغش والرشوة وتلوث البيئة وهدر الموارد والتفريط فيها؟.

لماذا تقول التقارير والبيانات أن معايير ومؤشرات التخلف والفساد والاستبداد دون استثناء تقريباً هي السمات الغالبة التي تميز مجتمعاتنا الإسلامية ويعرف بها أفرادها؟[1].

ومن هي الدول التي تنال النصيب الأكبر من مساعدات الدول الغنية حتى غدا العالم ينظر إليها كعبء في طريق تطوره والمزيد من رخائه؟ .. ولم لا نزال نشكل أكبر نسبة ممن يقتاتون على ما يقدمه العالم من مساعدات وإغاثات ومعونات، حتى لنكاد نغدو العقبة الأكبر في طريق تقدمه؟.

وإذا كنا نعتقد أننا أكثر الناس إيماناً في هذا العالم، فلم نحن أكثر الناس تفرقاً وعنفاً وصراعاً ومعاناة ؟ .. ولم نحن في الوقت ذاته أكثرهم رضاً بأصناف القهر والظلم والضعف والخنوع ؟[2].

ولماذا أصبحنا أشهر المتقاتلين والمتفرقين والمتصارعين والمشردين واللاجئين ؟ .. وأين نحن من صفات المؤمنين الذين يتعاونون ويتعاطفون ويتراحمون ويتناصرون؟ .. أين نحن من وصف المؤمنين (المؤمنُ للمُؤْمِنِ كالبُنيانِ؛ يَشُدُّ بَعضُه بَعضًا)؟ .. وأين نحن من تشبيههم بالجسد الواحد (مثَلُ المؤمنينَ في تَوادِّهم وتَراحُمِهم وتَعاطُفِهم، مَثَلُ الجَسَدِ؛ إذا اشتكى منه عُضوٌ تداعى له سائِرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ)؟.

ألا يدلُّ الواقع الذي نعيشه والمعاملات التي تسود فيما بيننا وتلك التي نتعامل بها مع الآخرين، ومعاملتهم لنا أننا نعيش في ظلمات حالكة؟.

ثم كيف نستطيع أن نفسر أن الكثير من وعود الله تعالى للمؤمنين، والكثير الكثير من تأكيداته على نصرهم وتحقيق عزتهم وعلوّهم، وفي الاستجابة لأدعيتهم لا تتحقق فينا؟.

نقرأ في كتاب الله تعالى فنفهم أننا خير أمة أخرجت للناس .. ونتساءل: هل نحن اليوم خير أمة؟ .. وما الجهود التي يقدمها الشباب الذين ولدوا في بيئة مسلمة تعرف لغة القرآن في معرفة وخدمة دينهم وتقديمه نقياً صافياً لغيرهم من شباب العالم؟.

---

1 حتى ما يمكن اعتباره بوادر الوعي بأهمية النهوض من هذا السبات الطويل، والذي دلَّ عليه ما حصل في السنوات الأخيرة مما يطلق عليه ثورات "الربيع العربي" أثبت أن الغالبية العظمى من الناس لا يزالون بعيدين عن المعاني الحقيقية للوعي والحرية والنهوض.

2 كتب هذا الكلام عام 2009 وربما لم يعد من الإنصاف تعميمه.

ونقرأ في كتاب الله تعالى فنفهم أنه عز وجل قد جعل منا أمة وسطاً لنكون شهداء على الناس .. فهل نحن من نشهد على الناس أم أننا نحتاج لمن يشهد علينا؟ .. وهل المسلمون مثلاً هم الذين يُدعَون لمراقبة نزاهة الانتخابات في ألمانيا وفرنسا وبريطانية وكندا والولايات المتحدة؟ .. وكيف لا نصدِّق الانتخابات التي تجري في بلادنا إلا إذا شهد عليها مراقبون غربيون على افتراض أنه سيسمح لهم يوماً بذلك؟ .. ومن الذي يحل النزاعات بين بلدين مسلمين أو بين المسلمين المتقاتلين في البلد الواحد؟ .. وعندما تختلف الجزائر مع المغرب أو قطر مع البحرين ألا تلجأآن إلى المحكمة الدولية في لاهاي ليحكم بينهم قضاة غربيون؟.

وبغض النظر عن خلفيتها ونواياها وممارساتها .. من أين انبثقت منظمة Human Rights Watch المعنية بمراقبة حقوق الإنسان؟ .. هل مركزها في بلد من بلاد المسلمين ولها فروع عاملة ناصبة في اليابان ونيوزيلاندا والسويد .. أم تتزاحم أعمالها في البلاد الإسلامية؟.

وهل يهرب الناس من ظلم حكامهم في ألمانيا والنمسا وكندا ويلجؤون إلينا؟ .. أم أننا أكثر المصدِّرين للاجئين إلى بلاد "الكفار!" هروباً من الظلم والقهر والفقر والبطالة والاضطهاد؟[1].

أليس شبابنا وكهولنا ونساؤنا وأطفالنا هم من يخاطرون بأرواحهم بركوب البحر على زوارق مهترئة ليلجؤوا إلى دول في الشرق والغرب لتحميهم وتحقق لهم شيئاً من كرامتهم وطموحاتهم؟ .

ألا يحير الواقع الذي نعيشه كل من يفكر فيه؟ .. .. ألم يغدو اليوم أسوأ بكثير مما كان عليه قبل عقدين أو ثلاثة أو ستة؟ .. ألا يبعث حالنا الذي يتدهور مع مرور السنين على الإحباط واليأس والهروب؟ .. **وهل بقي عند عاقل واحد أي شك في** أننا كنا ولا نزال رهائن في أيدي لصوص يحرصون على جهلنا وتخلفنا وتفرقنا وإفقارنا واستعبادنا إلى يوم الدين؟.

1 وصل عدد اللاجئين في العالم إلى ما يزيد عن 60 مليون لاجئ في عام 2014 وإلى حوالي 92 مليون عام 2016 .. ثمانون بالمئة من هذا العدد هم من المسلمين.

مؤشران

لا ينكرهما إلا جاهل أو مكابر

إن القارئ المتدبر لكتاب الله تعالى يمكنه بسهولة أن يستنتج وجود مؤشرين واضحين على أن مكانة المسلمين اليوم لا تتوافق أبداً مع ما يجب أن يكون عليه حال المؤمنين.

الأول هو إحصاءات التخلف والفساد، وما نقرؤه ونسمعه عن مكانتهم وسمعتهم في هذا العالم .. **والثاني هو أن كثيراً من وعود الله عز وجل للمؤمنين** .. وهو عز وجل أصدق من يفي بوعده وعهده .. **لا تتحقق فيهم**، بل لا يتحقق فيهم أي من هذه الوعود .. ولا نرى في واقعهم أي أثر للكثير من تأكيدات الله تعالى للمؤمنين .. وهناك مؤشرات كثيرة أيضاً أنه تبارك وتعالى لا يستجيب دعاءهم.

ولا يكاد العالم الإسلامي يخرج من متاهة إلا ويكون قد دخل في متاهة جديدة أسوأ من سابقتها .. فأين هو النور الذي جعله الله تعالى لعباده المؤمنين يحيون به ويمشون به في الناس ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾؟ .. أين هو النور الذي يخرجنا مما نحن فيه من ظلمات الصراع والتقاتل والانحطاط والتخلف، ويخلّصنا من جدالنا وتسنُّننا وتشيُّعنا وانقساماتنا وذلّنا واحتقار أمم العالم بمن فيهم أرذل خلق الله لنا؟.

وإذا كنا عمياناً ممن ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ﴾ .. فما الذي ينفع من وجود هذا النور مهما كان ساطعاً؟ .. النور ينفع عندما يكون لدينا بصر وبصيرة .. وهذا لا يتوفر إلا للذين آمنوا .. وهذا الإيمان لا يتحقق إلا لقوم يعقلون ويتدبرون ويفكرون ويسيرون فينظرون ويراجعون ويقوّمون ويختارون.

وهل يتوافق واقعنا مع تولّي الله للمؤمنين الذين ينير لهم الطريق فلا ينحرفوا عنه أبداً ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾؟ .. أم يدل على أننا بدرجة ما بين الإيمان والكفر ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ﴾؟.

وماذا عن عزة المؤمنين وعلوّهم مع بقائنا في هذا المستوى من التخلف والجهل؟ .. وهل من ندعوهم اليوم "مسلمون" هم من الأمم العزيزة في العالم؟

وكيف لا نكترث ولا نقلق ونحن نقرأ قول الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ .. أو قوله عز وجل ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ثم ننظر فنرى أنفسنا مقارنة بالأمم الأخرى أننا لسنا (الأعلون)، ولسنا في الوسط، ولا حتى في ما دون الوسط .. بل في أسفل قائمة الضعف والذل والاستكانة والهوان .. وآلاف مؤلفة من رجالنا ونسائنا وأطفالنا الأبرياء تهان كرامتهم وتسحق إنسانيتهم أو يقبعون لسنين طويلة في سجون أعدائنا ومستعمرينا ومستبدينا ثم تزهق أرواحهم، وليس في أيدينا حيلة ولا نستطيع أن نحرك ساكناً؟.

وكيف يهنأ لنا عيش عندما نقرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ ثم نرى أن الوقائع والأحداث تدل أننا لسنا مع المجموعة التي يدافع الله عنها، بل مع مجموعة الخوانين الكفرة التي لا يحبها؟.

وكيف يعد الله المؤمنين بالنصر ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ .. ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ونحن حملة كتاب الله نغدو أكثر الناس سقوطاً ونواجه هزيمة تلو الأخرى منذ عقود وقرون؟.

وأي غباء ونكران هذا الذي نمارسه عندما نقنع أنفسنا أننا الزمرة التي اختارها الله دون أصحاب الديانات والمذاهب الأخرى لنسود في الدنيا ثم يخصنا عز وجل بجنته في الآخرة، وأن الآخرين يعيشون معيشة ضنكاً بانتظار ما أُعدَّ لهم من عذاب مقيم؟ .. بل كيف لا نصل إلى حافة الجنون فنضرب رؤوسنا في أول جدار نصادفه عندما نقارن أحوالنا بأحوالهم على جميع المستويات؟.
ثم إن الله تعالى أوضح في كتابه العزيز المبين بكلام لا يحتمل أي شكل من أشكال التأويل والفلسفة والتلفيق .. أنه **يستجيب لدعاء عباده المؤمنين** ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ .. وإذا كنا نؤمن أن القرآن الكريم هو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. وأن الله هو أصدق القائلين ﴿وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ .. فإذا دعوناه عز وجل صباح مساء ولم يتحقق شيء مما نرجوه من دعائنا، أفلا يدعونا ذلك إلى مراجعة أنفسنا والشك في أفكارنا ومواقفنا وسلوكنا؟.

وإلى متى ننكر ونتجاهل هذه المؤشرات ونستمر في خداع أنفسنا؟.

أليس الأولى بنا أن نعترف بوجود مشكلة كبيرة تتطلب البحث فيها ومعرفة حقيقة حالنا ونتدارك قصورنا وعجزنا ونصحح مواقع ضعفنا وإهمالنا؟.

المتمرسون على التلفيق والتحايل

الهروب من الاعتراف بدلالات الواقع

إذا جرب شخص محايد فهم هذا التناقض الذي نعيشه، وبحث في أسباب هذه الفجوة الكبيرة بين واقع المسلمين وما يجب أن يكون عليه حالهم كما يقرؤه في كتاب الله الكريم .. فمن السهل عليه أن يجد حلاً لهذه المسألة في واحد من تفسيرين لا ثالث لهما:

التفسير الأول هو أن الله تعالى "أستغفر الله" وعلى الرغم من صحة إيماننا قد أخلف وعده لنا بالعزة والنصر والعلو ووراثة الأرض وغيرها من وعوده للمؤمنين، وأنه تعالى – على الرغم من تحقيقنا الشروط اللازمة من إيمان صحيح وعبودية كاملة – قد أوقف الاستجابة لأدعيتنا.

والتفسير الثاني هو أننا لسنا مؤمنين كما يريد الله عز وجل، وأننا لا نحقق العبودية له تعالى كما يرضيه، وأن هناك خلل ما فينا بغض النظر عن كونه **انحرافاً أو تقصيراً**.

أما تفسيره الأول فإننا نستنكره ولا نجد فينا من يمكن أن يقول به، ولا من يستسيغ أن يخطر في باله ولا أن يذكره .. والسبب وراء إنكارنا له هو أننا نؤمن بكتاب الله الحكيم، وأنه كتاب حق وصدق، لا تناقض فيه ولا اختلاف، ونوقن أن وعود الله للمؤمنين من عباده الصالحين الواردة في هذا الكتاب لا بد أن تتحقق فيهم.

وبعد أن استبعدنا التفسير الأول، فليس أمام العاقل إلا أن يعترف بالاحتمال الثاني .. ولكن هل هذا ما يحصل؟ .. أم أنك ستجد الكثير من المراوغين والملفقين يحاولون إيجاد مهرب من هذا الاعتراف أيضاً؟.

وأغلب الناس يقولون مثلاً: إننا مؤمنون والحمد لله، ولكنه تعالى قد "أجَّل" تنفيذ وعوده لنا لحكمة أرادها، أو أنه عز وجل قد "ادَّخر" الاستجابة لجميع أدعيتنا في الدنيا ليثيبنا عليها في الآخرة، ولأنه أدرى بأحوالنا فإنه جل وعلا سيعوضنا عما طلبناه بأفضل منه مما يصلح به دنيانا وآخرتنا.

ويسألونك: من نحن لنحاسب الله ونفتش عليه إن استجاب لنا أم لم يستجب؟ .. وهل تعرف شروط تلبية الدعاء؟ .. ثم يضعون لك شروطاً تعجيزية .. أو يقولون لك: ربما لم نختر الدعاء المناسب .. دعونا نجرب في المرة القادمة دعاء الله باسمه الأعظم، ويعطونك وصفة جديدة للدعاء المستجاب، ولا يدركون أن الله عز وجل يعلم ما يرجوه منه عباده دون أن ينطق أحدهم بكلمة واحدة.

ولا يملك المقلدون الآبائيون ولا سيما رجال الدين منهم الشجاعة ليقرَّوا بأي من الأوضاع السيئة التي نعيشها والتي تفقأ العين، وربما –وهو الغالب– أنهم لا يملكون القدرة على فهمها أو استيعابها .. وعلى الرغم من مرور القرون على حالهم هذا تجدهم يبحثون عن مبررات وتلفيقات ساذجة تريحنا من إعادة النظر بالجانب الذي يخص عبوديتنا لله وطريقة إيماننا.. ويصرُّون أننا أحب خلق الله إلى الله وأقربهم إليه، وأن ما وقع ويقع علينا من مصائب هو منحة اختصنا بها ودليل حبه عز وجل لنا ورحمة منه في التكفير عن بعض اللمم من ذنوبنا.

وأكثرهم غروراً وجهلاً أولئك الذين لم يعرفوا بعد أننا في مأزق ولو صغير، وتجد فيهم من يستنكر عليك موقفك ويسألك: ما بالك تسقط مشكلاتك على جميع المؤمنين؟ .. إذا كان دعاؤك لا يستجاب فنحن تستجاب والحمد لله كل أدعيتنا .. وإذا كانت لديك مشكلة في إيمانك فلم لا تحلَّها بعيداً عنا؟ .. وإذا كنت لا تشعر بالعزة والنور والنصر فنحن والحمد لله نشعر بها كلها.

أو تجد من يقول لك: نعم .. نحن مؤمنون إن شاء الله ولكننا مقصِّرون .. ألم تسمع بقصة السواك والهزيمة؟ .. فالنصر لا يتحقق للمؤمنين ما لم يعتنوا بكل التفاصيل، وربما نكون قد نسينا شيئاً صغيراً هنا أو هناك لا يعدو في أهميته طول الثوب أو اللحية أو الالتزام بإحدى "السنن" الشكلية.

وتراهم يطمئنون الناس صباح مساء، فلا يرون الواقع ولو هزموا ألف مرة، ويفاخرون بعزة المؤمن ولو كانوا على رأس قائمة الدول المتسولة في العالم .. ولا يعترفون بوجود مشكلة حقيقية على هذا المستوى في إيماننا وعملنا تحول بيننا وبين ما نسعى ونأمل بالوصول إليه من نتائج مرجوة.

وربما كان هذا الغرور والاطمئنان هو ما يمنعهم من رؤية آثار ضياعنا مهما كانت واضحة وقوية .. ويقولون لك أمة محمد بخير، ويشرحون لك حديثاً كما فهموه على طريقتهم يستشهدون به للدلالة على ذلك (لا تزالُ أُمَّتِي بخيرِ ما عَجَّلُوا الإفطارَ وأخَّرُوا السُّحورَ) .. وهم بلا شك يعجِّلون ويؤخِّرون كما هو مطلوب، فلم الهمُّ والقلق؟!.

واختُزلت المسألة كلها في التعجيل في الإفطار في رمضان .. فليستمر المسلمون في التعجيل في إفطارهم وتأخير سحورهم وسيكون كل شيء على ما يرام .. ولينسَوا ما يُسلب من أموالهم وما ينهب من ثرواتهم ومن يهان من ناسهم ويغتصب ويسبى من نسائهم ويقتل على قارعة الطريق من شبابهم، فكل ذلك خير! .. ولا بأس إن أهينوا وعذبوا وهجِّروا فهذه مسائل ثانوية يجب ألا نعيرها اهتمامنا ولا نلقي لها بالاً! .. والشر الوحيد هو في تأخير شرب أول رشفة ماء.

كما أن لديهم مؤشراً آخر يستشهدون به لتعليمك كيف تكون الأمم بخير .. فهم بخير وكل شيء في حياتهم سيكون على أحسن حال ما لم يخوضوا في مسألتي القدر وأولاد الكافرين[1].

فهم بخير طالما تحاشوا النقاش متى يكون الإنسان مسيَّراً ومتى يكون مخيَّراً .. والتي هي – بالطريقة التي يفهمونها ويكفِّرون من لا يؤمن بها على طريقتهم — عينة من المعتقدات الفاسدة وفيها الكثير من الافتراء على دين الله.

وهم بخير طالما أنهم لم يشككوا في روايات فهم بعضهم منها أن الله سيعذب من يموتون أطفالاً من أولاد الكافرين ويأخذهم بجريرة آبائهم ويدخلهم إلى النار لأنه تعالى أعلم بما كانوا سيفعلون، وأنهم لن يكونوا إلا مثل آبائهم.

المضحك المبكي هو أن بعض الخطباء ورجال الدين يحدثونك لساعة كاملة عن العزة والكرامة والانتصارات التي تعيشها أمة محمد، وعن الخير الذي يخصّثها دون غيرها، والبركة التي تعمُّها فلا تغيب عنها، والأمن والحماية والرعاية الربانية التي تتمتع بها أوطانها .. وما إن يفرغ أحدهم من خطبته أو خطابه حتى ينهي حديثه بالطلب إلى الحاضرين التضرع معه إلى الله أن يرفع بلاءه وسخطه وغضبه عن هذه الأمة؟ .. فكيف لنا أن نقبل هذا التلفيق الذي يحدث في جلسة واحد؟ .. وهل وصل بهم الغباء إلى هذه الدرجة أم أنهم يراهنون على بلادتنا وغياب وعينا؟.

لو كنا نرى في الواقع أن الله تبارك وتعالى يستجيب لدعاء المسلمين ويحقق فيهم الكثير مما وعد به المؤمنين المخلصين من عباده، ويبقى القليل مما لا يستجاب لهم ولا يتحقق فيهم، يمكننا أن نتفهم تفسير ذلك بأن حكمة الله اقتضت التأخير أو الادخار لآخرتهم أو أي تفسير آخر مما ذكر .. ولكن عندما يدعونه ألف عام أن ينصرهم ويتولَّاهم ويعزُّهم ويجعل أعداءهم غنيمة لهم! .. ثم ننظر إلى الواقع فنراهم مهزومين مهانين، ونراهم غنيمة للقاصي والداني من الشرق والغرب على حد سواء .. فعندها يجب أن نعي ونصحو ونعيد النظر في طريقة إيماننا وعبوديتنا له تعالى ونراجع طريقة فهمنا لديننا من أولها إلى آخرها.

---

1 الحديث هو: (لا يزال في هذه الأمة قواماً ما لم يتكلموا في الولدان والقدر) .. وهناك أحاديث تفيد (أن أولاد المسلمين في الجنة وأن أولاد الكافرين مصيرهم النار) أي إذا ماتوا وهم صغار يلحقون بآبائهم .. وفيها ما ذكر أن بعض الصحابة تساءلوا فقالوا يا رسول الله: أفرأيت من يموت وهو صغير؟، قال: (الله أعلم بما كانوا عاملين) .. ويعلق ابن قيم الجوزية في كتاب (طريق الهجرتين): أن الأمة قد اختلفت في مصيرهم اختلافاً كثيراً وكان لهم فيهم ثمانية مذاهب، منها أنهم يلحقون بآبائهم في النار اعتماداً على نص في حديث (كما تنتج البهيمة من بهيمة جمعاء هل يحسن فيها من جدعاء).

وعد الله

لا يخلف وعده أبداً

إن أشكال التحايل والتلفيق التي ذكرناها هي محاولات فاشلة ومكشوفة .. كما أن الإصرار على الجمع بين قناعتنا بصحة وسلامة إيماننا وعملنا من جهة، وحقيقة عيشنا في واقع أليم تكتنفه أصناف وإفرازات التخلف والجهل والانحطاط والهزيمة من جهة أخرى هو عجز عن تفسير هذا التناقض بحيادية وتجرد.

ومصدر هذا العجز عائد لجبننا عن مواجهة حقيقة مشكلاتنا، والتمسك بمبررات لا يقبل بها عاقل نحاول الهروب بها من الاعتراف بأن الدين الذي نحمله هو دين مشوه مزيف، أو أننا لسنا مؤمنين .. ونحاول بذلك تحاشي الصدام مع محرَّمات توهمناها أو وضعها لنا الجهلاء والخبثاء فأصبحنا بسببها نخاف من إعمال عقولنا، وكأنما نسيء إلى الإسلام إذا بحثنا عن شيء سلبي أقحم فيه عن جهل أو مكيدة، فأصبحنا بعيدين عن حقيقة رسالتنا، بل أصبحنا في جهل مطبق بالإنسان الذي أكرمه الله تعالى ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته واستخلفه في الأرض[1].

إن فهم القرآن على ظاهره وبساطته ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ يتطلب منا مواجهة حقيقتنا بدلاً من البحث عن معان خفية غير ظاهرة في كتاب الله وكأنه أرسل للخواص منا أو لبشر غيرنا .. ومن أصدق من الله وعداً وعهداً ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ .. ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ ؟.

والإيمان بهذه الآيات يجعلنا واثقين أن وعوده عز وجلَّ لم تتحقق لأسباب تعود إلى سوء فهمنا وتقصيرنا .. وعلينا أن ندرك أن هناك على الدوام شروط مسبقة لعهود الله لا بد أن ينجزها المؤمنون وتأتي أولاً وقبل استجابة وتحقيق وعوده؟ .. والأمثلة على ذلك كثيرة:

فإذا كان الله عز وجل يقول ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ .. فهل نحن مؤمنون حقاً فيتولانا الله ويخرجنا إلى النور؟.

ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ .. فهل حقاً نصرنا الله لينصرنا؟.

1 سنأتي إلى الحديث بالتفصيل عن معرفة قيمة الإنسان في بحث (معرفة الإنسان) في موضوع (البحث عن مخرج) من الكتاب الأخير (التمهيد).

ويقول: ﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .. فهل نحن مؤمنون حقاً لنكون في مكانة عزيزة عالية؟.

فكما نرى فإن وعده عز وجل مشروط، كما كان خطابه لبني إسرائيل مشروطاً: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ .. ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي ﴾ (عمل البشر) .. ﴿ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ (عمل الله) .. وعندما خان اليهود عهدهم مع الله نعرف ماذا حصل لهم .. فهل أوفينا بعهد الله ليوفي الله بعهده لنا؟.

وكذلك وعده تعالى للمؤمنين بالاستخلاف والتمكين ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ .. ولكن يشترط أولاً عملهم وهو: ﴿ يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ .. ومثلها آية: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ .

ومن جهة أخرى .. ألم يصف من يدعونه فيحقق لهم ما يأملون من رحمة بأنهم من المحسنين الذين لا يفسدون في الأرض؟ .. ﴿ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

إن الله عز وجل يستجيب لمن يستجيبون له ويؤمنون به ويشكرونه ويطيعونه، وهم من وصفهم بأنهم (عباد الله) و(عباد الرحمن)، وقال لهم: إني قريب .. أما العصاة والمتمردون فلا مكان لهم في هذه السنة.

أما بخصوص الدعاء .. ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ .. فهل استجبنا لله عز وجل بما أمرنا به وأوصانا وابتعدنا عما نهانا عنه وحذرنا ليستجيب لنا؟.

ثم إن الإنسان يختار أن يكون عبداً لله عز وجل أو يكون عبداً لغيره، فإذا كان عبداً لغير الله، فليذهب ويدعو من اتخذه رباً من دون الله .. والذين لا يؤمنون بالله واختاروا أن يشكروا غيره ويطيعوا غيره، بمن فيهم بعض من يدَّعون أنهم مسلمون، عليهم أن يذهبوا إلى من يشكرونهم ويطيعونهم وينتظروا الاستجابة منهم.

كما أن الله تعالى الذي يدعوه عباده المؤمنون به، فإنهم يدعونه وهم يعرفون أنه تبارك وتعالى إله له أسماء معينة أخبرنا بها في كتابه .. علم كامل وعدل مطلق وقدرة عظيمة .. يعرفونها ثم يؤمنون بها ويدركون عظمة مولاهم جل جلاله .. فإذا كنا ندعو الله معتقدين أن له صفات تختلف عن حقيقته وعظمته وأحياناً تعاكسها تماماً .. فبماذا نختلف عمن يدعون غير الله؟ .. أليس علينا أن نتخيل خطاب القرآن لنا أن اذهبوا إلى ذلك الرب الذي تؤمنون به بتلك الصفات التي في مخيلتكم وادعوه علّه يستجب لكم ؟! .. أو انتظروا الإجابة منه وليس من رب العالمين ﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ .

إن هناك مؤشرات كثيرة تدل على أننا وصلنا إلى حال يرثى لها فعلاً، ومن لا يستطيع رؤية الواقع المرير الذي نعيشه فهو أعمى البصر والبصيرة .. فالأخبار والبيانات صارت في متناول الجميع، والشواهد على تخلُّفنا وانحطاطنا وذلّنا وجهلنا موجودة في كل زاوية ومكان .. وإذا كانت هناك أعذار لمن لم تستطع القرون الماضية أن تكشف لهم حقيقة بعدنا عن دين الله وما يجب أن يكون عليه واقع المؤمنين من أتباعه، فلا أعذار لنا، لأن السنوات الأخيرة وما حصل فيها من انفجار معلوماتي كفيلة بأن تكشف لمن شاء منا الأمثلة والشواهد والبراهين.

عندما كنا نسافر إلى أوربا وشمال أمريكا وغيرها من الدول المتقدمة، كان حديث يدور بين الشباب المسلمين يتمنَّون فيه مازحين أو جادين لو أكمل المسلمون غزوهم ووصلوا إلى تلك البلاد وكان لنا نصيب في طبيعتها الساحرة وغاباتها وأنهارها وحياة نظيفة راقية ومدنية نحلم أن تتحقق يوماً في بلادنا.

واليوم، وبعد فضح المستور ودفع أثمان باهظة لجهلنا وأمراضنا وكبرنا وغرورنا ونفاقنا وتقصيرنا، أصبحنا نسمع من المهجَّرين الفارين من بيوتهم وأوطانهم الإسلامية كم يحمدون الله أن المسلمين لم يصلوا إلى تلك البلاد .. وإلا لما بقي لهم مكان في العالم يفرُّون إليه من المآسي التي أجبرتهم على الرحيل عن أوطانهم .. فهي اليوم، ومع الحزن والأسف، أوطان الأمة الممزقة المحطمة الميتة التي تركن في التفسخ والعفن .. وتلك هي الحقيقة من غير أقنعة ولا عمليات تجميل .. ومن لا يريد أن يصدِّق، فله كامل الحرية في اعتقاد ما يريد.

الفصل الثالث: فكرٌ لا يتوافق

نظرة في ثقافة مفخَّخة وموروث مزيَّف وواقع أليم

ما هي الثقافة التي تقف خلف واقعنا الأليم الذي لا يتوافق مع ما يجب أن يكون عليه واقع المؤمنين؟ ..
وإذا كانت كما ندعي من ثقافة دين الله وفكره، أفلا نثبت صحة ما يروِّج له بعض العلمانيين والملحدين
من أن انسلاخنا عن هذا الدين هو الذي سيحل مشكلاتنا؟.
أم أنها ثقافة مزيفة تنتحل اسم الله وتتحدث بدينه وهي ما جاء دين الله تعالى لمحاربتها واجتثاثها من
جذورها؟.
أليس من المنطقي أنه بجهود إبليس ومن يعمل معه على تنفيذ غدره بالإنسان، وفي غفلة واستهتار من
قبل المسلمين ألا تكون الأمور على ما يرام؟.

حيث لا يمنحنا الدين الذي نتبعه طاقة وحماسة لنؤدي رسالته في الحياة، ولا يؤهلنا لنيل كامل حريتنا وكرامتنا، ولا يدفعنا إلى التعاون والصدق والوفاء .. وحيث لا يبدِّل جمودنا إلى نشاط، وتقاعسنا إلى همة، وجهلنا إلى معرفة .. وعندما لا يتمكن فكر الدين الذي ندعي فهمه من إيقاظ الناس ولا نرى له آثاراً إيجابية واضحة في وجوههم وكلامهم ومواقفهم .. وعندما لا يحرك المجتمع الذي يحمل رايته، ولا نرى نتائجه في بيوتنا وشوارعنا، وفي معاملنا ومزارعنا، وفي مكاتبنا ومدارسنا وجامعاتنا، وفي تفاعلنا الراشد مع العالم.

وإذا طبقناه في مجتمع أو حارة أو قرية، ولم نسمع عن رجال من أمثال عمَّار وحمزة، ونساء من أمثال فاطمة وسميَّة .. وعندما تكون أمتنا أمة متصارعة ممزقة تائهة مبهدلة .. أمة المكائد والدسائس والتقاتل والفساد وسفك دماء أبنائها .. وعندما نكون من أكثر الأمم على وجه الأرض ذلاً وتخلفاً وتبعية وانحطاطاً وتشرذماً.

---

1 نؤكد هنا – كما في كل مرة – أن التعميم غير منصف والكلام هو توصيف للحالة العامة والأكثر شيوعاً وتأثيراً.

فعندها يجب أن نستنتج بسهولة وبساطة أننا لسنا نتاج فكر دين الله (الإسلام) .. بل نتاج فكر دين آخر نظنه كذلك لما فيه من آثار وبقية باقية من الدين القويم .. ولكننا تعوّدنا أن نجزم أن ما بين أيدينا هو دين الله القويم الذي أكمله عز وجل وارتضاه لنا دون أي تغيير .

ومما يجعل الأمور تشتبه علينا ما بقي من قوة الإسلام الذاتية التي تظهر في استمرار دخول الكثيرين فيه من ورثة الأديان والمعتقدات الأخرى .. فعلى الرغم من كل التشويه والتحريف الذي تعرَّضت له الرسالة الخاتمة عبر القرون فإنها ما تزال تفوق في تأثيرها معتقدات وأديان أخرى وتكتسحها في معاقلها، مع أن المتوقع في الحالة الطبيعية أن يأخذ القادمون الجدد في الحسبان كل الأخبار التي تتناقلها وكالات الأنباء العالمية عن واقع المسلمين وما يحصل في بلادهم، والإحصاءات غير المشرفة التي تنشر حولهم، ويقتنعوا أننا نتاج هذا الدين فلا نشهد إيمان شخص واحد منهم.

وما يزيد من حيرتنا هو ذلك الأمر العجيب الذي لا نستطيع فهمه أو تفسيره، وهو جرأة المسلم المعاصر المشرذم الضائع بين هذا الكم من الركام الذي وضع في ساحة دينه، وعدم كفِّه عن العمل على إقناع الآخرين بالدخول في الإسلام، بل وتمكنه من النجاح في ذلك.

ولكن يجب ألا تغرنا هذه المظاهر الخادعة .. فالآثار التي يُحدثها دين الله الحق من تغيير إيجابي على مستوى الفرد والمجتمع، وما يليها من تحوّل في واقع الناس من رقي وسلم وعلم وقوة وعدل، وما يتبعها من إشعاع حضاري إنساني يمتد إلى أطراف الأرض، تفوق تصوراتنا .. وهي أعظم وأوسع وأعمق وأرقى بكثير من تلك الآثار الجانبية التي يحدثها ما تبقى من هذا الدين والتي نبالغ بها في كثير من الأحيان ثم نعتبرها ثمار دين الله الحقيقية.

ودين الله الذي أكمله وارتضاه تعالى لنا وللناس أجمعين، وجاء محفوظاً في رسالته الخاتمة هو دين قويم ينتظر منه أن ينتج نماذج تقتدي بها البشرية وتنظر إليها نظرة التقدير والإعجاب والاحترام .. ويؤمل منه أن يكرر إنتاج ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، ويكون أتباعه شهداء عليهم بما تعنيه كلمة الشهادة من تفوق وتميز ورقي.

هي أمة يمثل الفرد المنتمي إليها نموذجاً يحتذى به في علمه ووعيه وعمله وصلاحه وفعَّاليته وبعده عن أصناف الجهل والظلم والتخلف والفساد .. ويمثل المجتمع الذي يحمل رايته نموذج المجتمع المتحضر السباق في مجالات الخير والفهم، ويكون رائداً للأمم في تطبيق القيم الإنسانية الراقية والدفاع عنها في أركان الأرض، ويقود الجهود الساعية إلى إصلاح ما أفسده الجاهلون والجشعون والخبثاء، فيحوّل حركة نشاط الإنسان على الأرض من الإنحدار الحاد والمتسارع في الأخلاق والبيئة والسلم إلى حركة صاعدة باستمرار .. إلى أن يحقق علم الله وأمله فيه.

مصادرنا الثقافية

التراث .. ذلك العبء الثقيل

من أي ثقافة يستمد معظم شبابنا التائه فهمهم لدين الله القويم؟ .. وكيف تشكل فتياتنا الغافلات وعيهن؟ .. وما هي الكتب التي يقرؤونها؟ .. ومن أي كنوز يغرف هؤلاء المساكين معرفتهم بصراط الله المستقيم؟ .. وما هي المواضيع التي يتابعونها على وسائل التواصل الشائعة وتلك التي تتوجه إليهم بها البرامج التلفزيونية؟ .. وما الذي يجب عمله لمساعدتهم وإنقاذهن من موجات هائجة تبعدهم عن حقيقة دينهم وتعمل بجهد دؤوب على إبقائهم في جهلهم والحجر عليهن في غيبوبتهن؟.

لا أتحدث هنا عن كتب تفسير الأحلام وتنبؤات الأبراج ولا عن أخبار الفنانين وبرامج المسابقات في الغناء والرقص والتهريج، ولا عن المسلسلات التافهة التي تنتج في بلادنا أو تنتج خارجها وتستورد خصيصاً من أجلنا، فشبابنا أرفع من متابعة هذه الأصناف من الكتب والبرامج!.

ولكني أتحدث عن المواضيع الثقافية والفكرية والدينية .. وعلى وجه الخصوص بعض تلك الكتب التي يُنصحون بقراءتها أو تفرض عليهم كمناهج للدراسة وتطبعها الجامعات وتدرسها كليات الشريعة ومعاهد الدراسات الإسلامية .. كما أتحدث عن بعض البرامج التي تدَّعي وتفاخر واهمة أنها تبلغ (الرسالة) وتوصلها (مزخرفة) بأبهى صورها، وتراهن على عقول الشباب وتبدو كمن يدعوهم إلى الحضارة والفاعلية.

ولو استعرضنا ما يقع في أيدينا مما كتب في الفقه والحديث والتفسير وما قُدِّم ولا يزال يقدَّم للناس على أنه كنوز الفكر الإسلامي، فما الذي نجده في كثير من هذه الكنوز؟ .. وكم هي قريبة من العلم والقرآن؟ .. ألا نجد فيها الكثير مما يتعارض مع العقل والتفكير السليم؟.

أليس هناك آيات واضحات بينات تخالف الكثير مما وصلنا عن فقهاء الأمة ورجال دينها على امتداد القرون؟ .. وكيف يكون موقفنا عندما نعلم أنها مجرد آراء قال بها جهلاء أو قليلي علم لم يفهموا حقيقة هذا الدين، أو خبثاء ولصوص تمرّسوا على محاربة الله ورسله ورسالاته؟ .. وهل نتَّبع في فهمنا ما جاء في كتاب الله أم نميل إلى آراء البشر من الأئمة والرواة والمفسرين؟ .. ألم يحن الوقت لنتخلى عما نحتفظ به ونكدِّسه من أفكار تتناقض مع دين الله القويم وكتابه الكريم ونلقي بها عرض الحائط؟.

وماذا عن كثير من الظنون والأوهام التي نعلم علم اليقين أنها شاذة أو خاطئة ومنحرفة؟.

أم ماذا عن تلك التي أضيفت عن عمد وخبث إلى ديننا وملأت وقتنا وشغلتنا عن أداء واجباتنا الحقيقية وعرقلت حياتنا؟.

ألا يكفينا عجزنا عن تطبيق الصحيح مما نعرفه من دين الله وكتابه العظيم لنلتفت إلى آراء البشر الغريبة عنه والدخيلة عليه؟ .. وهل انتهينا من فهم القرآن وتطبيقه لنشغل أنفسنا في أكوام المعلومات التي نجدُّ في البحث في تفصيلاتها ونصرف عمراً في تعلمها وتعليمها وهي التي لا علاقة لها بحقيقة دين الله ولا يربطها به أي رابط من قريب أو بعيد؟.

وما هي الآثار الفعلية في مواقفنا وأفعالنا وواقعنا لما نفاخر فيه من تراث؟ .. وهل يفيدنا الاستمرار في اجتراره وتكراره والتفصيل فيه أو إعادة الكتابة في المواضيع التي تناولها من سبقونا؟ .. وما الذي تركوه لنا أصلاً لنبحث فيه؟ .. ومتى كانت مشكلتنا في العالم الإسلامي في توافر المعلومات عن تفاصيل ديننا؟.

ألم يتكلم الكتاب والمفكرون في كل شيء وتناولت كتاباتهم جميع المسائل حتى يحار الكاتب في إيجاد موضوع أو عنوان لمطبوع جديد لم يسبقه إليه غيره ليكتب فيه؟.

ولو استعرضنا الكثير مما تم إنتاجه ونشره في القرن العشرين لوحده لوجدنا أنفسنا حائرين فيما نختاره من أكداس المراجع والمعلومات .. وسنجد عشرات الكتب في العقيدة وتنقيتها، والإيمان وأركانه، والإسلام وركائزه، والأخلاق والعبادات والمعاملات.

وقد طبعت مجلدات في علوم القرآن والحديث والأصول والمقاصد والحلال والحرام والفقه وأصوله والسنة والبدعة والتراجم والسيرة وأخبار الصحابة والتابعين وآراء الأئمة والفقهاء والرواة والمحدِّثين.

كما عقدت مؤتمرات وندوات في التقريب بين "المذاهب" الإسلامية! .. وطبعت أبحاث في الأصالة والمعاصرة والتراث والحداثة والاجتهاد والتقليد والعقل والنقل وإصلاح الفكر والتغيير والفعالية والثقافة والهوية وعزة الإسلام ومقارنته بغيره من الأديان.

وكان هناك نصيب لتشريح الحركات المعادية للإسلام من الماسونية والشيوعية واليهودية والنصرانية، إلى العلمنة والعولمة والعلمانية والليبرالية .. وبحوث في الاقتصاد والشورى والسياسة في الإسلام، ومشاكل المرأة والتنمية والبيئة والاقتصاد والتعليم، وبرامج مخصصة للتفصيل في الإعجاز العلمي في القرآن.

وأسهبت أجهزة التعليم والإعلام المقروءة المسموعة والمرئية في أدق التفاصيل .. ولم يتركوا صغيرة أو كبيرة دون أن يكتبوا أو يحاضروا فيها بدءاً من تفسير الأحلام وفك السحر وفضائل الأعمال ودلائل الخيرات وشرح اسم الله الأعظم، مروراً بفوائد الحجامة والمسح على الخفين والنعلين وأحكام الاعتكاف والدعاء المستجاب وحصن المسلم

من أذكار الليل والنهار وأهوال عذاب القبر، والحذر من فتنة الأعور الدجال .. وصولاً إلى فوائد النكاح والطيب والسواك .. وانتهاء بالعسل والزنجبيل والحبة السوداء.

ولم يبق موضوع أساسي أو فرعي له علاقة من قريب أو بعيد بحياة المسلم من لحظة تكوُّنه جنيناً في بطن أمه إلى ساعة دفنه إلا وتم التطرُّق إليه بحثاً ودرساً ونقداً وتحليلاً ومراجعة ومقارنة، ثم أُعدَّ وأُخرج حوله أكثر من برنامج تلفزيوني، ناهيك عن المحاضرات والندوات والمؤتمرات؟.

ولكن ..

ومع كل ما فصَّلوا وأسهبوا فيه، ألسنا نجد أنفسنا ضائعين حائرين؟ .. ولم لا نزال نواجه عشرات العقبات التي تسد الطريق أمام انطلاقنا؟ .. ولم بقيت الكثير من المواضيع بحاجة إلى بحثها ومعالجتها من جديد؟.

فهل لدينا ثروة ثقافية ضخمة، فلا نحسن استثمارها؟ .. وهل هي كلها من دين الله وفكره وثقافته، أم أنها احتوت على عبء ثقيل أدخلنا في متاهات ودروب ليس فيها درب واحد على طريق الله القويم وصراطه المستقيم؟ .. وإذا كان الأمر كذلك، **فمتى نضع عن أكتافنا هذا الحمل الذي** يزداد وزنه يوماً بعد يوم؟.

خذ واحداً من هذه الكتب .. استخرج منه ما استشهد به الكاتب من آيات قرآنية، وبعض الأحاديث التي لا تتعارض مع العلم والقرآن، ثم أخرج منه ما أخذه ممن سبقه من مؤلفين، وما استشهد به من أقوال القدماء .. ألا يغدو الكتاب بين يديك مجرد أوراق مملوءة بكلام فارغ؟ .. وبماذا يختلف عما كتبه القدماء بغير طريقة صوغه وحداثة لغته وإخراجه بحلَّة جديدة؟ .. وهل يعدو عن كونه تكراراً لما قال به السابقون مراراً وتكراراً؟ .. وهل وضع الكاتب الجديد كتاب الله أمامه أو حاول فهمه بعقله بعيداً عن فهمهم في عصرهم؟ .. وهل تقدم أحدهم خطوة واحدة أو تميَّز عمن سبقه في فهم معنىً واحد من معاني الإيمان والعمل الصالح مثلاً؟[1] .. ولماذا بقيت تعاريف الإسلام والتقوى وشكر الله وذكره ودعائه كما هي لقرون؟ .. وماذا عن فهم أقوم لمعاني الكفر والشرك والفسوق والعصيان والفساد والطغيان؟.

ولو افترضنا أننا نبالغ في كلامنا، وأن الأمر ليس على هذه الدرجة من السوء .. وكنا نعيش على أكداس من المصادر الثقافية الجيدة والمتطورة، وفيها ما هو عصري ومبدع في بيان دين الله القويم، فلماذا لا تزال هناك سلسلة من القضايا الخلافية التي نحتاج إلى فهمها من جديد لنخرج مما نحن فيه من سخف وتيه وظلام؟.

---

1 نعيد التأكيد على أن التعميم ليس صحيحاً والتذكير أن هناك استثناءات في معظم ما عمَّمنا كلامنا فيه من موضوعات.

ولماذا لا تزال هناك تناقضات حقيقية في كثير من تفاصيل قناعاتنا؟ .. ولماذا لا نزال نعاني من مشكلة حقيقية في إضافات على الدين لا نعرف أولها ولا آخرها ناهيك عن فكر خرافي يكرس الاعتقاد بالخوارق والمعجزات والجهل والأوهام؟.

ثم لماذا لا نرى نتائج هذه الدراسات في واقع المسلمين؟ .. لماذا لا يفعل (الإيمان) فعله ويحصد نتائجه التي وعد بها أصدق القائلين؟ .. لماذا طال سباتنا وتباطأت حركتنا؟ .. وكيف نخرج إلى النور من تحت هذه الأكداس؟.

أنظر مثلاً في مسألة **القضاء والقدر والجبر والاختيار، ذلك السؤال الذي لم يمر عقد إلا وتحدث فيه أحد الكتاب والمفكرين** ورجال الدين، **وقد** شغلت موضوعاته المسلمين في تاريخهم وخاضوا فيها (على الرغم من منعهم!) .. إذهب واجمع ما استطعت من الثقافة الإسلامية وأمعن النظر في كل الآراء .. ألا تخرج بعد قراءتها أشد ضياعاً وتيهاً مما كنت عليه قبل أن تقرأها؟ .. وكيف نفهم هذه المسألة اليوم ؟ .. أليست النزعة الجبرية هي النزعة السائدة عند عموم المسلمين؟.

إن القرآن الكريم في معرض الحديث عن هذه القضية في قوله تعالى ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللّهِ﴾ .. ويُشعرنا القرآن ونحن نتلوه أنه يوبِّخ الذين لا يستطيعون فهم متى تبدأ مسؤولية الإنسان وأين تنتهي فيترك عندها الأمرَ لله .. ويصفهم بأنهم قوم لا يفهمون ﴿فَمَا لِهَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴾ .. فلا بد أن هناك حق واضح ينبغي فهمه من القرآن والاقتناع به بسهولة فيما يخص هذه القضية الأساس .. فهل نحن على نور منها؟ .. أم أننا سنجد من يأتي قريباً ليعيد السؤال ذاته: هل الإنسان مسيَّر أم مخيَّر؟.

وما هو فهمنا للمواقف الصحيحة من الآخرين المختلفين عنا؟ .. وما هي اعتقاداتنا وقناعاتنا حول الجهاد والقتال والسلم والحرب والعنف واللاعنف؟ .. إقرأ مثلاً ما استطعت مما كتب ونشر وقيل في **الجهاد وشروطه وأحكامه** .. ألا تخرج بعد قراءته أشد حيرة وأكثر تساؤلاً؟ .. وهل هناك شخصان (عاقلان) متفقان على فهمه؟ .. وهل قدَّم مثقف واحد بالدليل الواضح المقنع فهماً لا خلاف عليه يبين متى يكون اللجوء للقتال خياراً، ومتى تجب ممارسته، ومتى يمنع اللجوء إليه أو الاقتراب منه؟.

أليست هناك مشكلات أساسية في معرفة أولوياتنا وتعريفنا لمعناها وحقيقتها؟ .. وما قيمة إيماننا الوراثي مع فكر معطل يؤمن بالمعجزات والخوارق؟ .. وكيف نفهم مسألة العمل والجزاء؟ .. أين يبدأ مجال عملنا الذي نتحمل فيه كامل المسؤولية وما هي حدوده وأين ينتهي؟ .. وأين يكون عمل الله الذي يجب أن نتركه له عز وجلَّ لأنه لا علاقة لنا به ولا نحاسب عليه؟ .. وكيف نفهم مسائل مثل مسألة الرزق ومسألة الأجل، وكيف نفهم معنى الذكر والزهد والدعاء، وما طريقة فهمنا لسنة الفتنة والابتلاء وتدخُّل الله في تغيير موازين الصراع بين عباده؟.

ومع اعترافنا بفضل من بذلوا وسعهم في تخليص المؤمنين مما تم تشويهه في دين الله، فإن علينا أن نعترف أيضاً أن عملية تصفية دين الله ومعالجة ما فيه من أفكار دخيلة لا تزال في بداية الطريق .. ولا يمكن التخلص مما راكمته القرون بكتابة كتاب هنا وإلقاء محاضرة هناك .. فالمصيبة التي نزلت بنا تحتاج إلى تضافر جهود دؤوبة وطويلة وشاقة.

التشويه في أشكاله الثلاث

التعقيم والتفخيخ والإغراق

"مع الأسف أننا وبعد قرون طويلة من انتسابنا إلى هذا الدين

علينا أن نبدأ الآن معرفته لا العمل به"

علي شريعتي

هل يتوفر للمسلم أو المجتمع الإسلامي اليوم منظومة فكرية سهلة ومترابطة وواضحة المعالم عن دين الله تكون ميزاناً لتقويم ما يصله من أفكار فلا يُخشى عليه من أي فكرة شاذة أو قاتلة أو مضللة؟.

وما العواقب التي يمكن أن تحصل – وقد حصلت فعلاً – في ظل غياب هذ المنظومة؟ .. ألا يختلط الفكر الذي يتوفر لشبابنا بآراء دخيلة تتناقض مع الغايات الكبرى لدين الله وجوهر رسالته؟ .. وكيف نترك هذا الدين مكشوفاً لعبث العابثين وجهل الجاهلين وكيد المتآمرين الحاقدين؟.

ألم يصبح حالنا في ظل الجهل وغياب الوعي كحال الأعراب ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾؟ .. وأين أودى بنا تمسُّكنا بطاغوت آبائيتنا على مدى قرون؟ .. ألا ينطبق علينا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا . . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾؟.

وماذا عن الاستعمار والقهر والتسلط الذي مورس على أجيالنا المتعاقبة بكل أنواعه وأشكاله؟ .. ألا يدفعنا إلى الشك في كل شيء والخوف من التحريف في كل شيء؟.

لقد استخدم الجاهلون والخبثاء – القدماء منهم والمعاصرون – وسائل خبيثة وغير مكشوفة لتخريب هذا الدين العظيم، وبقدر ما جهدوا في إخفاء وسائلهم في محاربته، فقد بذلوا جهوداً كبيرة لتكون عملية الإجهاز على عقول وقلوب حامليه مكتملة الأركان، فلا تبقى طريقة تنفع في إنقاذهم .. فاختلط علينا التوحيد بالشرك، واختلط علينا الظلم بالعدل .. فلم نعد نستطيع أن نميز المشرك من المؤمن، ولا يعرف الإنسان نفسه مؤمناً أم مشركاً، ولا أن نميز بين الحق والضلال، ولا بين الإصلاح والفساد .. ويعترف المثقفون بعجزهم وحيرتهم عن تمييز النور من الظلام .. وإن دلَّ ذلك على شيء، فإنما يدلُّ على أن مهمة من حاكوا مؤامرتهم على دين الله قد نجحت نجاحاً باهراً.

هل هناك مبالغة في كلامنا؟ .. أم هي الحقيقة الصادمة التي لا نطيق سماعها ولا نحب من يحاولون كشفها؟.

ليست مهمة هذا الكتاب ولن يستطيع الوصول إلى حقيقة محددة، ولكن مهمته أن يطرح التساؤلات من غير قيود .. وللقارئ كل الحق في أن يبحث عن الأجوبة فيقتنع بما يشاء ويرفض ما يشاء ويتحمل مسؤولية قناعاته .. كما أن هذا الكتاب ليس في وارد الحديث عن المظاهر الإيجابية — وهي كبيرة وكثيرة — بل هدفه التركيز على النواحي السلبية وتسليط الضوء على حال الضياع الثقافي والفكري، والحث على تجاوزها والخلاص من آثارها.

فهناك خليط من الأفكار والمعتقدات التي تغزونا من البيئة المحيطة والمصادر المختلفة المتنوعة .. ولا نكاد نستطيع أن نسرق أياماً أو ساعات من عمرنا لنتبين فيما إذا كان هناك نور أكبر ووعي أفضل، فنفكر أو نعيد النظر فيما نحمله من أفكار ونقوّم ما نعتمده ونبشر به من قيم ومعتقدات وسلوك .. ونحن بحاجة ماسة لوضع ميزان نستطيع به تقويمها ورفض الشاذ منها.

أفكار من كل طعم ولون .. تختلف في العائلة عنها في الحي والمدرسة والجامعة ومكان العمل وعلى عشرات المحطات الفضائية ووسائل التواصل المختلفة .. مزيج غريب من آراء متنافرة تجعلنا نعرف القومي الذي يؤمن بالله ويواظب على صلاة الجمعة ويتعصب لقوميته ويقاتل شريكه في الدين من قومية أخرى، ونعرف الانتهازي المتسلق الذي يعيش كل يوم خلافاً لتعاليم دين الله، فما أن يحلَّ شهر رمضان حتى نراه يزاحم على الصفوف الأولى في المساجد ويظهر بمظهر أتقى المتقين .. ونعرف رجل الحكومة الفاسد الذي يحارب أصحاب الخلق وينعتهم بأسوأ الأوصاف ويكتب بهم التقارير، فما أن يطرد من منصبه أو يقترب أجله حتى يبدل ملابسه ويطلق لحيته ويعتكف في إحدى زوايا المسجد أو يصبح الإمام الواعظ فيه.

ثقافة محيرة زئبقية لا نستطيع لها وصفاً ولا تحديداً .. فنحن لم ننحرف في مسألة واحدة فحسب .. بل تراكم انحرافنا لقرون، فطال الكثير من المسائل في كل تفصيل من تفاصيلها .. ونحن قوم لعب السلاطين وفقهاؤهم في معتقداتنا وديننا وشوَّهوا رموزنا وقدواتنا، وغسل رجال الدين عقولنا، ولهى المستعمر في فكرنا كما لعب في

مصادرنا ومواردنا، وعبث الشيطان في أسس تفكيرنا وميزان حكمنا وتقويمنا، وشوّه المفسرون بالنسخ وأسباب النزول قرآننا، ويلعب الجميع بتاريخنا وحاضرنا ومستقبلنا.

وأصبحنا كمن يعيش في كهف مظلم أضيئت فيه شمعة هنا وشمعة هناك، لا يكفي ما فيه من نور لتمييز الحق بعد أن أُلبس بشوائب باطلة أخفته وكتمت على أنفاسه، ولا يكفي لتمييز ما هو أصيل من دين الله مما هو دخيل ومزيف من صنع بشر جاهلين أو ماكرين .. وصرنا[1] في وضع لا يختلف كثيراً عما آل إليه حال اليهود والنصارى ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بعد كل الذي أعمل في دينهم من تشويه وإخفاء وإضافة.

وهذا ما آل إليه حالنا بعد أن وُضعت في طريق فهم دين الله وتطبيقه عوائق سدّت كل السبل لرؤية منظومته الصافية النقية، وفخختها بأفكار قاتلة أو ميتة وبشخصيات خائنة أو جاهلة[2]، إلى أن عمَّت الفوضى بكل أركانها، فلم نعد نرى أي وجه من وجوهها المشرقة .. وشكلت المنظومة البديلة الشائعة إحدى عوامل تفرقنا وضعفنا، وأجهضت كل محاولة لنجاتنا ونجاحنا، فوصلنا إلى أيام صار فيها الناس يستخفُّون بالمتحدثين بفكر دين الله القويم، ويلاحقونهم ويشوهون سمعتهم.

وأصحاب الرأي الذين كانت الأمة تعقد عليهم آمالها في توجيههم وتنويرهم صاروا يعلنون على الملأ أن الأمور قد اشتبهت عليهم وأنهم لا يجدون مخرجاً مما نحن فيه من بؤس وانحطاط وضياع .. و(*ابتعد الناس عن الفكر خوفاً من الكفر*)[3]، وتوقفوا عن تشغيل عقولهم، واكتفوا بشيء من الطقوس والحفظ والتجويد والذكر والدعاء والأناشيد والمظاهر الشكلية في لباسهم وطريقة كلامهم .. وظنوا أنهم يستطيعون بهذه العملة المزورة أن يتداركوا عذابات الله الأليمة في الدنيا، أو يصلوا إلى مرتبة مقبولة بين الأمم، أو ينجوا من الحساب ويشتروا بها جنة الله الواسعة، وكأن أحدهم لم يقرأ سورة واحدة من كتاب الله، ولو قرأ صفحة واحدة منه لعلم أن سننه وقوانينه لا تحابي أحداً من خلقه في الدنيا .. ولعلم أيضاً كم هي جنته غالية وثمينة، وكم هو طريقها وعراً، وأن الطريق إلى النور يقطع الأنفاس ويقصم الظهور، وأن السير على صراط الله المستقيم في هذه العتمة شاق وطويل ودونه شق الأنفس بكل ما تعنيه الكلمة من ألم.

والاعتراف بحصول تحريف وتشويه في دين الله مع ما يرافقه من وعي كاف بما أصابه من تلاعب مقصود ومحكم التخطيط والتدبير، هو بداية الطريق للخروج إلى نور الله .. وعندها فقط يمكن لنا أن نركز جهودنا في أعمال

---

1 هذا ما سنحاول تقديم الدليل عليه في فصل (المنظومة الفكرية) في الكتاب الثالث (التمهيد).

2 وغيرها من الاستراتيجيات التي سنأتي على ذكرها في كتاب (التمهيد)، والتي ستفاجئ القارئ.

3 جودت سعيد، الفكر الإسلامي المعاصر، مراجعات تقويمية، مجموعة مفكرين، دار الفكر المعاصر، بيروت 2000.

الإسعاف الأولي والإنقاذ وتقديم الجوهر والأسس التي لا يضيرنا بعد فهمها وتطبيقها أن نختلف على الأمور الهامشية، ولا يضيرنا أن نهمل التفاصيل .. ثم يأتي الوقت المناسب لمن شاء أن يهتم بالتفاصيل.

وإذا أردنا النهوض للعمل والإنجاز، فلا بد من نزع الأفخاخ والألغام التي تعيق طريق المؤمنين وتمنعهم من العبور بشكل آمن وصحيح مما هم فيه إلى الطريق القويم، وتخليص فكر دين الله من جميع الأفكار المعطلة الدخيلة التي دُسَّت بين طيّات أفكاره الصحيحة، فجرّدته من قدرته التأثيرية، وعقّمت منظومته الأصيلة وأبطلت كل مفعول فيها، ولم نعد نرى لهذا الفكر في ممارسات المسلم ومواقفه وأعماله أي أثر، وتحولت العبادات إلى طقوس ومراسم، وصارت الغاية من القرآن الذي أنزل كمنهج للحياة هي الحفظ والتجويد والتبرك.

فأفكار من قبيل: كل شيء مكتوب .. ولا قيمة لعمل الإنسان وجهده .. والإيمان هو منحة من الله لمن يختار من عباده .. والدين الموروث هو الدين الصحيح .. والإسلام الذي نحمله اليوم هو دين كامل .. وطالما أننا مسلمون فنحن كاملون ولا ضرورة لتغيير شيء في اعتقادنا وأفكارنا ومواقفنا وعاداتنا سلوكنا .. هذه العينة من الأفكار وحدها دون الكثير غيرها كفيلة بالقضاء على حيوية وفاعلية أي منهج، وإجهاض مبادرات النهوض لتحقيق أي حالة حضارية مأمولة، وشلِّ حركة من ينتمي إليه أو يحاول التغيير في بيئة وارثيه، فلا يستطيعون قياماً ولا إقلاعاً، أو تشوِّه حركتهم أو تقعدهم بعد أول خطوة في أي محاولة أو برنامج أو مشروع.

فالشورى مثلاً فكرة جميلة تقنع كل عقل حر ولها آثار بالغة في تطور المجتمع وازدهاره .. وهي اصطلاح قرآني شبيه لما يعرفه العالم اليوم بالديمقراطية[1] ، بل أكثر منه رقياً .. فالآية الكريمة التي تصف المؤمنين ﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ**﴾ تعني المشاركة في الرأي على جميع المستويات وبآليات تضمن وصول جميع الآراء وأخذها بعين الاعتبار .. فكيف نضع لهذه الفكرة (**لغماً**) يدمِّرها من أركانها؟ .. يأتي ماكر أو حاقد أو غبي ويقول: (الشورى غير ملزمة) .. وتردد بعده أجيال المسلمين: (الشورى غير ملزمة) .. ويصبح رأي هذا الأحمق ديناً بديلاً.

وآية ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ أجمل وأوضح آية تجزم بحرية الاعتقاد .. إنها تعبير قرآني عما وصل إليه إبداع الإنسان في حرية الفكر والعقيدة والرأي كحق إنساني لا يسمح لأحد بمصادرته أو الحجر عليه .. فكيف (**نُعقِّم**) هذه الفكرة في دين الله ونعطِّل مفعولها؟ .. ليس هناك أسهل من أن يأتي ماكر أو غبي آخر ويقول: (إنها آية منسوخة) .. وتردد بعده أجيال المسلمين: (آية منسوخة) .. ويصبح رأي هذا المعتوه ديناً.

1 بغض النظر عن سلامة تطبيقها.

ثم يأتي آخر ويضع قاعدة (إنكار المعلوم من الدين بالضرورة) .. وآخر يقول: (أجمعت الأمة على كذا) .. وآخر يسجن معاني الآيات في أسباب نزول سفيهة، وآخر يتداول حديثاً موضوعاً يتناقض مع كل ما جاء به الكتاب العزيز[1].

فإذا نجحنا في التخلص من الألغام والأفخاخ .. فسنكون على موعد مع عمل دؤوب متواصل طويل الأجل كي نتخفف من أكوام الرواسب التي ألقيت في ساحة هذا الدين ووصلت إلينا متعفنة دون تنقيح ولا تشذيب .. ولم يعد أحد يجرؤ على المساس بالخاطئ من أقوال الرجال وآرائهم الخاطئة، كالإسرائيليات والأحاديث الضعيفة والموضوعة التي تعجُّ بها كتب التفسير والفقه التي تدرَّس لشبابنا، أو الخلاص منها بعد أن صار لها أو للقائلين بها قداسة ووزن كبير في ضمير الناس وعواطفهم .. وتمسك بها الآبائيون، وقاموا ويقومون على حمايتها، فأغرقت دين الله بكثير من الأثقال والأحمال المتعبة .. بل صار بعضها المكون الأعظم للمنظومة الفكرية المشوهة.

فمنظومة دين الله المتمثلة بالقرآن الكريم[2]، كتاب الله المحكم المبين، والمحفوظ بعهد منه عز وجل قد **أُغرِقت** بآراء باطلة كثيرة قال بها جهلة أو ماكرون[3] .. فشغلت المسلمين وملأت حياتهم ولم تبق مكاناً للأفعال المجدية المؤثرة في واقعهم.

وقد حمَّلوا دين الله ما لا يحتمل .. وكأنهم فارغون من أي واجب، ويسعون إلى ملء أوقات فراغهم في التنكيد على حياة الناس .. وصارت مسألة الدين والإيمان بالغة التعقيد ناهيك عن بحر متلاطم الأمواج من فقه لا يمكن فهمه أو الإحاطة به أو استيعاب بضع قضايا منه إلا لمن يكرس حياته كلها جادّاً في محاولة ذلك، إلى أن أصبح بين أيدينا نسخة مبهمة متناقضة عن الدين بعيدة كل البعد عن الدين الحنيف.

فما نفع كتب الفقه للإنسان العادي؟ .. وما حاجة الشباب إلى دراستها وفهمها؟ .. ألم يغدُ البحث في موضوع واحد منها كفيلاً بالقضاء على عمر الإنسان وضياعه بلا طائل؟ .. أم أن المقصود هو بقاء الناس في حاجة لمن يشرح لهم هذه الأكداس من اختلاف الفقهاء حول كل مسألة من مسائل دينهم؟ .. ولماذا يصر الباحثون في هذا الفقه على إرهاقه بأحمال لم تعد صالحة في أي تفصيل من تفاصيلها لحياة الأسوياء من الناس؟.

---

1 لن يتدخل هذا المشروع بالتفصيل في ضرب مئات الأمثلة على عملية التعقيم والتفخيخ والإغراق التي حصلت، ولكنه سيشير إلى هذه الآليات ويشير إلى بضع أمثلة فقط كعينات .. كالأحاديث (الموضوعة) والنسخ الكاذب وأسباب النزول (المختلقة) وغيرها الكثير من الآليات – فهناك من اهتم بهذا التفصيل وستتم الإشارة إلى آرائهم وأسمائهم ومراجعهم في الوقت المناسب لمن ليس عنده فكرة.

2 سنفسر لاحقاً لماذا نصرُّ على أن منظومة دين الله يجب أن تتشكل من القرآن الكريم دون غيره .. أما المسائل الأخرى فتؤخذ من القرآن والحديث الصحيح المتوافق معه.

3 أيضاً نؤكد هنا أن هناك استثناءات، وهي كثيرة .. فليس الجميع جاهل أو ماكر، وهناك الكثير من المخلصين رحمهم الله من الذين أصابوا في رأيهم ونستفيد منهم أو من فهموا وفق معطيات عصرهم ونعذرهم .. ولكن كلامنا هنا يقصد الخبثاء ممن اشتروا بدين الله ثمناً قليلاً دون غيرهم.

ألسنا في **عصر يحتاج فيه** الناس إلى من يخفف عنهم هذه الأحمال ويقدم لهم دين الله على بساطته مستنبطاً من القرآن الكريم، ويطلق لهم منهجاً لتفسيره وفهمه بما يتناسب مع واقعهم وعصرهم لا من يعقد عليهم المسائل البسيطة؟ .. ولم الإصرار على التنطع في الأسلوب والإسهاب في الشرح والتفصيل والتعقيد؟ .. ومتى لا نعود نرى ونسمع عن "العباقرة" ممَّن يستطيع أحدهم الجديث لشهر كامل في مسألة بسيطة، ويكتب فيها المجلدات؟.

وعملية تكديس الإضافات الفقهية هذه والتي أطلقنا عليها مصطلح (**الإغراق**) تواكبت مع إضافات من نوع آخر في الممارسات العملية، وهي وإن بدت في ظاهرها عملاً بريئاً هدفه تقريب المؤمنين من ربهم، أو للاستزادة من الخير والإكثار من بعض العبادات، فإن لها مفعول سيء في ضياع جوهر دين الله.

طقوس هامشية استحدثت ثم تورَّمت إلى درجة غير مقبولة ولا معقولة أُلحقت بعبادات هامة كالصلاة والصيام والذكر والدعاء، مثل تكرار الأوراد وما يجب حفظه وقوله في كل حركة وسكون أو تخصيص وقت للصلاة على النبي آلاف المرات، وما ابتدع من تقرير حفظه وترديده من كتب التراث[1] .. ويصرف بعضهم الوقت الطويل فعلاً في أدائها، وتقضي على قسط كبير من يومهم، فتؤثر على حياتهم وتبدد جهودهم وتجمد أدمغتهم.

وعندما يتم إغراق المنظومة الأصيلة بأفكار عجيبة غريبة جيء بها من كل حدب وصوب .. وعندما تغزو الفضائيات ووسائل التواصل الاجتماعي عقول الناس بهذا الكم من فضلات الفكر والمعلومات والأفكار المتناقضة .. وعندما يأخذ بعض الناس علمهم ومعارفهم ومعلوماتهم من أحد هذه المصادر، بينما يأخذها آخرون من مصادر أخرى مختلفة .. **وفي ظل غياب المنظومة السهلة الأصيلة** .. عند ذلك يصبح لأتباع دين الله قناعات مختلفة تأخذ كلاً منهم إلى مسار مختلف، ولا تعود المشكلة مشكلة خلاف فكري، بل يصبح من الصعب بناء شبكة علاقات إجتماعية صحية ومثمرة بين هؤلاء الناس .. وقد يرى كل منهم في الآخر عدواً، أو غريباً غير موثوق، أو في أحسن الأحوال شخصاً غير مرغوب بمصاحبته والتوافق معه، فلا يمكن التفاهم معه على أي مشروع أو نشاط مهما كان بسيطاً.

فخطورة عملية الإغراق هذه لا تقف عند حد إلهاء المسلم بقضايا هامشية أو غريبة عن دين الله وجدوا لها مكاناً في حياته ثم قدَّموها لتكون من أولى أولوياته، ولكن خطورتها تكمن أيضاً فيما تفرزه من خلافات، وفيما تسهم فيه من نزاعات تُفرِّق بين مكونات الأمة الواحدة والمجتمع الواحد وتفتِّت ما فيه من أواصر.

أفكار خلافية لا تستند إلى معنى أو سبب معقول ولا تعتمد على أرضية قويمة .. تثير عامة الناس ليعادي بعضهم بعضاً، وتقود مثقفيهم إلى صراعات مزمنة فلا يلتقون على مسألة واحدة .. ويصعب جمع بضع أشخاص للسير

---

1 تطور الموضوع من التشجيع على حفظ القرآن وتجويده، وهذا حسن، إلى حفظ مكان الآيات في السور وأرقامها أو حفظه على قراءات عشر مختلفة وما يرافق ذلك من حفظ مئات الأبيات من الشعر المسمى (متن الشاطبية) و(الدرة المضيئة) الذي يساعد على هذا الحفظ، إلى أن وصل الأمر إلى حفظ كتب الحديث كاملة مع السند وأسماء الرواة، إلى حفظ كتب فقهية كاملة .. وتلك هي حال الإلهاء والإغراق في أدهى صورها.

بضع خطوات معاً إلى الأمام دون نزاع أو اختلاف .. وأصبح الكثير مما نعانيه من مشكلات ومصائب وآلام ليس فقط بسبب ما لا نعرفه عن ديننا، بل بسبب المعرفة المنحرفة التي فرّقت شملنا .. معرفة تجعل كل فرد يظن أن الجانب الذي وصل إليه هو العلم النهائي، فيبني على معلوماته الخاطئة قرارات خاطئة ومواقف خاطئة دون الالتفات إلى معلومات أخرى قد تكون أقوم وأهدى.

ولنا أن نتخيل ثقافة مجتمع كحصيلة لثقافة هؤلاء الأفراد والأزمات التي تتولد عنها والغياب الكامل للانسجام والتفاعل فيه على كل المستويات.

وواجبنا مساعدة الجيل الناشئ على التحرر من الركود والجمود الذي نشأنا عليه ليخصص معظم وقته للتفكر والمعرفة المفيدة، ومن ثم العمل والإنجاز في تحقيق رسالته الحقيقية في الحياة .. وأن نشجعه ليكف عن اجترار الأفكار الميتة وتكرار الممارسات التي لا تقدم في حياته ولا تؤخر .. وأن نقدم له فكراً مصفىً من هذه الأحمال الزائدة ليتمكن من التركيز على تحقيق الأمور الجوهرية في دين الله من إيمان وإصلاح، ويوفر طاقته لمكافحة الظلم والجهل، ووقف كل أنواع الفساد، ويستطيع التفرغ وتكريس جهوده للعلم والعمل والانطلاق للنهضة والتقدم والحضارة.

كما يجب تدريب الشباب على التوقف عن إضاعة عمرهم في نشاطات وممارسات دينية مبتدعة لا أصل لها في دين الله ولا تنفعهم في آخرتهم، بل قد يكون إثمها أكثر من نفعها وثوابها .. وعلى الترفع عن المبالغة في طقوس هامشية أو شكلية دون مبرر ولا غاية .. وعلى الامتناع عن صرف وقتهم الثمين في دراسات بطرية لا تصلح إلا للمتبطِّلين المترفين.

فما الذي يفيد الشباب في دراسة الفقه على المذاهب الأربعة أو الخمسة؟ .. أليس الأهم لهم أن يفهموا كيف يقيموا حياتهم ويمضوا في شؤونها التي أضحت شديدة التعقيد، ويعرفوا كيف يؤدوا رسالتهم؟ .. أليس ما يحتاجونه في فترة صعودهم ونهضتهم هو أن يقدَّم لهم دين الله بطريقة مبسطة تتناسب مع لغة عصرهم ليتمكَّنوا من تفعيله في حياتهم، وأن تضرب لهم أمثلة تقرِّب المواضيع والأفكار من واقعهم عوضاً عن تقديم كل مسألة على شكل طلاسم غريبة عجيبة تمعن في تعقيد الأمور عليهم؟ .. وهل هذا هو دين الله الذي يفترض أن يكون واضحاً بيِّناً نقياً لا تعارض فيه ولا اختلاف؟.

وها هو حال الشباب المسلم اليوم، وبعد فشل كل محاولات توعيته وتوجيهه وإصلاحه يقع فريسة تحالفات معادية لدين الله تتجاذبه وتحرص على بقائه مشتتاً ضائعاً .. وصار – بسبب إهمالنا – أضعف بوعيه الراهن من أن يستطيع مقاومتها.

موجات عاتية كُرِّست في خدمة تحقيق أجندتها جهود وقدرات هائلة، ودُعمت بأموال ضخمة وإعلام واسع الانتشار يدخل إلى عقر ديار المسلمين ويصنع أفكارهم .. ولها عملاء ولصوص ومنتفعون، ولها أولياء وأنصار جهلاء منا وفينا، يعملون بلا وعي ولا فهم وبغباء أو سوء نية، وبأقصى طاقاتهم وبإخلاص منقطع النظير في توظيف الدين في خدمة أعدائنا وتشتيت طاقاتنا والإيقاع بيننا والحجر على الوعي والفهم ليبقى الناس على حالهم أنعاماً أو مجرد أرقام في سوق العمل والاستهلاك، أو أكباشاً يضحى بهم في خدمة السادة والكبراء[1].

موجات طالما بدت لنا في ظاهرها متناقضة متشاكسة، وأحياناً في صورة مخلصة طيبة النوايا، لنكتشف أنها أوجه متعددة لتحالف شيطاني متماسك استمر بناؤه لقرون لتصبَّ نشاطاته وطاقاته وأمواله وإعلامه وجيوشه في محاربة دين الله والصدِّ عن سبيله وإفشال مشروعه في الأرض والإنسان.

ونبين فيما يلي أشهر هذه الموجات وأشدها تأثيراً:

1 من المهم التأكيد هنا على أنني لا أتكلم عن أتباع أي من هذه الموجات سواء التقليدية أو الحداثية أو الإلحادية .. ولكن عمَّن يقودونها ويحمون أفكارها ويتقصدون تضليل الناس أو خداعهم .. وأقف في صف الضحايا المضلَّلين بهذه الموجات .. وهدفنا البحث عن الأهدى والأكثر استقامة.

الموجة الأولى

الفكر الآبائي المتمسك بآراء الأقدمين

رافعةً راية "العلم" ووصايتها على دين الله .. تقود هذه الموجة طبقة رجال الدين .. منهم الفاسدون ومنهم أصحاب النوايا الطيبة .. تتشبث بالماضي، وتقدسه بما فيه من غث وسمين، وتدافع دفاعاً مستميتاً عن التقليد الأعمى للأقدمين وتحطُّ من شأن التفكر وإعمال العقل، وتحارب كل مبادرة للمراجعة والتقويم.

ويصرُّ أصحاب هذه الموجة على فهم الدين كما فهمه أسلافنا في عصر انحطاطهم وتخلُّفهم بعيداً عن العلم والتجديد، أو كما رغبت به سلطات لا تريد للمسلم أن يتقدم خطوة واحدة إلى الأمام كبقية خلق الله .. فاستخدمت الدين كأداة للتسلط على رقاب الناس واستعبادهم ونهب خيراتهم.

وتمارس طبقة الكهنوت من هذا الصنف اليوم مهمتها بامتياز في التجهيل والحطِّ من قيمة الإنسان وإحباط كل محاولة لتوعيته وتحريره .. وتحاصر من يحيد قيد أنملة عن منهجها بالقمع والتهميش والاتهام معتمدة على جهل الناس الذي عملت لعقود على رعايته فكانت أكبر المساهمين في تكريسه.

ومع أن الله عز وجل يدعونا ألا نتبع قولاً أو فكراً إلا إذا اقترن بالدليل ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ .. وأن نتبع كل شيء على فهم وبصيرة ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .. ولا نتبع قولاً أو رأياً إلا بعد التمعن في فهم المقصود منه بما في ذلك آيات الله وكلامه، وأن يكون تفكيرنا فيها مفعلاً على الدوام كما وصف القرآن (عباد الرحمن) ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ .. فلا يزال الكثيرون من رجال الدين يصرُّون على أن الصواب هو في تقليد الناس لهم وللسابقين من أئمتهم ومشايخهم، وأن عليهم أن يقبلوا منهم الرأي دون تشغيل عقولهم ومن دون اعتراض أو تذمر .. وهم وإن زعموا وكرروا على مسامع الناس أنه يؤخذ من كلام الأولين ويترك، فهم في الواقع العملي يعظمون فهم الآباء لدين الله ولو أثبتت الأدلة سوء فهمهم وانحراف تفسيرهم .. بل لا يتركون ما تبقى من آرائهم ولو خالفت كتاب الله بكل صراحة ووضوح.

فالسلطة الدينية التي تتبنى الثقافة الموروثة وتتمسك بها تعيش منعزلة عن التفكر واستخدام المنهج العلمي والتحليل والتقويم، بل تروِّج لبعض النصوص الموضوعة والآراء الغريبة الجاهلة التي تطالب بالحجر على العقل فتحول بينه

وبين تمييز محتواها الشاذ من الصحيح وتمنعه من تقويم ما لا يتوافق مع العلم المبرهن عليه، أو تصحيح ما لا ينسجم مع المنطق والمعروف والفطرة السليمة أو حذف ما يتعارض مع ما يؤكد عليه القرآن الكريم.

فإذا كان القرآن يقول للإنسان: أنت خليفة .. مفوَّض .. موثوق بك .. نفخ الله فيك من روحه .. أسجد لك ملائكته .. سخر لك ما في السماوات والأرض جميعاً منه .. وأنت مسؤول مسؤولية كاملة عما تعتقده وتسلكه .. تأتي الأفكار والمعتقدات الموروثة والثقافة الدينية المشوهة لتكرس فيه احتقاره لنفسه وطاقاته، ولا تتوانى عن قتل ملكات التمييز عنده، والحطِّ من شأنه، وسلبه أعز ما يملك من عقل وإرادة واختيار .. فتقول له: لا تعترض .. لا تناقش .. لا تتدخل .. واترك شؤون دينك وآخرتك للمختصين، ولا تشغل نفسك بهذه المسؤولية، فنحن نتحمل عنك مسؤولية ما تعتقده .. ومن أنت لتفهم شيئاً على خلاف ما فهمه الأولون أو تنقضه أو تجادل فيه؟.

وإذا كان القرآن يكرر بوضوح أن الإنسان مسؤول مسؤولية كاملة عن مصيره وما تجنيه يداه، ويدعوه إلى العمل المجدي والمفيد .. والاستعداد .. تحاول الثقافة المسيطرة أن تقنعه أن كل شيء محتوم، وأنه يمكنه بالدعاء أن يحصل على مبتغاه من غير عمل ولا جهد ولا تخطيط ولا إعداد .. ثم تغرقه بعشرات من طقوس العبادة وأوراد الذكر وكل ما يشغله عن حاضره ومستقبله وحقيقة أسباب وجوده في هذه الحياة وامتحانه فيها.

وإذا كانت آيات الله تحثه على تغيير واقعه نحو الأفضل وتحمُّله واجب المساهمة في تغيير واقع غيره، فإن الثقافة السائدة الموروثة أفقدته قدرته التأثيرية من خلال آليات الوعظ والتخدير .. وانقطعت الصلة بين ما يدندن حوله خطباء الجوامع وواقع الناس ومشكلاتهم ومصائبهم، وعامل تغيير هذا الواقع وتغيير نفوسهم، فهي لا توقظهم بل تطبطب على أكتافهم مطمئنة أن أمة محمد بخير على الدوام ويجب ألا نقلق بشأنها أبداً لا في الدنيا ولا في الآخرة .. ففي الدنيا هم في خير دائم لأنهم الأمة المختارة التي لا يصيبها ما أصاب غيرها .. وأبناؤها هم أبناء الله وأحباؤه .. وفي الآخرة هم في خير دائم لا حساب عليهم ولا عذاب[1].

ومرت قرون .. والمسلمون يعيشون في الخراب .. واستمر إصرار أتباع المنظومة الفاسدة أنها كاملة ولا يسمح المساس بها أو مراجعتها .. واستمر خطباء المساجد في خداع الناس عن مكر أو جهل وحسن نية، ويقولون لهم انتظروا فالخير قادم .. واعتقد الناس أن الله سينصرهم ويعزهم ويحميهم ويخسف الأرض بأعدائهم من اليهود والنصارى والكافرين لمجرد ادعائهم بالكلام والأناشيد والهتافات أنهم أنصاره وأولياؤه أو أنه وحده مولاهم مهما كانوا بعيدين عنه ومهما قصَّروا في استعدادهم، فانتظروا .. فشردوا وخربت بيوتهم ولم تأت المعجزات التي وعدهم بها الضالون المضلون.

1 نص الحديث المتداول بهذا المعنى ورد كما يلي: (أمتي هذه أمةٌ مرحومةٌ ؛ ليس عليها عذابٌ في الآخرةِ، عذابُها في الدنيا الفِتَنُ والزلازلُ والقتلُ).

فإذا شكل بعض ما ذكر أو كله وأشياء أخرى إنساناً لا يريد ولا يرغب أن يتغير، أو يريد ولكنه يعتقد أن هذا ليس بيديه أو ليس من مسؤوليته حتى ولو قصم الطغاة والفاسدون ظهره، فهل ينفع معه كل التحفيز على ضرورة التغلب على العوائق لبدء رحلة الخلاص من هذه الحال؟ .. أو هل ينفع التحسيس للتغيير والانطلاق وتحمُّل المسؤولية ومواجهة الصعاب؟.

وإذا كانت المنظومة القرآنية تدعو المؤمن ليكون حاضراً كامل الحضور في كل المجالات مشاركاً في صنع معالم العالم وشاهداً فيه على الناس .. فإن المنظومة القائمة تشغله في مسائل أخرى بعيدة كل البعد عن رسالته، وتعوُّضه عن الفعل والتأثير في الواقع بأن تبالغ في التغني بأمجاد الماضي .. فإذا لم تكف جرعات الفقه الماضي في صرفه عن واقعه والجد في تغيير واقعه، فهناك من يجد له مكاناً تسرح به خيالاته ويضيع وقته لينسيه هذا الواقع أو يوهمه وكأنه قد أنجز كل واجباته الحاضرة، وانه لم يبق عليه من عمل اليوم شيء، وقد آن الأوان ليبدأ بوضع فقه مستقبله.

وفي أواخر نيسان من سنة 2009 – على سبيل المثال – عقدت في مسقط عاصمة عُمان ندوة تحت عنوان *(الفقه الإسلامي والمستقبل .. الأصول والمقاصد وفقه المتوقع)* .. محورها استشراف ما يمكن أن يحصل في المستقبل والاستعداد له (من الناحية الفقهية) .. وقد حضرها لفيف من رجال الدين وبعض من يتصدرون قيادة الفكر في العالم الإسلامي.

نعم .. فقه المتوقَّع .. وكأن المسلمين قد انتهوا من البحث في مسائل الحاضر واطمأنوا لحسن واقعهم وحزموا أمرهم في كل ما يرتبط به من فكر وعمل، ولم يعد يهمُّهم في شيء .. وانحصر قلقهم على تحصين المستقبل، فقفزوا إليه.

وماذا بقي لهذا المسكين بعد أن أنكرت عليه هذه الثقافة قدرته واختياره وعقله وإرادته ثم أراحته من واجبه ومسؤوليته في تقرير مصيره وصنع مستقبله وتحمل نتائج خياراته؟ .. وهل لنا أن نلوم ردة فعله على هذه الثقافة إذا نظر إلى واقعه فلم يجد إلا الفقر والحاجة والمهانة والانحطاط فكفر بها جملة وتفصيلاً؟.

الموجة الثانية

التجديد والمعاصرة

أما الموجة الثانية فهي موجة الفكر المعاصر والفهم المعاصر، ويقودها دعاة وأدعياء التجديد والتحديث .. وقد برز أصحاب هذه الموجة على مسرح التأثير منذ بضع عقود، ونادوا بفهم جديد وآراء تخالف ما تعود الناس عليه يحررهم من سيطرة الموجة الأولى ويضعهم على الطريق السليم لحقيقة دين الله.

ونتساءل: إذا كان الفكر الموروث الذي كان ولا يزال شائعاً عن دين الله لا يستطيع أن يخرجنا مما نحن فيه من ظلمات .. فهل مثل هذا الإنتاج الفكري الإسلامي المعاصر يستطيع أن يقوم بهذه المهمة؟.

وهل يمكن أن نطلق على أغلب ما ينشر في دور نشرنا ويبث على شاشاتنا الصغيرة اليوم إنتاجاً فكرياً أصيلاً أو مجدداً؟ .. وهل يفوق في قيمته أو يختلف في محتواه عن مثيله من تلك المواعظ والدروس الدينية التي تمثل القديم من رأي الآباء، أو يختلف عما يقدمه رجال المؤسسات الدينية في خطبهم ومحاضراتهم؟.

وقد رُفعت لموجة المعاصرة رايات كثيرة وكان لها اتجاهات مختلفة .. ومن الغبن أن نضعها جميعها في خانة واحدة أو ننكر ما كان فيها من أفكار إيجابية وجهود مباركة في توعية الناس .. ويتراوح المنتمون إليها من أصحاب الفهم الجديد بين مستويات عديدة وفق نوعية الإنتاج الذي قدَّموه .. فمن درجة رفيعة في الفكر والرأي إلى درجة مخجلة من الجهل والتهافت.

فقد نجح قلة منهم في تقديم فكر متقدم ومتنور، وكانت لهم –من وجهة نظرنا– آراء سديدة كثيرة، وقد أسهموا في تصحيح مفاهيم وآراء ومواقف عاشت في أذهان المسلمين وواقعهم لقرون طويلة مقلِّدين فيها آباءهم .. وقد يعرف القارئ أسماءهم .. ومن المؤسف أن يكون أكثرهم فهماً لما يعانيه المسلمون من آبائيتهم ورأيهم في طرق تخليصهم منها هم من يعرضون هذه المسائل بطريقة معقدة ويستخدمون لغة عصية على المثقفين من غير المختصين ناهيك عن عموم القراء، ويصعب على بعض الشباب فهم كتاباتهم[1] .. ونستثني هذه الشريحة مما سيأتي من كلامنا عن هذه الموجة.

---

1 مثال عليهم المفكر الدكتور أبو يعرب المرزوقي.

ومن جهة أخرى لا يمكننا أن نتجاهل ما أصاب هذه الموجة من شطط وانحراف .. وكأنهما صفتين ملازمتين لعقولنا وطريقة تفكيرنا، فما أن يقدِّم أحدهم فكرة مميزة في كتاب أو أكثر، وتلقى فكرته شيئاً من القبول أو الرواج، حتى تراه يفرط في التدخل في قضايا أخرى، وكأنما صار فقيه زمانه وعلَّامة عصره والمنظِّر الفكري والاجتماعي والاقتصادي الذي يمتلك الأجوبة على كل الأسئلة .. وقد أسرف بعضهم في تماديهم وتطفلهم على العديد من القضايا، وأكثروا من إنتاجهم لتلبية الطلب المتزايد من جمهورهم ووجدوا في الدين تجارة مربحة.

حتى أن بعضهم صار مرجعاً في تحليل القضايا السياسية بالتوازي مع الإفتاء في أصغر القضايا ولا سيما تلك التي تخص المرأة وطريقة لباسها، والعلاقة بين الجنسين وكل ما يجذب فئة عريضة مكبوتة من شعب محطَّم ضائع حيران[1].

وهناك فئة أخرى متسلقة ألحقت نفسها بهذه الموجة، وأصر أفرادها على الرغم من سطحية آرائهم اعتبار أنفسهم من المجددين المعاصرين .. وقد ابتعدوا، من وجهة نظرنا، عن فهم روح الإسلام وغاياته، وانحرفوا في آرائهم عن دين الله بطريقة سمجة وممقوتة لا تقرأ فيها إلا الرغبة في المخالفة والظهور واللهاث وراء شهرة قليلة، ولو كانت بصيت مخجل وسمعة سيئة، ولا يتجاوز إبداعهم إشباع رغبات بعض المتلهفين لتأويلاتهم الشاذة، ولا سيما تلك التي تفتح لهم الباب إلى التحلل من بعض الأمور المحظورة في شريعة الله أو الشريعة الآبائية كما يفهمونها، والتنطع في فهم بعض المصطلحات وإلغاء الكثير من الحدود بجرَّة قلم ومن غير علم ولا دليل ولا تبرير مفهوم.

وهم وإن بدا في الظاهر أن عملهم لا يضر ولا ينفع .. أو نشاطاً بريئاً مناوئاً ومصححاً لموجة التقليد والآبائية وتصحيح ما فيها من الجهل وفقدان الرشد، إلا أنهم في حقيقة الأمر يساهمون في إغراق المنظومة الفكرية السائدة وتحميلها المزيد من الأحمال الإضافية، فزاد ذلك من حيرة الناس وتفرُّقهم، وعزَّز انقسامهم وأجَّج الصراعات فيما بينهم، وشتَّت شملهم وأجهض كل محاولة لجمعهم على فكرة مشتركة أو موقف موحد.

ومن حسن طالع الأمة افتضاح أمر الكثيرين منهم واستعار نار صراعاتهم ومشاكساتهم، فلا نكاد نجد بينهم اليوم من يوثق بعلمه ورأيه وخلقه، وصاروا بين متَّهِم ومتَّهَم .. ساعة بالجهل ومرة بالنفاق وأخرى بالضلال أو العمالة لمن يدفع لهم ويوجههم .. ولم يعد كثير من الناس يستسيغون شطحاتهم وبدأوا بالانفضاض من حولهم، ونعم ما فعلوا .. ولم يبق خلفهم إلا جمهور ممن ينطبق عليه المثل الشائع عن الطيور التي تقع على أشكالها.

1 ما لم تكن هناك ضرورة خاصة لتوصيل فكرة هامة، فإنني سأحاول تحاشي ذكر الأسماء .. وأعتمد على نباهة القارئ وثقافته وخبرته الخاصة في تخمين المقصودين بالكلام، أو من ينطبق عليهم ممن يعرف منهم .. وقد يكون تخمينه أكثر دقة مما أضمرته .. أما الأمثلة الموثقة عن آرائهم فسيجد القارئ الكثير منها في كتاب قادم.

الموجة الثالثة

المرجفون والمشككون

أما الموجة الثالثة الحديثة العهد نسبياً، فيقودها المعادون لدين الله ورسالته الخاتمة علناً وعلى رؤوس الأشهاد .. وتدار وتوجَّه ويروَّج لها من قبل متعصبين حاقدين من ديانات أخرى .. حيث يتلخص عملهم وكل جهودهم في التشكيك بدين المسلمين جملة وتفصيلاً، وإشاعة الأخبار الكاذبة والمعلومات المضللة والأفكار الشاذة المرفوضة والافتراءات المقيتة ليثيروا الاضطراب والبلبلة في عقول الشباب.

ويساعدهم في مهمتهم الخبيثة المكشوفة بعض من ولدوا في بيئة إسلامية متدينة أو تقليدية ثم تخلَّوا عنها .. وأخطرهم وأقبحهم من يدَّعون خبرة في تفاصيل هذا الدين من متدينين ورجال دين سابقين.

ويجب ألا نستهين بخطورة هذه الموجة .. وقد بدأت تنتشر في عقر دار المسلمين ويتوسع خطابها السفيه الحاقد، وتزداد حجج روادها الماكرة، وأخطر ما فيها قدرتها على اصطياد الشباب ضعيفي الثقافة قليلي القراءة والاطلاع .. وسلاحها الأمضى هو الخلط المقصود بين الدين الآبائي الموروث ودين الله الأصيل، واستغلالهم لأوضاع الضحايا من ذوي النفوس المتشائمة المهزومة التي فقدت الأمل من كل شيء بعدما حطمتها عقبات التخلف التي طال زمنها في مجتمعاتهم، أو أحرقتها الحروب الطاحنة التي كان للإسلام نصيب كبير من اسمها، مع التجربة القاسية التي وقعوا فيها، فأفقدتهم أعزاءهم وبيوتهم وأموالهم ومستقبلهم فخارت قواهم .. وكان للآلام التي نزلت بهم في السنوات الأخيرة تأثير كبير في زلزلة أفكارهم وتغيير مواقفهم، فتحولوا إلى طائفة من المتمردين على الدين جملة وتفصيلاً، وأصبحوا – ومعهم كل الحق في ذلك - يشككون في الدين الذي ورثوه دون أن يتمكنوا من التمييز بين ما يجب رميه والتخفف منه وما يجب إحياؤه وإحسان فهمه وتطبيقه.

ولإثبات أن الإسلام لم يعد له مكان في هذا العالم، وأنه لا فرصة لإصلاحه بعد اليوم، يستشهد بعض الناشطين في هذه الموجة بأمثلة من التراث، وبما ورد على لسان أصغر مدَّعٍ للفقه أو التفسير أو الرواية، ويبالغون في علم من قال بها ويعتبرونه فقيهاً أو إماماً أو علامة ثم ينسبون ما قال به إلى الإسلام دين الله القويم وكتابه الخاتم الحكيم .. ويبحثون في كتب لم يعد يقرؤها أي مسلم، ويغوصون فيها ليأتوا بشواهد يدعمون بها وجهة نظرهم بأن (الإسلام) الذي يؤمن به المسلمون هو دين مليء بالجهل والخرافة والاعتقادات الغريبة العجيبة .. وذلك هو التضليل في أبشع وقاحته.

ونرى فيهم من يفتش في كتب الحديث[1] باحثاً عن خرافات وأوهام .. ومن يتصفح كتب التراث ليروي القصص عن قناعات ومواقف لا تصدر إلا عن معتوهين وحشاشين .. ومن يسافر بنا في التاريخ باحثاً في خلافات وأحداث آن الأوان لوضعها وراء ظهورنا أو في أرشيف تراثنا لنعتبر منها، أو محركاً لقضايا وأفكار أثبتت الوقائع والأحداث التي نشهدها بطلانها وتهافتها.

فالأمثلة التي يطبّلون لها ويزمّرون لم تعد متداولة حتى بين أجهل الجاهلين من المسلمين .. بل هي شواهد نتفق معهم على شذوذها وسفاهتها، ولا يمكن لعاقل أن يقبل أنها من دين الله[2].

ومقابل الدعوات الرصينة التي ندعمها ونقف في صفها بما تهدف إليه في توجيه الناس إلى كشف حقيقة دين الله صافياً والبحث عما دخل عليه من آراء مشبوهة والتخلص منها وتصفيته من كل الغرائب التي ألقيت في ساحته .. وفي ذلك يكمن المعنى الحقيقي لإصلاحه .. يعتمد هؤلاء الخبثاء على آراء مشبوهة لمحاربة دين الله وتضليل شبابنا، ويستشهدون بها دون غيرها ليثبتوا أن خللاً كبيراً يكمن في طبيعة هذا الدين .. وهي آراء ومرويات باطلة لا يقبل مسلم ذو عقل أن ينسبها إلى دين الله العظيم.

وأصبح لهم جمهور من أصحاب الثقافة السطحية أو القلوب المريضة أو النوايا الخبيثة ينشطون في تأييد وجهة نظرهم القائلة بأن دين الله (الإسلام) انتهى إلى غير رجعة، وأنه ما من حل لمشكلاتنا إلا الكفر به وبكل ما ينسب إليه بما في ذلك القرآن الكريم، وليس أمامنا إلا الخروج على هذا الدين وعلى كل ما جاء به.

وربما بقي موقف هؤلاء حسناً لو توقفوا عند حدود المراجعة والتقويم .. أما عندما يصل الحال عند بعضهم إلى مستوى رد الفعل العاطفي المنكر لكل شيء، والذي ينقل صاحبه من النقيض إلى نقيض يماثله، فهذه حال مؤسفة حقاً .. ولن يستطيع أحد فعل شيء تجاهها .. فميدان إعادة التأهيل فيها هو المعالجة النفسية وليس الإقناع الفكري، وليس لنا إلا أن ندعو لهم بالخير والصلاح.

ولو سألت: إلى أين يريد رواد هذه الموجة أن يخرج هؤلاء الشباب؟ .. فالجواب الواضح هو: لا يهم .. إلى الكفر أو العبثية أو الإلحاد أو إلى أي إيديولوجيا أو دين آخر.

المهم هو أن تخرج على الإسلام وتعادي أهله وتسخر منهم ومن كل ما يمت بصلة إلى دينهم .. وعندها، وربما في اليوم ذاته الذي تصير فيه ملحداً أو بوذياً أو هندوسياً أو مسيحياً، سيرحبون بك ويقدرون عقلك، بل ربما تغدو

---

1 المقصود هنا الأحاديث المنسوبة زوراً إلى رسول الله ﷺ.. وليس الأحاديث التي تتوافق تماماً مع كتاب الله ومع العلم المثبت.

2 من أمضى الأسلحة التي يستخدمها هؤلاء قصة إرضاع الكبير وجهاد النكاح وقتل المرتد ورجم الزاني المحصن والروايات الباطلة التي تحتقر المرأة، وكثير غيرها من من الأحاديث الضعيفة والموضوعة والأحاديث التي لا تمت إلى العقل والعلم والخلق الكريم بأي صلة، إضافة إلى تفاهات أخرى من كتب التراث قال بها معتوهون وحشاشون وشاعت بين الناس .. ومع ذلك لا تريد المؤسسة الدينية أن تكلف نفسها بوضع حد لمثل هذه الغرائب وتنظيف دين الله منها.

مفكراً كبيراً تستضيفك الفضائيات، ولا يعود يهم أن تؤمن بفضلات موجودة في تراث عقيدتك الجديدة ولا بخرافاته وعاهاته التي غادرت إسلامك بسبب ما يماثلها من جهل وسخف في تراث دينك القديم.

ويروج هؤلاء السفهاء أن الناس سيتخلون عن دينهم بعد المصائب التي سببها انتماؤهم إليه، ويستشهدون بنماذج من أولئك الذين فقدوا الثقة وتخلوا عنه، وأصبح من السهل اليوم ملاحظة الأدوار التي يقوم بها كل واحد من المكلفين بتحريك هذه الموجة.

وقد رأينا في الآونة الأخيرة من انبرى منهم للدفاع عن آراء عجيبة لا ندري من أين أتى بها .. فالأقصى الذي يظنه المسلمون في القدس ليس هو الأقصى أولى القبلتين الوارد في القرآن الكريم والذي أسرى الله تعالى بنبيه وعبده محمد ﷺ إليه من المسجد الحرام .. ومنهم من جاءته تعليمات للتشكيك بما نعرفه عن صلاح الدين الأيوبي، واعتباره من أسوأ الشخصيات التاريخية .. ومنهم من يدعي أن فلان شخصية وهمية لا وجود لها في الحقيقة .. ومنهم من تجد عنده الخبر اليقين عما دار من حوار أو خلاف بين شخصين عاشا منذ قرون، لأن هذا اليقين يخدم فكرته أو مصلحة من يدفع له .. وهذا الحوار يختلف كل الاختلاف عما كنا (نظنه) أو نعتقده طيلة عمرنا!.

وقد خدع البعض في بداية الأمر وظنوا أن يكون رأي من هذه الآراء وجيهاً، أو عندهم فكرة تستحق النظر، ولو كانت من نسج خياله وأوهامه، وتجادلوا فيها، وكنت ممن تساءلوا في البداية: ماذا لو كان ما يقال صحيحاً؟، وأضعت وقتاً في بحثها .. ولكن المؤشرات والوقائع والتسريبات سرعان ما بدأت تشير إلى أنهم يتلقّون توجيهات من أحد مراكز صنع الأفكار، وأن مهمتهم انحصرت في فبركة الدليل للتسويق لفكرة معينة أو لخدمة أهداف محددة.

وبانتهاء الحديث عن هذه الموجات يجب أن أنوه أن النشاطات المعادية لدين الله أكبر وأكثر من حصرها في موضوع في كتاب، فهناك الكثير مما يقال حولها .. وربما يعرف القارئ مما يقرؤه ويسمعه ويشاهده أمثلة أخرى يمكن الاستشهاد بها على محاولات الذهاب بنا بعيداً عن واقعنا وديننا، وتشتيت انتباهنا عن مشكلاتنا الحقيقية، وإبعادنا عن البحث عن حلول للخلاص من المصائب التي حلّت بنا.

وحالنا اليوم يدل على أن أعداءنا قد تمكّنوا منا .. وأننا **كنا ولا زلنا غير محصَّنين للصمود في وجه التحديات القديمة والحديثة .. وأن شبابنا لا يملكون** منظومة فكرية محكمة واضحة المعالم لدين الله تمكّنهم من وزن وتقويم ما فرض عليهم من آبائهم أو ما يغزوهم من معلومات وأفكار وممارسات دخيلة غريبة جلبت إلينا بالجملة والمفرق من قبل الحداثيين المستلبين بالغرب .. أفكار لا تناسبنا ولا تتوافق بأي حال من الأحوال مع منظومة دين الله الفكرية المحكمة ولا مع جوهره وحقيقته.

ومن أشرف الفروض التي يجب أن نعمل عليها لتعزيز مناعتهم، هو بناء هذه المنظومة، والإسهام في توصيلها إليهم .. وعندها ستغنيهم عن إضاعة وقتهم وجهدهم في الصراع مع هذه الموجات، وفرز ما فيها من آثام .. وتمنحهم فرصة للتفرغ للعمل والإنجاز.

الباب الثاني: المنطلق السليم للنهضة والنجاة

هجر التقليد والتحرر من سجن الآباء

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا . . وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾

هل ثقة أو ارتياح جماعة من الناس أو مجتمع من المجتمعات لدين أو مذهب أو عقيدة معينة دليل علي صحة هذا الدين أو ذلك المذهب أو تلك العقيدة؟.

وإذا كان معظم الناس فى العالم يدينون بدين آبائهم .. أفلا يتناقض إيمان أى منهم بعدالة الله مع ادِّعائه أنه ببقائه علي دينه الموروث يكون دون غيره علي دين الله القويم؟.

وهل يجب الخروج علي دين الآباء؟ .. وإلي أى حد يمكن اعتبار هذا الخروج منطلقاً للبحث عن طريق النجاة؟، ومتي يصبح واجباً؟ .. وإذا كان الأطفال يُعفَون من مسؤولية تقليد آبائهم فهل يعفون منها عند بلوغهم واكتمال رشدهم؟.

لو فكرنا في حال جميع الذين ولدوا قبل ثلاثين أو أربعين عاماً في مدن مثل القاهرة وطهران ودمشق، أو من ولدوا في بلد كالمكسيك أو اليابان .. أليسوا جميعهم **اليوم** يتبعون الدين الشائع ذاته والمذهب ذاته الذي ينتمي إليه الناس في محيطهم في تلك المدن أو الدول؟.

ألا يعتبر كل واحد منهم أن الآخرين قد انحرفوا عن الطريق الصحيح، وأنه هو وقومه على حق مطلق وقد يكون رجل الدين في طائفته ويدعو الناس إلى ما يراه حقاً ويسعدهم في الدنيا وينقذهم في الآخرة؟.

وبغض النظر عن التزامهم بتعاليم الإسلام .. فأولئك الذين ولدوا في عائلة مسلمة سنية من أهالي دمشق أو عمان، ما هو احتمال أن يكونوا اليوم من غير المسلمين السنَّة؟.

بل كم عدد الذين لا يعتقدون منهم بكل ما وصلهم عن آبائهم وما يلقنه رجل الدين في حارتهم أو مسجدهم؟ .. وكم عدد الذين فكروا وراجعوا فقوموا شيئاً من التحريف الذي وصلهم من طائفتهم؟.

بطبيعة الحال لا يخلو أن تجد فيهم من يفكر ويراجع بعض ما وصله عن آبائه .. ولكن ألا يقدس معظمهم ما يتلى على أسماعهم من أحاديث بما فيها من ضعيف وموضوع ومنكر؟ .. وكم عدد الذين يحكِّمون عقولهم في روايات لا تتوافق مع كتاب الله أو لا تنسجم مع العلم اليقيني المثبت؟ .. بل كم عدد الذين يقدِّمون كلام الله على كلام البشر عندما يحصل التناقض؟.

وأقرانهم الذين ولدوا من عائلة شيعية في قم أو مشهد أو كربلاء أو أحد أحياء بغداد أو بيروت، ما هو احتمال أن لا يكونوا اليوم من الطائفة الشيعية؟.

تقول الإحصاءات التقريبية أنه مع قراءة ثلاث إلى خمس صفحات من هذا الكتاب سيولد حوالي عشرة أطفال في القاهرة وثمانية في طهران وثلاث في موسكو وخمسة في العاصمة المكسيكية .. ولو تخيلنا أن أحدهم قام بعد عشرين أو ثلاثين أو أربعين سنة بالبحث عن هؤلاء الأطفال وتمكَّن من مقابلتهم .. فكيف سيجدهم؟.

ألن يجد أن العشرة الذين ولدوا في القاهرة هم من المسلمين السنة وجميعهم على مذهب أبي حنيفة؟ .. وأولئك الثمانية الذين ولدوا في تلك الساعة في طهران، ألن يكونوا كلهم على المذهب الشيعي الإثني عشري؟ .. كما يجد الذين ولدوا في المكسيك من المسيحيين الكاثوليك .. وقس على ذلك ما يخطر في بالك من بلدان وأديان ومذاهب.

لم نذهب بعيداً .. فقبل الكوارث التي خلفتها الحروب الطائفية الكريهة في الكثير من المدن العربية .. وقبل التطهير العرقي الذي مارسه المتخلفون تحت راية حماية دينهم أو طائفتهم .. وفي أحياء عديدة في كل من دمشق وبيروت وبغداد وغيرها من العواصم العربية، كان من الطبيعي أن تجد في بناء واحد من أبنيتها عائلات من مختلف الأديان والطوائف .. واحدة سنية وأخرى شيعية وثالثة مسيحية.

ومع أن الشاب أو الفتاة ابن العائلة الشيعية قد ولد على بعد أمتار قليلة من مولد شاب أو فتاة سنية .. وقد لا يفصل بين مسقطي رأسيهما إلا جدار واحد، ستجد أن الأول الشيعي يكرر لك ما يحفظه عن ظهر قلب مما ارتكبه معاوية في حق علي وأهل بيته أو تلك الأخطاء التي ينسبها رجال الدين في طائفته إلى أبي بكر وعمر .. أما الثاني السني فهو يؤكد رضا الله عن جميع الصحابة بمن فيهم معاوية على الرغم من علمه بما قام به.

قد يتحلَّى بعض الشيعة بالوعي وعدم التعصب فلا يلعنون الصحابة .. وفي أحسن الأحوال لا يكرهونهم، ولكنهم لا يكنُّون لهم ذلك الاحترام الذي يكنُّه لهم أهل السنة، ولا يعترفون بالأحاديث التي يقدسونها وبشكل خاص تلك التي رويت عن أبي هريرة أو عائشة .. ويؤمن جميعهم بعصمة الأئمة وبظهور الإمام الغائب ويهتفون

مستجيرين بالحسين ويرفعون راية أبي الفضل العباس والسيدة زينب وغيرها من الممارسات التي ينكرها نظراؤهم من أهل السنة؟.

وقد يتحلَّى بعض السنة بالوعي وعدم التعصب ويحترم الأئمة كلهم أو بعضهم ويقدر علمهم وآراءهم، ولكن هل تجد فيهم شخصاً واحداً يحمل لهم ذلك التقديس الذي يكنُّه لهم نظراؤه في الطرف المقابل، أو من يؤمن بمبدأ الإمامة والعصمة والغيبة؟.

لسنا هنا في صدد البحث من المخطئ ومن المصيب من بين الفريقين .. ولكن ما يهمنا هنا هو سؤال واحد: هل يحق لأي واحد من هؤلاء أن يزعم أنه قد اختار دينه وإيمانه واعتقاده بنفسه من خلال إعمال عقله؟ .. وهل نصدِّقه إن قال أنه هو من اختار بنفسه كل قناعاته وتفاصيل ما ينص عليه مذهبه ويبشر به رجال الدين في طائفته؟ .. أو هل نصدقه إن زعم أنه اتبع أهله بعد تفكير وتمحيص لأنهم على حق – والحمد لله – وليس لأنهم أهله؟ .. وإن صح أنه اختارها بعقله، فكيف تَصادف أن يكون خيار كل واحد منهم الدين ذاته الذي يعتقد به أهله وعشيرته بالتمام والكمال؟.

الفصل الرابع: نبذ التبعية والوصاية

واجب البحث

هل التفكر ومراجعة المعتقد الذي ورثناه وأسلوب الحياة الذي نعيشه مطلوب من كل واحد منا ؟.
وهل من المهم أصلاً أن نبحث عن معنى الوجود لنعرف مهمة الإنسان ورسالته في الحياة؟.
ألا يكفينا الالتزام بما تعلمناه من رجال ديننا من فقهاء و"علماء" قدماء ومعاصرين؟.
ألا يغنينا ما تركوه لنا ، وقد بذلوا ما بذلوه من جهود لفهم الدين وشرحه وبيانه؟.
ألا يمكن اعتبار تفسيرهم وفهمهم منهجاً صحيحاً للحياة الدنيا والنجاة في الآخرة؟.
وهل يمكن اعتماده والبناء عليه للنهضة والتقدم ومجاراة غيرنا من الأمم؟.
وهل لنا دور في التقويم والتدقيق والتصحيح؟.
وهل واجب كل إنسان أن يبحث عن مخرج مما نحن فيه والممارسة العملية لما نصل إليه من قناعات؟.
وما مسؤوليته عن اعتقاده وإيمانه والأفكار التي يتبناها وأسلوب حياته ومواقفه؟.

المسؤولية الفردية

لا عذر على الجهل والتقصير

﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى . . ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الْأَوْفَى ﴾

يوضح القرآن الكريم في أكثر من مناسبة مسؤولية كل فرد في بذل الجهد في التفكر والبحث لاكتشاف الحق واتباعه .. وأنه سيحاسب على هذه المسؤولية، ويثاب على جهده في تحقيقها .. ويرفض موقف من يدعي عدم قدرته على التوصل إلى حقيقة دين الله القويم ومعرفة رسالته الحقيقية في الحياة .. ففشله هذا ليس بسبب عدم ولادة هذه الإمكانية معه، بل لأنه قصَّر في تنميتها أو انشغل في صرف جهده وعمره في أمور أخرى وتجاهلها كأهم قضية في حياته، أو لم يولها ما تستحق من عناية واهتمام .. وعليه أن يستدرك ذلك لينقذ نفسه.

كما يؤكد القرآن أيضاً على مسؤولية كل من يزعم الانتماء إلى دين الله والأمة التي تسير على منهجه ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ أن يكون له فيها موقف واضح .. وأنه سوف يسأل عما فعل وقدم بخصوصها ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ .. ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .. بل مطلوب منه أن يرتقي بنفسه ليصبح شاهداً على غيره من الأمم والشعوب﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ .. شهيداً على من كان منهم مصلحاً ومن كان مفسداً .. من كان ظالماً ومن كان عادلاً .. من بادر منهم إلى الاعتداء على الآخرين واستباح أرواحهم وأموالهم، ومن كفَّ يديه عن ارتكاب الظلم والفساد والإجرام في سفك الدم الحرام .. من تعصب لقبيلته وأسرته وآبائه، ومن تجاوز ذلك تنفيذاً لقوله تعالى﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ . . وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

والقرآن الكريم يبين في أكثر من مناسبة أن الكفر وعدم بحث الإنسان عن حقيقة خالقه هو إهمال غير مبرر يتحمل الإنسان عواقبه .. كما أن أولئك الذين يفكِّرون ثم لا يؤمنون بالله أو يجحدون بآياته أو يجعلون له شريكاً

فإنما يقومون بذلك ظلماً وعدواناً وإعراضاً واستكباراً .. وسبب النتيجة التي وصلوا إليها هي تلك الامتيازات التي لا يريدون التنازل عنها ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾.

فماذا عن الذين لا يحيدون عن طريقهم بكل ما فيه من تحريف وشرك وجهل؟.
وهل تقع مسؤولية التحريف على من أحدثوه أول مرة دون غيرهم؟ .. أم هي مسؤولية كل من يسير على منهجهم الخاطئ؟.

إن الله تعالى يلوم الذين يتبعون الضلال بنفس القدر الذي يلوم فيه المضلّين ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ .. وقد عمل الأنبياء على تحرير الناس من اتباع غيرهم من البشر دون تبصُّر أو تقليدهم دون وعي ومعرفة .. وكانوا يؤكدون لهم أنهم وحدهم من يتحملون كامل المسؤولية في التفكر والعقل والبحث عن الأصوب والأهدى ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ .. كما أن اتباع الشائع عند الغالبية من الناس دون تفكير يقود إلى الضلال﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

فمسؤولية الإنسان عن قناعاته ومواقفه وخياراته وأعماله هي مسؤولية مباشرة .. وانتماؤه إلى دين أو فكر أو عقيدة معينة هو خيار لا يلام عليه أحد غيره .. ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ .. كما لن يتحمل مسؤولية انحرافه عن طريق الصواب أهل ولا عشيرة ولا أصدقاء ولا زعماء ولا رجال دين .. ولا يعفيه اتباعه لفقهاء أو سلف أو أئمة إذا قال أي منهم برأي يخالف كلام الله﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾.

فالإيمان السليم مثلاً يمكن تحصيله .. ويجب تحصيله .. بل هو أهم وأعظم ما يجب تحصيله .. فهو وما يفضي إليه من عمل صالح جوهر امتحان الإنسان في هذه الحياة .. وكل إنسان مطالب ببذل جهده لتحقيقه، وأن يكون نابعاً من عقله وقلبه ووجدانه .. وليس أن ينتظره هبة من الله يقدّمها دون أسباب لمن يختار من عباده ويحرم منها من يشاء كما تشي به المنظومة الدينية السائدة.

فإذا حصَّل الإيمان يبقى عليه أن يراقب نفسه في تحصيل معنى العمل الصالح والمعاني الأخرى التي يجب التزامها كمنهج في حياة الإنسان في كامل مرحلة بلوغه ورشده، وما يتبع ذلك من مسؤوليته عن صحة مواقفه وسلوكه

من إحسان وبر وتقوى وفعالية ورشد .. كما أن عليه أن يراقبها لتجنب ما يقابلها من معاني الظلم والكفر والشرك والفساد والتخلف والانحطاط.

ولا يعفى من هذه المسؤولية إنسان عاقل .. فكل شخص مسؤول عن تزكية نفسه ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ بالتفكر والفهم والمعرفة، والتخلي عن التشويه والشذوذ في معتقداته .. ومن يترك الأمور على عواهنها ويرضى بما هو عليه يغدو فاشلاً خائباً ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ .

والإنسان بطبيعة تكوينه وخلقه، ودون مساعدة من رسالة أو رسول، يستطيع أن يصل بعقله إلى الإيمان بالله تعالى وشكره والابتعاد عن الشر والظلم والفساد .. ولا يستثنى من ذلك العوام والأميون، فهم مكلفون ومسؤولون عن معتقداتهم ومواقفهم وأعمالهم .. ولا يقبل منهم تقليد غيرهم فيما يغضب الله سبحانه وتعالى .. ولا عذر لهم في الانحراف عن جوهر دين الله وكتابه الواضح بين أيديهم .. ومن لا يستطيع منهم قراءته، فله أن يستمع إلى آياته أو ترجمته .. فطالما بلغ الإنسان واكتمل عقله ولم يكن مجنوناً أو مكرهاً فلا شيء ينقذه من العذاب إن كفر بالله أو أشرك به أو مارس القتل الحرام أو الظلم أو الإكراه أو الفساد.

وهذا ما كان مطلوباً من الأتباع الأوائل لكل رسالة في أيامها الأولى ولم تتنزل بعد توجيهات الله في كتاب أو قرطاس، أو ينقلها ملك كريم .. وهكذا فعل إبراهيم عليه السلام وكثير من الأنبياء والصالحين الذين خلَّد القرآن الكريم ذكرهم .. فكَّروا من غير رسالة وشكَّكوا في موروثاتهم، ووصلوا إلى الله .. وبسبب جهدهم هذا هداهم الله أكثر، واصطفى منهم من حمَّلهم رسالته إلى الناس وجعلهم قدوة لهم.

وهناك عدد من قصص القرآن التي تتحدث عن أفراد وجماعات فكَّروا ولم يعجبهم حال قومهم الفاسد، فانسحبوا واعتزلوهم أو هجروهم كأصحاب الكهف، والرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، وإمرأة فرعون ومريم ابنة عمران.

وفي المقابل نرى صنفاً من الناس ممن ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ بسبب ما كان لهم من مواقف مسبقة تشذ عن الفطرة .. فلم تنفع معهم رسالات الله تعالى ونذره ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ .. **حتى أنه كان منهم** أفراد قريبون من أنبياء وصالحين فلم ينفع ذلك في هدايتهم .. كامرأة نوح وولده وامرأة لوط.

وهدفنا من الإصرار على بيان أهمية التفكير الشخصي ليس فقط هو التحرر من ذلك التبرير غير المقبول الذي نسقط فيه المسؤولية على غيرنا ونبرئ أنفسنا من أنواع التقصير وسوء الفهم الذي يقود إلى الابتعاد عن طريق الله القويم، والذي مفاده أن هذا ما فهمه فقهاؤنا ورجال ديننا .. بل نهدف من هذا الإصرار أيضاً إلى إسكات من

يتكلمون عن التخصص في الدين وضرورة اتباع ما يصل إليه المتخصصون وترك أمر الفهم والتفسير لهم دون غيرهم.

والعاقل عادة لا يرضى أن يتحمل مسؤولية اعتقاد الآخرين وأعمالهم، ومع ذلك نجد في زماننا كما كان في كل زمان جهَّال يتصدُّون لهذه المهمة الشاقة، فيحمِّلون أنفسهم ما لا طاقة لهم به وما ليس من واجبهم.

ونستطيع أن نفهم مبررات أولئك الذين يخدمون عن علم ومعرفة مصالح وأجندات هادفة ويكسبون ثمن قوتهم من خدمتها .. فالجهال والمصلحيون من رجال الدين ممن يتصدَّرون مجالس الوعظ والهمهمة والذكر والدعاء هم أكثر من يمثلون هذا الصنف، وهم يكافحون بلا كلل ولا ملل من أجل الاستمرار باحتكار فهم دين الله وتحمُّل مسؤولية انحراف المقلدين لهم في انحرافهم، ولا يحذرون من فهمهم الخاطئ وأثره على عقول الناس ومواقفهم وأعمالهم بحجة أن هذا الفهم ينبغي أن يكون حكراً عليهم كمتخصصين في الدين .. ويجب ألا ننخدع بمظاهرهم وما يحفظونه ويتمتمون به.

ولكننا لا نستطيع أن نفسر لماذا يصر بعض رجال الدين من ذوي النوايا الحسنة على تحمل هذه المسؤولية وكتاب الله تعالى يحذِّر منها؟ .. كما يجب ألا ننساق مع عواطفنا ونعذرهم على طيب نواياهم ودروشتهم .. فكيف يقرؤون كتاب الله ويدَّعون فهم معانيه – وهو الذي يؤكد على المسؤولية الفردية ويحذر من الاتباع كما ذكرنا –؟.

وكيف يعلمون الناس كثيراً من تفاصيله ويبدعون في تفسير الكثير من سوره وأياته ويدرِّسونها لطلابهم ومريديهم، ويؤمون المصلين ويلقون فيهم خطب الجمعة ويعقدون حلقات الدروس الدينية، أو يظهرون على المحطات الفضائية لتعليم الناس معاني دين الله .. ثم يقولون لهم أن يأخذوا دينهم حصراً عن المتخصصين؟.

أما أسوأ نماذج من يحذرون الناس من التفكير للوصول إلى ربهم وحقيقة رسالته إليهم فهم أولئك الذين يقفون في صف أعداء الله وأعداء ما جاءت به رسالاته ورسله لأنهم دخلوا إلى فهم كتاب الله بنوايا سيئة مسبقة ونفوس وضيعة، فلا يخجلون ولا يملكون ذرة من حياء ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ .. ومهما وضَّح القرآن وكرَّر في مسائل الإصلاح والفساد والعدل والظلم والإيمان والكفر، فهم لا يهتمون لسماعها ولا يريدون فهمها .. ويمكن للقارئ أن يتذكر أولئك الأشرار الذين استمروا في غيهم وحماقاتهم وانحرافهم الفكري مقابل بعض المصالح الدنيوية التي يخشون أن يحرموا منها أو أن تذهب لغيرهم، وكأن الدين ملك خُلِّفوه .. ولا يكفيهم أنهم يتحملون المسؤولية الأكبر في إيصال هذه الأمة إلى الحالة المتردية التي هي عليها اليوم، أو كأننا لا نعرف نوع "العلم" الذي يتعلمونه حتى يحظوا بلقب يؤهلهم لاحتكار فهم دين الله، ومن الذين وضعوا لهم مناهج هذا

"العلم" المزعوم[1] .. ومن حسنات ما تعانيه الأمة هذه الأيام فرز هذه الأصناف وانكشاف الأشرار منهم واحداً تلو الآخر.

وفي مواجهة صفاقة هؤلاء المدجَّنين علينا أن نؤكد مراراً وتكراراً أنه لن يعفى من المسؤولية من اتبع الآخرين في ضلال أو انحراف أو فهم خاطئ .. فقد منح الله لكل فرد وسائل كافية لتكون أدواته الخاصة في البحث والفهم والتحقق والتمييز ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ .

ومن واجب الشباب[2] وحق بعضهم على بعض توعية الغافل منهم، والتحذير من خبثاء هذه الفئة والمشاركة في إحباط مؤامرتهم .. كما أن من واجبهم الإكثار من التناصح والتواصل والتدارس فيما بينهم والدعوة إلى تحمُّل المسؤولية الفردية والتحذير من الاتباع الأعمى والتقليد والامتثال.

---

1 سنأتي على ذكر ما فعلته هذه الفئة من رجال الدين في فصل (التلاعب بالأسس) في الكتاب الثالث.

2 عندما يذكر الشباب فالمقصود بالطبع هم الجيل الشاب بذكوره وإناثه .. وكذلك الأمر بالنسبة إلى أي مفردة مذكرة كالمسلمين والمؤمنين .. وللأسف فإننا لم نتعود بعدُ على الموازنة بين التذكير والتأنيث في لغتنا .. ومن غير العملي التنويه إلى ذلك كل مرة.

الميثاق والشهادة

قالوا بلى

يخبرنا القرآن الكريم أن الإنسان يربطه مع الله تعالى ميثاق لا نعرف الكثير من تفصيلاته .. أخذ الله تعالى بموجبه عهداً من كل واحد من البشر قبل أن يخلقه أن لا يعبد غيره ولا يشرك به شيئاً .. ويفترض أن يفضي هذا الميثاق مشفوعاً بتدبر الإنسان وتفكره إلى إيمانه بالله تعالى وحمده وشكره وتسبيحه وتعظيمه وتحقيق جوهر منظومة دينه واتباع سبيله.

بل يستطيع الإنسان الوصول إلى ما يريده الله عز وجل منه من غير رسالة ولا وحي ولا رسل ولو ولد في بيئة مشركة او كافرة أو منعزلة أو شديدة الانحراف عن هذا السبيل .. ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ .

سمِّ ذلك ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ .. أو شيء ما في تكوين الإنسان وخلقته مما لا نعلم الكثير عنه .. أو بسبب ما فيه من روح الله ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ .. أو في ما يحمله في جيناته .. فهذا الذي سبق أن شهده الإنسان على نفسه يقوده – إن فكَّر – إلى الإيمان بربه وعبادته وحده.

ويظهر من فهم الآية الكريمة أنه لا يقبل من أحد من البشر أن ينكر هذه الشهادة **أو** يدعي أن ظروف حياته وبيئته لم تكن مواتية لوعيها .. ولا يمنع من تفعيلها إلا الجهل أو التكبر.

ومسائل مثل العدل والظلم والإصلاح والفساد والخير والشر يعرفها الإنسان بفطرته دون معلم، ولا يقبل من ظالم أو مجرم أو مفسد أن يدعي أنه لم يبلغ بأن ما قام به يعتبر عند الله شراً وينجو بفعلته .. وحتى الحيوانات بما فيها القطط والكلاب تعرف ذلك وتفهمه .. والقطة التي تقدِّم لها شيئاً من الطعام تأكله أمامك .. أما عندما تسرق شيئاً منه، تعرف أنها قامت بعمل خاطئ قد تعاقب عليه، فتغادر إلى حارة أخرى لتأكله بأمان.

ومع ذلك .. ولئلا تبقى لنا حجة، فقد أرسل الله عز وجل رسله محمَّلين برسالات لتأكيد المقومات والدعائم الأساسية لدينه وتوضيح معنى علاقة الإنسان السوية مع ربه التي تنعكس صلاحاً وعلاقة سليمة مع بقية خلقه ..

ولتوجيهه إلى الطريقة السليمة في ممارستها ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ .. وبيَّن الرسل هذه الرسالات وفصَّلوا فيها، ودعوا إلى أمور مساعدة أخرى تعزز هذه الدعائم وطبقوا مثالاً عملياً على الأرض في كيفية عيشها يوماً بيوم وموقفاً وراء موقف، إضافة إلى تفاصيل تحسِّن حياة الناس بما يناسب عصرهم وتصونها وتحفظ حق الفرد وحقوق غيره وتنظم علاقاته ومعاملاته مع أقرب الناس إليه وأبعدهم عنه وأكثرهم عداء له.

وأولويات دين الله يمكن فهمها بسهولة من كتاب الله، وهي التي شكلت محور دعوة الرسل والأنبياء، ولا تزال واضحة حتى في الكتب التي تم تحريفها .. وهي أن تكون علاقة الإنسان بربه علاقة الإيمان به والعبودية له وشكره وما يفضي إليه هذا الإيمان من استقامة في السلوك على جميع المستويات .. وأن تكون علاقته بغيره من الناس قائمة على العدل والمساواة .. ومع المحيط الذي يعيش فيه الإصلاح ووقف الفساد بكل أشكاله وأصنافه من هدر وإسراف وهدم وتدمير للبيئة .. ويمكن تلخيص هذه الأولويات في صفحة واحدة أو بضع سطور.

ولكن التفكر هو أهم مصدر ليعرف الإنسان ما يريده الله منه، وهو ما دعت إليه كتب الله ورسله .. وقد تكرر ذكر الحث على التفكر والعقل عشرات المرات في القرآن الكريم .. لأن التفكر هو الأب الشرعي الوحيد للإيمان الصحيح المتين الذي تكون له نتائج حسنة على أرض الواقع.

والدين الحق هو الذي نختاره بأنفسنا، ثم نمعن النظر في تفاصيله بعد تشغيل عقولنا والمراجعة القاسية لما كسبناه عن بيئتنا، وليس ذاك الذي يفرض علينا .. وعملية العقل والفهم والوعي وإعادة النظر مطلوبة بذاتها .. وقد تكرر في الكتاب الكريم أنه خطاب **لقوم يتفكرون** ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وأنه موجَّه لأولي الألباب ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ وأن الآيات المبثوثة في الكون هي لقوم يتفكرون ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ **و قوم يعقلون** ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ويستفيد من آيات الله في كتابه وكونه ذوي العقول ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ .. وطريق الإيمان الصحيح هو الإيمان القائم على التفكر الذاتي، والمعرفة الذاتية، والوعي الذاتي .. ولا يمكن أن يحصل من خلال تقليد السادة والكبراء .. بل إن الإصرار على إتباعهم هو بداية الانحراف عن هذا الطريق.

والتفكير وما يتبعه من إيمان هما شأنان شخصيان جداً .. ولا يمكن أن نقلِّد فيهما .. وما ينجبه تفكير الآخر – وإن كان صحيحاً – هو إيمان مزوَّر فيه قدر كبير من الإهانة لعقل الإنسان وكرامته .. بل إنهما أكثر المسائل شخصية .. والأمر شبيه بالأكل والشرب والنظافة .. فلا يمكن أن يأكل غيرنا ونشبع، أو يشرب غيرنا ونرتوي، أو يستحمَّ غيرنا فننظف .. لا بد أن نقوم بذلك بأنفسنا .. والسبيل الوحيد للقيام بهذه المهمة يكون عن طريق التفكر والمعرفة والاعتماد على الدليل والبرهان .. وهما يتطلبان مجاهدة ومعاناة شخصية.

يمكن للشعائر أن تورَّث وتكتسب من الأهل أو البيئة، وكذلك الطقوس والعادات والتقاليد والكثير من المعلومات وما يقوم عليه المسلمون من اتباع بعضهم البعض وانتسابهم إلى رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم أو ادعاؤهم ذلك على الأقل .. وقد يفضي ذلك إلى الانخراط في نشاطات محمودة والتخلق بأخلاق فاضلة .. أما الإيمان وما يفضي إليه من تقوى وعمل صالح فلا يمكن توريثه أو الاتباع فيه .. بل يحتاج إلى مجاهدة شخصية يسأل عنها ويتحمل مسؤوليته فيها كل فرد بنفسه.

لا بأس أن يسبقنا غيرنا ويبذل جهوداً ويفكر ويصل إلى نتيجة معينة قد تكون قريبة من الصواب أو بعيدة عنه .. وقد يسامحه الله ويجزيه ثواباً على ما قام به من محاولة ولو لم يكتشف طريق النور، فنطَّلع على ما فكر به ونقوِّمه ثم نأخذ عنه ما يقنعنا من آراء وأفكار ونترك ما لا يوافقنا .. ولكن عندما تروق لنا كل آرائه دون أي تغيير أو تطوير فعلينا أن نحذر ونشكك في حقيقة اختيارنا وسلامة طريقة مراجعتنا وتقويمنا ما لم نكن نعيش في عصر أحد الأنبياء والمرسلين.

فمن يفكر ثم يختار ديناً أو منهجاً في الحياة، وإن كان هذا الدين أو المنهج بنظرنا أو بنظر غيرنا أو حتى بمقياس الحق المطلق مغلوطاً أو منحرفاً فهو "إنسان" قد أخطأ طريق الصواب .. أما من لم يتوقف مرة واحدة ليستخدم عقله ليفكر ويعرف ويقوِّم ويختار معتقده فقد تخلى عن أهم مزايا الإنسان فيه وهي العقل والاختيار .. وفَقَدَ بتخلِّيه هذا جوهر إنسانيته.

وهذا هو حجر الأساس في المسألة .. فلا كرامة لإنسان بلغ رشده واستمر في تفويض غيره في كشف وتشكيل معتقده أو في التفكير نيابة عنه .. فالاعتماد على عقل الآخرين والتسليم لآرائهم دون تشغيل عقولنا لا يختلف عن الجهل والعمى .. وما الذي يبقى للإنسان إذا عطَّل أعز وأثمن ما يميزه عن بقية الكائنات وهو ما يملك من إرادة واختيار؟.

الهروب من الواجب

استرخاص الدين وقبوله معلَّباً جاهزاً

إن الله عز وجل يأمرنا ألا نتبع السابقين أو المعاصرين من سادتنا وكبرائنا .. ويطلب القرآن منا أن نراجع كل رأي من آرائهم وكل تفسير من تفاسيرهم وما اعتبروه حقاً كاملاً أو نهائياً أو معلوماً من الدين بالضرورة ونتساءل عن مدى صحته وموافقته لكتاب الله، وأن نتحمل في ذلك مسؤوليتنا ونشغِّل عقولنا ونمارس إنسانيتنا واختيارنا، ونسعى جاهدين لننقذ أنفسنا.

إن أحدنا إذا أراد أن يشتري سلعة غالية الثمن تراه يدقق بالتفاصيل قبل أن يدفع ثمنها .. فإذا أراد شراء شقة أو سيارة فإنه لا يرضى بتوكيل أحد لهذه المهمة، وقبل أن يدفع ثمنها أو يوقع عقد الشراء يطلب معاينة ما ينوي شراءه بنفسه، وتراه يقول: أريد أن أرى هذه الشقة بنفسي وأعاين إطلالتها .. ماذا عن حجم غرفها وبقية تفاصيلها؟ .. ماذا لو كان تصميمها لا يروق لي أو كانت لا تعجبني؟.

وهنا نتساءل: لماذا لا نثق بغيرنا في تجارتنا وأعمالنا واختيار أزواجنا؟ .. ولماذا لا نترك لغيرنا اختيار ملابسنا أو بقية أشيائنا؟، ولماذا نريد أن نعاين هذه الأشياء بأنفسنا في حين نريح أنفسنا ونترك لغيرنا اختيار طريقة فهم ديننا؟.

أليس لسان حالنا يقول سمعاً وطاعة عندما يقرر رجل الدين لنا معنى الإيمان والإسلام والتقوى والعمل الصالح فنلتزم بما يقوله دون تفكير أو إعادة نظر؟.

ولو أن رجل الدين ذاته قال للشخص السامع المطيع أنه قد وجد له سيارة، وأكد له أنها مناسبة له وطلب منه أن يشتريها ويدفع ثمنها .. ألا يصحو من غيبوبته وقتئذ ويغدو واعياً ولا يرضى إلا التأكد بنفسه مما يعرض عليه؟.

وعندما نرث ديننا عن آبائنا أو نأخذه عن المشايخ والفقهاء والأئمة ورجال الدين، وكل من هب ودب من الجاهلين والأميين الذين يلعبون دورهم بالتفكير نيابة عنا لمعرفة حقيقة دين الله، ويقدمونه لنا جاهزاً معلباً ثم نأخذه عنهم ونتبعهم فيما يقولونه من صغيره إلى كبيره دون اعتراض، فكيف يجب أن نصف أنفسنا؟ .. ألا نكون عندئذ كمن يتعامل مع الدين كسلعة أرخص من غرض من أغراضه الشخصية؟ .. وهل ما زال يحيرنا لماذا لا يعطي هذا الدين نتائجه في واقعنا، ولماذا لا يفعل الإيمان فعله فينا؟.

ومع توفر وسائل التعلم والبحث والفهم والتقويم، فلا يزال هناك من يرون عملية البحث عن حقيقة الدين مهمَّة قاسية .. وعندما يُذكر موضوع هذا البحث أمام أحدهم أو يُطرح تساؤل عن مهمته الأساسية في الحياة أو مضمون رسالة الله إليه يفاجئك بقوله: آسف .. ولكنني لا أقرأ إلا الكتب المتعلقة باختصاصي، ولا أهتم بغيرها .. أنا غير مستعد لقراءة أي كتاب إلا إذا كان عن الكمبيوتر والحوسبة أو الطب أو الهندسة .. أو تقول: أنا لا أقرأ إلا كتب الطبخ والموضة أو الروايات العالمية .. وقد لا تمانع إحداهن من تقبل كتاب كهدية إذا كان موضوعه الديكور أو الأزياء، وتصرف جل وقتها في ملاحقة أخبار فنانين ومطربين وتعرف تفاصيل حياتهم الخاصة وتترصد فضائح بعض الممثلات وكل حركة من حركاتهن، بل إن منهن من تصرف في حياتها وقتاً في ترتيب شعرها والإعتناء بأظافرها أكثر مما تصرفه في اهتمامها بتربية وصحة أولادها ناهيك عن آخرتها، ولم يعد بعض الشباب أقل سخفاً من هذه النماذج، بل تجد بينهم من هو أدهى من ذلك وأمرّ.

ألا نعرف أمثلة كثيرة عن هذه النماذج في مجتمعنا "الإسلامي"!؟ .

فهل تُقبل حجة هؤلاء "المؤمنين"؟ .. أليسوا هم من سماهم القرآن الكريم بالمعرضين، ويقعون في خانة من قال الله عز وجل عنهم: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾، وسيتحملون مسؤولية كبيرة على إعراضهم؟.

نعترف ولا ننكر أن هؤلاء الذين نتحدث عنهم لا يخلون ممن حققوا نجاحاً باهراً في حياتهم المهنية، فبعضهم يتقن مهنته ويعمل ليل نهار ويقدم خدماته الطبية أو الهندسية أو التجارية أو الزراعية أو الصناعية، ولا نستطيع أن ندعي أنهم غير مفيدين للمجتمع .. بل ربما قدموا ويقدمون خدمات أكثر منا.

ولكن .. هل عرف هؤلاء مهمتهم الحقيقية التي خلقهم الله عز وجل لتحقيقها؟ .. وهل كانت لهم رسالة يعملون على إنجازها؟ .. أم أنهم يبذلون جهودهم ويستثمرون نجاحاتهم لخدمة أنفسهم أو لتحقيق مصلحة عائلتهم الصغيرة من زوجة وأولاد، وفي أحسن الأحوال في خدمة عائلتهم الأوسع من أهل وأخوة وأقارب وعشيرة .. أما وضع أمتهم ودينهم ونجاح مشروع الله في مواجهة المشاريع المناوئة والمعادية، وما يجب عمله من أجل أبناء جلدتهم ومن ينتمون إلى دينهم، فذلك لا يعني لهم شيئاً .. بل كثيراً ما تصب خيراتهم ومساهماتهم في الطرف الآخر ليؤكدوا عدم تعصبهم!.

وهل أعطانا الله عز وجل هذا العقل لنستخدمه في معرفة وتأمين شؤون تخصصنا وحاجاتنا ولهونا، ونعطِّله حين يأتي الأمر إلى آخرتنا وغيرها من أمور ديننا فنتركها لغيرنا ليفكر فيها نيابة عنا؟ .. أم أعطانا إمكاناتنا لنسعى في تحقيق مصالحنا دون الاكتراث بمصير أمتنا فلا نقلق بشأن أوضاعها المزرية ولا نبحث عن سبيل للخروج من المأزق الذي نعيش فيه وتجاوز ما يقف في طريق نهضتنا من عقبات وعوائق؟.

وهناك على فراش الموت أو المرض القاتل هل نستطيع أن ندعي أننا قمنا بما كان علينا القيام به في هذه الحياة لأننا صرفنا ساعات أطول في جمع مال أكثر وتحقيق مصالح أكثر أو تقديم خدمات أكثر أو لأننا استهلكنا أكثر؟ .. وهل يود أحدنا أن تمضي حياته هكذا بلا رسالة ولا هدف ولا قيمة؟.

ترى أحدنا فيلسوفاً عند الحديث عن الاقتصاد والمال والسياسة .. وفينا من يحمل شهادات عالية وخبرة صقلتها السنون، أو عالماً عظيماً في الرياضيات والهندسة والطب .. ويقولون أن عقله يزن جبلاً في اختصاصه .. ويلقبون العشرات منهم بألقاب ضخمة من قبيل المحلل السياسي والخبير الاقتصادي أو المخطط العسكري والمفكر الاستراتيجي .. ولكنه عندما يأتيه من يذكِّره برسالة الله إلى الإنسان ومهمته الأساسية على هذه الأرض أو امتحانه أو واجبه في البحث عن حقيقة إيمانه والتأكد من صحة السبيل التي ترضي من خلقه ورزقه ووهبه مواهبه بما في ذلك عقله الماكر ولسانه السليط .. تجده يقول: يا أخي القرآن صعب وله مختصون ومفسرون، وليس لنا فهمه إلا عن طريقهم، وما شأننا بالكون والخلق وآيات الله فيه مما هو من عمل المتخصصين؟ .. فهل هذا هو ما أوصلتك إليه خبرتك وشهاداتك العليا وتحليلك وتفكيرك الاستراتيجي؟ .. أم أن القرآن هو رسالة الله الواضحة إليك، والكون ماثل أمامك كما هو أمام الباحثين الملحدين ومن تسميهم فاسقين وكافرين.

وهناك صنف آخر يعلنون حرصهم على رضا الله تعالى، ولكنهم في الواقع العملي لا يتحملون مسؤوليتهم في تحقيق ذلك .. ويسلكون طريق التقليد الأسهل وتجدهم يقولون: ألا يكفي الذي نعرفه مما وصلنا؟، وهل يمكن لنا أن نفهم أكثر من ذلك؟ .. إن مشاغلنا كثيرة ولا وقت لدينا للبحث، وقد بحث غيرنا واجتهدوا وصار الدين واضحاً بفضلهم "جزاهم الله عنا خيراً " وليس لنا أن نعرف ما لم يعرفونه، ويكفينا أن نقلِّدهم .. فلماذا نضيع وقتنا في محاولة فهم المزيد طالما أنهم على حق؟ .. فلنتبعهم ونريح ونرتاح.

ثم يا أخي لماذا لا تدعنا وشأننا؟ .. نحن والحمد لله مرتاحون ومطمئنون وواثقون بصحة الدين الذي نحمله ونتبعه .. ألا يكفي أننا والحمد لله نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ونحب محمداً وأصحاب محمد وآل محمد ونصلي ونصوم ونزكي ونحج .. أليس هذا ما يجمع بين الإيمان والإسلام .. أليس هذا ما يقوله المشايخ ورجال الدين؟ .. وما المطلوب منا أكثر من ذلك؟ .. وهل يعقل أن يكونوا جميعهم على خطأ وحضرتك وأمثالك على صواب؟ .. أم تريدون أن نغير ديننا حتى ترضوا وترتاحوا؟.

ولكن ..

ماذا لو لم يكن من نتبعهم على صواب؟ .. بل ماذا لو كانوا في ضلال مبين وظلام حالك؟.

أم ماذا لو كان بعض من نُطلق عليهم ألقابَ الأئمة والعلماء والمفسرين والفقهاء وحجج الإسلام وآيات الله على خطأ وانحراف؟ .. هل نجازف بآخرتنا ونقامر بمصيرنا ونتحمل عواقب خطيرة قد تصل إلى الخلود في النار نتيجة

إحجامنا عن تشغيل عقولنا فيما نقلوه إلينا والتحقق من صحة فهمهم؟ .. أليس الله تعالى يحذرنا من الوقوع في خطيئة اتباع الآخرين ومن ثم تحميلهم مسؤولية ضلالنا؟.

وها أنت وقد قررت مصير دنياك وآخرتك بناء على ما اختاره لك رجل الدين في قريتك أو حارتك .. فأين هو عقلك وروح الله وقدرته فيك؟ .. أين إرادتك واختيارك؟ .. أين رسالتك وأمل الله فيك واستجابتك لخطابه الموجه مباشرة إليك؟.

ماذا ستقول لله عز وجل إذا سألك: أعطيتك عقلاً وسمعاً وبصراً .. ونفخت فيك من روحي .. علمتك ما لم تكن تعلم .. ومنحتك إرادة حرة وقدرة كاملة على الاختيار لم أمنحها لأي كائن آخر من خلقي .. ثم أرسلت لك رسلي .. وحفظت لك كتاباً مبيناً وضَّحت لك فيه تفصيل كل شيء يخص مهمتك وامتحانك في هذه الحياة .. وها هو الكون أمامك بما فيه من آيات لتتفكر فيه وتتعرف عليه .. فلم لم تشغِّل عقلك فتعرف الطريق؟، وما حجتك حتى ضللت الطريق؟.

لا تفويض ولا وصاية

أم ماذا كنتم تعملون؟

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ
حَتَّى إِذَا جَاؤُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا
أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

لم يهبنا الله تبارك وتعالى العقل والسمع والبصر لنتركها جانباً دون تفعيل .. ولا لنستخدمها في التعرف على كل شيء عدا التعرف عليه .. ولم يخلق لنا هذا الكون لنسخِّر ما نصل إليه في منفعتنا واستهلاكنا ثم ننسى ما يريده عز وجل منا ونتجاهل معرفة رسالته إلينا .. ولم يمنحنا النعم لنضعها في خدمة أنفسنا وتلبية حاجاتنا وشهواتنا ورغباتنا ولا نفكر فنفهم حقيقية مهمتنا في هذه الحياة.

ولكن هذا ما يحصل في الواقع فعلاً .. ومعظم البشر لا يستخدمون عقولهم حتى في طاقاتها الدنيا .. ويصل أحدهم إلى سنِّ الكهولة أو الشيخوخة وقد تحجر دماغه من قلة استخدامه، بينما يكون قد استنفد بالكامل باقي طاقات جسده ولا سيما جهازي الهضم والتناسل .. والقلة القليلة من الناس هم الذين يشغلون عقولهم بطاقتها المقبولة، ومعظم هذه القلة يستثمرون هذه الطاقة في الإبداع في جمع المنافع المادية وفي تحقيق مصالحهم العاجلة والأنانية والاستمتاع في استهلاك خيرات الله والانتفاع منها والإسراف فيها وهدرها.

وبماذا يختلف موقف المؤمنين الذين يأخذون فهم دينهم بالتقليد دون مراجعة أو تقويم أو تفكر عن أولئك الذين لم يفكروا مرة في خالقهم ويوم لقائه؟.

هل يختلف كثيراً عن أولئك الذين يسطِّر لنا القرآن الكريم موقفهم في ذلك المشهد الذي يحرج أفواجاً من غير المؤمنين تماماً كما يحرج الكثيرين من أدعياء الإيمان المكذبين عندما يُسألون: ﴿أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ؟ .. وكأنما يقول لهم: لقد عشتم مذ أن اشتد عودكم خمسين أو ستين أو سبعين سنة .. فكيف قضيتموها؟ .. وماذا كنتم تفعلون فيها؟ .. ألم يتح لكم فيها كلها وقت لتتفكروا، أم تذكرتم كل شيء إلا ربَّكم؟

.. أحرصتم عن المنفعة فيما يخص دنياكم ونسيتم آخرتكم؟ .. ألم أُيسّر لكم الفهم بإرسال رسلي؟، أم أنكم لم تسمعوا بهم أيضاً؟ .. وهل تساءلتم إذا كان ما جاؤوا به حقاً؟ .. وقد حمَّلت هؤلاء الرسل كتباً ورسائل إليكم، فهل ألقيتم نظرة عليها أو كرَّستم ولو أياماً قليلة تبحثون فيما تدعو إليه؟ .. أم اكتفيتم بما فهمه الآخرون نيابة عنكم؟ .. أم كانت التجارة والصناعة والسياسة كل همِّكم ومبلغ علمكم؟ .. وأين استخدمتم الطاقات التي وهبتها لكم؟ .. أفي جمع المال والتفاخر فيه وأكل التراث وإنفاقه؟ .. أم في السعي خلف الشهرة ورضا الناس وتملُّقهم ومجاراة زيفهم ولهوهم ونفاقهم؟.

ماذا عن الرب الذي خلقكم وصوَّركم ورزقكم وهيأ لكم الأرض بكل ما فيها؟ .. ألم يكن لديكم وقت لتفكروا فيما حولكم من آياته ونعمه وإتقانه في خلقه؟.

وهل هناك جواب على مثل هذا السؤال في مثل هذا الموقف؟ .. ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنطِقُونَ﴾ . وماذا لديهم من حجة يحاجُّون بها؟ .. هل سيقولون: لم يكن لدينا وقت لنقرأ ونفهم ونفكر ونعرف؟ .. أم يحتجون بأنه لم تكن لديهم وسائل وقدرات السير في الأرض والبحث عن حقيقة وجودهم ورسالتهم؟ .. وماذا عن الآيات المتاحة للجميع في كل زمان ومكان؟.

إن في الكون الفسيح آيات كبيرة وعظيمة .. وهناك آيات كشف عنها العلم مؤخراً وقد حاول فهم وشرح ما حصل ويحصل في النجوم والمجرات البعيدة كخلق الكون وإعجاز الثوابت الكونية ونشأة المجرات والنجوم والشمس والأرض والقمر وتطور الأحياء ووجود الإنسان .. وقد لا يكون بإمكان جميع الناس استيعابها رغم محاولة العلماء والمختصين شرحها[1] .. ولكن هناك آيات بسيطة تتكرر كل يوم على مرأى من جميع البشر .. الشمس ونورها .. والقمر وضياؤه .. والأرض بما فيها مما يدهش العقول ويحير الألباب .. ونعم لا تعد ولا تحصى.

وآية تعاقب الليل والنهار وحدها (لو تفكرتم بها) لاكتشفتم فيها آيات كافية لتؤمنوا بالله وتستسلموا لمشيئته﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ .. ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ .

1 يتوفر اليوم على الإنترنت معلومات لا حدود لها عن هذه الآيات العظيمة، كما يتوفر على يوتيوب أفلام رائعة تشرح بأسلوب بسيط وواضح ومفهوم للجميع كل هذه البراهين على قدرة الخالق وعظمته وعلمه .. وستكون التجربة أغنى وأمتع لمن يتقن اللغة الإنكليزية وبشكل خاص لمن عنده قاعدة علمية بسيطة .. ويكفي القارئ وضع كلمات بسيطة للبحث .. وليجرب من الشباب من لم يجرب بعد البحث مثلاً في الثوابت الكونية (Cosmic constants) ويرى عجائب الله جل جلاله في خلقه.

وما لم تشتغلوا في عمل مهم كالتفكر في هذه الآيات التي تشهد على عظمة الله وقدرته .. فما الذي كنتم تفعلونه إذن؟.

إن الإنسان الذي يعيش لحياته الدنيا .. مهما كانت حياته فاضلة .. ويقضيها معرضاً عن آيات الله لا يفكر فيها و**لا يرجو لقاء الله** سبحانه أو يستعد لهذا اليوم هو إنسان خاسر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ .

والذي يكفر بهذه الآيات والنعم أو يكذب بها أو يتجاهلها ويغفل عن التفكر فيها والتعرف عليها ولا يتساءل عمن أبدعها وسخرها بحجة أنه مشغول في تحقيق متطلبات حياته العاجلة هو إنسان لم ينجز شيئاً من رسالته .. وسيسقط في امتحانه سقوطاً شنيعاً.

فهو ليس فاشلاً في امتحانه فحسب .. فالفاشل هو من فكر في حقيقة المصير الذي ينتظره وعرف ما يريد منه ربه، ولكنه كان ضعيف الإرادة في إرضاء هذا الرب العظيم ليقرر بعمله المكانة التي يتبوأها في آخرته ويحدد ذلك المصير .. أما من لم يستخدم عقله ليفكر فيتعرف على خالقه ويبحث لماذا خلقه ورزقه وأنعم عليه ولم يهتم لما أراده منه تعالى في رسالته إليه، أو لم يمحص فيما نقله إليه غيره من البشر عن هذه الرسالة وتبين صحته من خطئه فهو لم يدخل الامتحان أصلاً.

ومهما كان الدين أخذناه عن هؤلاء المتخصصين، فلن نحقق إنسانيتنا ما لم نعد النظر فيه، ونختار ما يوافق العقل السليم.
صحيح أنه قد يكون فيما تعلمناه من رجل الدين شيء من الحق، أو يكون على جانب كبير من الصواب .. ولكن يمكن أيضاً أن يكون فيه جانب كبير من التحريف والجهل والضلال، كما يمكن أن يكون الحق في بعض المسائل في جانب آخر أو رأي مختلف أو وجهة نظر أخرى.

فالإنسان السوي يحترم نفسه ويعرف قدره عند الله ولا يرضى أن يعتمد في فكره واعتقاده على التقليد والاتباع .. فلا ينسخ دينه من غيره، ولا يرضى أن يفوِّض من يقوم بالفهم نيابة عنه .. بل يسعى إلى بناء إيمانه وتنميته بنفسه وبجهده .. يستمع إلى الجميع، ثم يختار الأحسن والأهدى.

وكما علينا ألا نفوِّض غيرنا في مسألة إيماننا ومعرفة طريق نجاتنا، فإن علينا أيضاً ألا نسمح لأحد بفرض رأيه ووصايته علينا في هذه المسألة .. لأن من يريد أن يملي علينا طريقة حياتنا دون استشارتنا بحجة التخصص وبدعوى أن هذه الأمور لا يمكن فهمها ولا يسمح بالتطرق إليها إلا من قبل حاملي الشهادات والمتخرجين على أيدي الآبائيين التقليديين، فإنما يحاول أن ينزع عنا شيئاً من كرامتنا .. فإذا سمحنا له ليفكر عنا ثم أخذنا عنه دون تقويم ولا إعادة نظر، فكأنما نتنازل له عن شيء من كرامتنا وإنسانيتنا.

الفصل الخامس: التحرر من الآبائية

الاعتقاد الموروث وعدالة الله في خلقه

في جلسة حوار مع مجموعة من الأصدقاء لا أتذكر اليوم المواضيع التي نوقشت فيها، رفع أحدهم يديه إلى السماء شاكراً الله حامداً إياه تعالى على نعمة الإسلام .. ثم توجَّه إلى الحاضرين قائلاً: كم هي نعمة كبيرة ومنَّة منه عز وجل أن ولدنا في عائلات مسلمة على منهج القرآن والسنة .. وكم كانت مصيبتنا كبيرة لو ولدنا في عائلة مسيحية أو شيعية أو يهودية أو بوذية .. وكم كان صعباً أن نخرج من هذه المعتقدات المنحرفة ونصل إلى الحق الذي نحن عليه الآن .. وردد الجميع خلفه: إي والله .. الحمد لله على هذه النعمة.

وفي طريق عودتي إلى المنزل قلت في نفسي: حقاً؟! .. وماذا لو كنت قد ولدت في عائلة تحمل ديناً آخر أو مذهباً آخر؟ .. وماذا عن الذين ولدوا في تلك العائلات؟ .. ألا يرددون الحمد والشكر لله أنهم ولدوا على ذلك المذهب الحق والدين الحق؟ .. ألا يعتقدون أيضاً أنه عز وجل قد أنعم عليهم فلم يولدوا في بيئة ضالة منحرفة كبيئتنا؟ .. أليسوا يتسامرون مثلنا قائلين كما قال صاحبنا كم كان صعباً عليهم أن يخرجوا منها ويصلوا إلى الحق الذي هم عليه اليوم؟.

وعندما يدور حديث بين المسلمين سواء كانوا أم لم يكونوا ملتزمين بتعاليم دينهم، فإن ما يجمعون عليه في حديثهم – عدا قليل منهم – أن دين المسلمين هو الدين الحق، وأن بقية الأديان هي أديان باطلة ستقود أصحابها إلى النار .. ويستشهدون على ذلك بآيات من قبيل ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ﴾ .. ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ .

وبعد أن يتم إخراج غير المسلمين من الجنة، فإن المنتمين منهم إلى فرق محددة سيستثنون الطوائف والفرق الإسلامية الأخرى زاعمين أنهم الفرقة الوحيدة الناجية المقصودة فيما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**تفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة اثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**".

وأذكر أنه في معرض شرح هذا الحديث بالذات من قبل شاب تطوع لإرشاد مجموعتنا من المراهقين وتوجيهنا إلى طريق "الحق الصحيح" أن أحدنا سأله عمن يمكن اعتبارهم من هذه الفرقة الناجية من بين المجموعات التي نعرفها في ذلك الوقت .. فقال دون تردد: نحن .. أي مجموعتنا فقط .. ولم نكن يومها نتجاوز العشرين فرداً .. فأشعرنا بكثير من الزهو والاعتزاز.

وعندما استغرب مراهق آخر وأراد معرفة حال مجموعة كنا نعتبر فهمها وسلوكها قريب جداً من أفكارنا وطقوسنا .. سيما أنهم يتبعون القرآن والسنة وينبذون البدع .. بل كانوا زيادة على ما كنا عليه يطلقون لحاهم ويهتمون بكثير من التفاصيل التي لم نكن نلتزم بها .. أجاب أنه يرجو الله لهم الجنة، ولكنه غير متأكد من ذلك!!.

قد يسخر القارئ من هذه السذاجة .. ولكنه إذا عرف أنها لم تكن في حقيقتها إلا انعكاساً لصراع شرس يعتبر أبطاله رأس الهرم من مفكري الأمة وعلمائها، وسمع بما دار فعلاً في تلك الفترة، ومحتوى ما كتب حول بدعة التعصب للمذاهب مقابل ما كتب عن اللامذهبية وخطورتها، فلن يعتب على ناشئين مقلدين مثلنا.

وشيئاً فشيئاً، ومع تقدم معرفتي واطلاعي اكتشفت أن هذا ما يحصل في كل دين ومذهب وعلى مستوى الفرق والطرق .. ويمكن أن نلاحظه عند جميع أتباع الأديان والطوائف تقريباً .. الكل يشكرون ربهم الذي هداهم إلى الحق دون غيرهم من الناس ممن ضلوا عن طريق الحق والصواب .. فيدينون مواقفهم أو يرثون لحالهم ويشفقون عليهم .. وهم في أحسن الأحوال يشعرون بالأسى والأسف تجاههم .. أو يتمنون الخير لهؤلاء الضائعين في أن يهتدوا إلى دينهم الحق وعقيدتهم الصحيحة التي لا تشوبها شائبة، وربما يحاولون تبشيرهم وهدايتهم إليها.

الاطمئنان الخادع

لا قيمة لليقين والثقة من غير مراجعة

إن اليقين والثقة بصحة وسلامة المعتقد الموروث والاطمئنان إلى ذلك ليست أدلة على صحته .. ومع أنها تتراوح في شدتها بين أتباع عقيدة وأخرى إلا أنها موجودة بدرجة أو أخرى عند كل أصحاب العقائد .. من المسيحية إلى البوذية .. من الإسلام إلى الهندوسية .. وصولاً إلى ديانة أبعد قبيلة تقطن في مجاهل الغابات أو الصحارى أو الجزر المنعزلة.

ونادراً ما يتوقف أحدهم ليسأل نفسه: هل ما أنا عليه هو ما يريده الله ويرضى عنه حقاً؟ .. هل هو ما يجعلني ناجحاً في حياتي ناجياً في آخرتي؟.

سيقول أغلب الناس: طبعاً نحن أصحاب الحق، ونؤكد لك أن إيماننا هو الإيمان الحق .. ونحن على يقين لا شك فيه أن ديننا هو الدين الصحيح وأن طريقتنا هي الطريقة السليمة والقويمة، وأن ما يخالفنا هو الضلال المبين .. وإذا ذهبت إلى الأغلبية نفسها من أهل "الضلال المبين" .. فسيؤكدون لك أن إيمانهم شديد ويقينهم أكيد أنهم هم أصحاب الحق، وأن أولئك الذين يتهمونهم بالكفر والشرك هم الكفار والمشركون وسيدخلون النار ما لم يتبنوا إيمانهم واعتقادهم وطريقتهم المثلى.

ومن نتحدث عنهم ليسوا مخلوقات تعيش في كواكب أخرى .. بل هم الناس الذين نعيش بينهم ونتعامل معهم كل يوم .. فأصحاب كل عقيدة أو مذهب يطمئنون عادة لعقيدتهم ومذهبهم ويوقنون أنهم على حق ولو كانوا يعبدون قطعة حجر أو جذع شجرة .. بل عادة ما يكون أصحاب المعتقد الأكثر خرافة وجهالة والأشد حمقاً وسخفاً وضلالاً هم الأشد يقيناً بصحة معتقدهم واطمئناناً لتفاصيله .. ولو كان ارتياح النفوس للمنهج الذي تتبعه أو الشعور باليقين والاطمئنان إليه كافياً ليكون دليلاً على صحة المنهج الموروث لكانت المعتقدات على اختلافها على درجة واحدة من السلامة والاستقامة .. بل لصارت أكثرها سفاهة هي الأقرب إلى الصواب.

ولما كان الجميع يدَّعون أنهم على السبيل القويم .. فلا بد أن يكون الدليل على صحة الاعتقاد وسلامة العمل شيء آخر غير اليقين وغير الشعور بالارتياح .. وعلينا أن نجد مقياساً آخر نقيس به صحة أفكارنا وأعمالنا وطريقة حياتنا.

كما أننا لو نظرنا في درجة تعلم وثقافة هؤلاء المطمئنين لوجدنا أن منهم من يحملون أعلى درجات التعلم والاطلاع وفيهم الطبيب والمهندس وأستاذ الجامعة وحامل شهادة الدكتوراه في علم الاجتماع أو التاريخ أو الأديان أو الفلسفة .. ولكن غزارة علمهم لم يكن وحده ليسعفهم على تغيير موروثهم .. فلا تخلو كنيسة أو مسجد أو مرقد أو حسينية من حاملي شهادات عليا في مختلف العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية والاجتماعية.

وفي أثناء رحلة طويلة تم تنظيمها لنا على هامش مؤتمر عن مكافحة التصحر عقد في أولان باتور عاصمة منغوليا عام 2002 قضينا ليلة كاملة مسافرين على متن القطار إلى صحراء (غوبي) على الحدود المنغولية الصينية .. وفي المقصورة المجاورة لي كان ينزل عالم شهير ذو منصب رفيع في الأمم المتحدة من دولة توغو الأفريقية لا تملك إلا أن تنصت إليه عندما يتحدث في شؤون علوم التصحر ومكافحته على مستوى العالم.

ومع طلوع الفجر سمعت همهمة أمام باب غرفتي، فخرجت إلى الممر لأراه واقفاً على نافذة القطار ممسكاً بتمثالين مصنوعين من الخشب على هيئة إنسان ومنهمكاً بالهمهمة بالصلاة والتلاوة بخشوع شديد لما يقرب من نصف ساعة.

وجلست أتساءل في تلك الساعة: كيف يمكن لرجل بهذا العقل والفهم والاطلاع أن يواظب على اتخاذ هذين الصنمين معبوداً له أو وسيلة للتقرب إلى معبوده بعد كل الذي حصَّله من العلم الذي سمعناه منه وعالمية خبرته؟ .. وكم يمكن لعقل الإنسان أن يضلَّله فيضيع في آبائيته مهما كان حاذقاً وذكياً .. أو عالماً ومثقفاً ومجرباً؟ .. وكيف تعجز الشهادات العليا في كشف زيف الانحراف في تفكير أمثاله من ذوي الكفاءات المشهودة؟.

إنه انحراف من وجهة نظرنا على أي حال .. وربما يرى الآخرون فينا ما نراه فيهم .. بل لا شك أنهم يرون ذلك .. واسألوا مسلماً من أي فئة أو مذهب أو طريقة عن رأيه بالحق والطريق الصواب .. اسألوا مسيحياً أو هندوسياً .. زراداشتياً أو أزيدياً .. من جماعة السيخ أو من جماعة المارمون .. ألا يعتقد كل منهم أن أتباع دينه هم من يملكون الحق دون غيرهم، وهم من سيكونون الناجين دون غيرهم ممن يشفق عليهم؟ .. وربما يدعو لهم بالهداية إلى الطريق القويم، طريق الحق والخير، ويتخلوا عما يعيشون فيه من ضلال يخالف دينه ومعتقده .. وفي حالات أخرى قد يحقد عليهم ويلعنهم ويدعو الله أن يدمرهم ويخلصه منهم.

وإذا كان منفتحاً على الآخر أو دبلوماسياً في كلامه، فقد تسمع منه أن الآخرين عندهم شيء من الحق، ولكنه ليس كالحق الذي يحمله هو وجماعته.

لقد تعرَّفت على كثير من هؤلاء وخالطتهم وعشت بينهم .. وعندما يحبك أحدهم من قلبه ويود أن يقدم لك أثمن هدية، فإنه سيحاول أن يهديك إلى الحق الذي هو دينه ومذهبه.

فأين هو الدين الحق؟.

لا يهم في هذا المقام الجواب الذي سنجيب به على هذا السؤال .. ولكن المهم هو ألا يكون الجواب متسرعاً ويقينياً وحاسماً دون أي تفكير.

وإذا كنا نحن المسلمون لا نختلف عن معظم البشر في اتباع الآباء وتقليدهم، وندعي نفس اليقين بصواب معتقدنا، تماماً كما يفعل الآخرون .. فهل تكفي ثقتنا فيما نعتقد به أو شدة إيماننا وقوة اقتناعنا به أو مستوى تعلمنا واطلاعنا كضمانة تحول دون الانحراف في تفكيرنا؟.

وكيف نعرف أننا على حق فعلاً ؟ .. وما هي المؤشرات التي تدل على أننا نجدُّ في السير الحثيث على طريق الصواب أو على أقل تقدير نسير في بدايته أو في درب قريبة منه؟.

وإذا كان ديننا ومذهبنا الذي ورثناه هو فعلاً الدين الأقرب إلى دين الله، فكيف نعرف أننا على أعتاب النور ومشارف الصراط المستقيم ولسنا في إحدى المسارات الملتوية التائهة التي ظن من قضوا أعمارهم فيها أنهم على حق دون أن يكونوا كذلك، وأننا لسنا في تلك السبل التي ضيَّعت من سلكوها؟.

كيف نعرف أننا لم نقع فيما وقع فيه غيرنا؟ .. وهل من مقياس نقيس به مقدار نجاتنا من آبائيتنا؟ .. وكيف نتأكد أننا لسنا من تنطبق عليهم الآية الكريمة ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالا . . الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾؟ .. وهل من مؤشرات تبين لنا ذلك؟.

إن للعائلة في تكوين معتقد الإنسان دور جلي وكبير وخطير .. ودين وعقيدة الناس وما يؤمنون به في أنحاء العالم في هذا العصر وفي كل عصر- باستثناء عدد قليل منهم – هو دين مفروض تم تلقينه لهم بتفصيلاته عندما كانوا عديمي الحيلة لا حول لهم ولا قوة ليدوروا في مدار ثابت من صنع آبائهم فلا يحيدوا عنه أبداً .. لأنهم لن يكونوا مفيدين لهذه العائلة أو القبيلة ما لم يختاروا دينها ومذهبها.

إنه دين استغلت فيه العائلة والمدرسة ومكان العبادة طفولتنا البريئة وضعفنا وحاجتنا للانتماء ولمن يؤوينا ويعيلنا، فلم يتركوا فرصة للتآمر علينا قبل بلوغنا إلا واغتنموها .. وربما فعلوا ذلك بإخلاص ومحبة لنا .. ولكن النتيجة السيئة لحسن نواياهم أنهم وضعونا في قوالب محددة لا نستطيع في مرحلة الشباب والوعي والاستقلال أن نخرج منها ولا نريد أن نخرج عليها، ولا نخذلها .. فيشتد عودنا لنكون مستعدين للدفاع حتى الموت عنها.

وعندما يأتي دورنا كآباء نصبح جزءاً من هذه المؤامرة وعضواً فاعلاً فيها، ولا نسأم من التأكد من التزام أبنائنا بكل صغيرة وكبيرة مما نورثه لهم من شعائر .. بل نحرص على التزامهم بطريقة عيشنا، وعادات آبائنا وتقاليدهم .. وألا يخلعوا بذلة السجن التي تميزهم عن غيرهم من أديان وطوائف.

وهناك آلاف الأديان والمعتقدات في العالم .. وأتباع كل دين وطائفة يريدون من القادمين الجدد أن يتَّبعوا تمام ملَّتهم وطريقتهم ويبدعون ببراءة في طريقة إظهار انتمائهم.

وهذا ينطبق على المسلم كما ينطبق على المسيحي واليهودي والبوذي والهندوسي .. وسواء اعترفوا بذلك أو أنكروه، فإن لسان حال كل منهم يقول: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [1] .

فإذا كان الأبوان مسيحيين مثلاً .. فإن كل أفراد العائلة وأصدقاؤهم وجيرانهم من المسيحيين والكثيرين من الناس الذين يصادفونهم من حولهم يؤكدون لهم صباح مساء صحة ما يتردد في البيت على أسماعهم .. وأن الحق الذي لا شك فيه أن المسيح هو الرب أو أنه ابن الرب الذي صلب ليتحمل أخطاء البشر .. وأن عليهم لينجوا أن يؤمنوا به مخلصاً (من آمن بي وإن مات فسيحيا) .. إلى آخر التعاليم الموروثة .. فإن غاب عنهم شيء منها فستتكفل به المدرسة التي اختارها الأبوان بعناية، لتساعدهم في تكريس ما تبقى من المعتقدات في قلوبهم وعقولهم.

وعادة ما تكون المؤامرة متكاملة ومحبوكة، فلا تبقي للأولاد أي خيار .. فالإنسان يولد كصفحة بيضاء خالية من أي اعتقاد أو قناعة، فلا يكاد يتجاوز مرحلة طفولته أو مراهقته إلا وقد جعلوا منه سنياً أو شيعياً .. كاثوليكياً أو بروتستانتياً .. يهودياً أو بوذياً أو هندوسياً .. علمانياً أو ماركسياً .. والقائمة طويلة .. ويلقنونه ما آمنوا به من أفكار فتغدو غير قابلة عنده للنقد أو الشك أو النقاش.

ومن السهل اتهام من لا يتمردون على آبائهم فلا يكسرون القوالب التي سكبوهم فيها .. ومن السهل الطلب إليهم مراجعة ما لم تسمح لهم تنشئتهم بالتشكيك فيه أو حثّهم على خلع ما أرغموا على ارتدائه .. ولكن عملية الخروج على الأفكار والعادات ليست مهمة سهلة على الإطلاق .. فهناك ضغط اجتماعي كبير لا يستطيع كل إنسان تحمُّله، وثمن باهظ يدفعه من يحاول الخروج على آبائه ولا يمكن للشباب عادة دفعه.

والمحافظة على رضا الناس كان ولا يزال مشروطاً باستمرار هؤلاء الشباب في تمسُّكهم بمعتقدهم ودين عشيرتهم وملتهم وطائفتهم وبقائهم على الهيئة التي أريدت لهم .. وتتوقف علاقات كل منهم وحب ناسه له وصداقاته ودراسته وعمله على ما يحمله من عقيدته الموروثة ومقدار تعصُّبه لها وذمِّ غيرها .. والويل كل الويل له إذا حاول أن يخرج عن هذا المدار أو يخالفه .. فالاتهامات جاهزة .. فاسق، كافر، جاهل، زنديق، عميل، خائن، مرتد .. والعقوبات قاسية غير محتملة .. مقاطعة، وتهديد بالمصالح والعائلة والصداقات والانتماء .. وقد تصل إلى القتل.

1 أليس من العجيب أيضاً أن غالبية أبناء الملحدين في البيئة العربية الإسلامية يصبحون ملحدين وشيوعيين؟! .. وهم مقتنعون أنهم وصلوا إلى ذلك عن طريق العلم أيضاً !.

ومن جهة أخرى، فهناك جاذبية كبيرة للأفكار التي يكتسبها الناس في سنِّهم الغض الطري .. وكلنا ندافع بشراسة عن بذلة السجن التي ألبسها لنا أولئك الذين ولدنا في بيوتهم .. ونرتاح للبقاء في الحفرة المظلمة التي تآمر ليسقطنا فيها أحب الناس إلى قلوبنا .. حفرة تعوَّدنا عليها وتكيَّفنا فيها، ولا نحب الخروج منها بل نزيد فيها حَفراً .. ثم نريد لأبنائنا أن ينشئوا كما نحب لهم، وهو الاستمرار على ما ورثناه عمن قبلنا .. معتقدين أن هذا ما يريده الله ويحقق نجاحهم في الدنيا وفوزهم في الآخرة.

ثم إن هناك إغراء الاستسهال الذي عادة ما يحبط محاولات المراجعة في بداياتها ويتسبب بانتكاسها .. فطالما كان الأسهل هو مسايرة الأسرة أو البيئة أو المجتمع لنحظى برضاهم ومنافعهم، فلم البحث عن المتاعب والتورط في خطر النبذ والحرمان؟.

ونادرون هم أصحاب العزائم القوية القادرة على التغلب على هوى النفس والتضحية بالمصالح العاجلة والتخلي عن المكاسب والمزايا التي توفرها البيئة المحيطة .. وقليلون هم الذين يتمكنون بجهودهم من تحطيم القيود التي تكبل تفكيرهم والتخلص من سجن آبائهم وهيمنة آراء مجتمعهم التي نشؤوا يقلدونها ويلتزمون بها.

والخروج على الآباء مطلوب في كل جيل وعصر مهما كانت العقيدة سليمة في أصلها .. مهما شعرنا أننا نبالغ في القيام بهذه المراجعة، فنحن لا نزال في أول الطريق .. لأن الكثير من الأفكار المغلوطة تتراكم مع مرور الزمن مما يستوجب التخلص منها والعودة إلى الاعتقاد السليم .. ومهما اعتقدنا بصحة الدين الذي يحمله آباؤنا، فلا بد من المراجعة .. لأن لكل عصر فهمه الأقوم والأهدى لدين الله، ولأن العقل البشري ينضج باستمرار بتراكم المعرفة والخبرات .. وكيف نقلد آباءنا وأجدادنا دون معرفة ولا تفكر ولا مراجعة ولا وعي ثم نفترض الصحة والسلامة في إيماننا؟ .. وكيف لنا أن نعرف ما هو الفهم الأهدى لمجتمعنا وعصرنا ما لم نتخلص من ضغط الأنماط السائدة من التفسير والتفكير، ونعيد النظر في المسلمات بدلاً من تقديسها؟.

إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ .. أفلا يمكن مثلاً أن نفهم هذه الآية بدلالة آيات أخرى أنها تحضُّ على التفكر وتحذر من الآبائية كما يلي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ (بالوراثة) ﴿وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ﴾ (بالوراثة أيضاً) .. ﴿مَنْ آمَنَ﴾ (من كل هؤلاء) ﴿بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ (بالتفكر والمعرفة) .. ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ (أي أفضى إيمانه إلى أن يعمل صالحاً) .. ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ .. فالإيمان الحقيقي بالله واليوم الآخر الذي يفضي إلى عبودية صحيحة لله وعمل صالح وابتعاد عن أشكال الظلم والفساد لا يتحقق عادة عن طريق الوراثة، بل عن طريق المعاناة وبذل الجهود .. وهو باب مفتوح لجميع من ذكرتهم الآية الكريمة، وبالدرجة التي يبذلون جهودهم في الوصول إلى طريق السلامة.

أو يمكن كما يبدو فهم هذه الآية مثلاً كما يلي: لا يختلف مَن وُلد في عائلة أو بيئة مسلمة فأصبح مسلماً عمَّن ولد في بيئة يهودية أو مسيحية أو صابئة فصار يهودياً أو نصرانياً أو صابئاً أو ولد في بيئة مجوسية فصار مجوسياً أو في عائلة بوذية فأصبح بوذياً طالما كان يتبع منهج وتعاليم عائلته فيما تؤمن به دون أدنى تفكير أو تقويم أو مراجعة، فالكل يعتبرون بنظر القرآن متساوون في كونهم على دين الآبائية .. فاتباع الآباء لا ينفع في الوصول إلى الطريق القويم، ولا بد من الخروج منه إلى الاعتقاد الصحيح الوحيد وهو إعادة تكوين الأفكار من خلال التفكر والوعي والعلم والمعرفة.

والخروج على الآباء ليس عقوقاً لهم، كما أنه ليس تشكيكاً في إيمانهم أو انتقاصاً منه .. بل هو محاولة للعودة إلى الفطرة والتخلي عن أي تشويه مارسوه علينا بجهل وحسن نية .. وربما يكون هذا ما يعبر عنه الحديث القائل: **"ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهوِّدانه أو يمجِّسانه أو ينصِّرانه"** .. أو يبقونه –كما نعتقد – على الفطرة مع قليل أو كثير من التشويه إذا كانوا مسلمين.

وكيف لا يحصل إلا في حالة واحدة من بين عشرات آلاف الحالات أن يختار الإنسان طائفة أخرى أو ديناً آخر غير دين آبائه وطائفتهم؟.

ثم لو افترضنا أنه اختار وانتقل من دين إلى دين أو من طائفة إلى أخرى .. أفلا يتَّبع دينه الجديد أو طائفته الجديدة بالتمام والكمال كما نقلته العائلة لأولادها ورجل الدين لمريديه في تلك الطائفة دون زيادة ولا نقصان؟ .. فمن الذي اختار له في هذه المرة أيضاً؟.

زارتنا مرة سيدة وصارت تشكو من خوفها على ابنها الشاب الذي يبدي بين الحين والآخر عزمه على الانتقال إلى مذهب آخر .. وسألتني فيما إذا كنت أرغب في التحدث إليه فأقنعه أن يكف عن نيته .. فاعتذرتُ منها ونصحتها ألا تكترث لهذه المسألة كثيراً، وقلت لها أن ما تخافين من حصوله على ابنك ما هو إلا انتقال من حفرة إلى حفرة، أو من نفق مظلم إلى نفق مظلم آخر .. ونصحتها أن تحثه على مراجعة دينه الموروث والبحث عن حقيقة دين الله بدلاً من هذا الانتقال العبثي الصبياني.

وعندما لاحظت في عيونها علامات المفاجأة خلت أنها تفهمني، فتابعت قائلاً: صحيح أنه قد تختلف شدة العتمة ودرجة الرطوبة والروائح الكريهة من مكان إلى آخر، وقد تكون أسوأ فعلاً في موقعه الجديد .. ولكنه نفق مشابه على كل حال ولا يستدعي هذا القلق .. ولم أكن أدري أنها تنظر لآخر مرة في حياتها إلى الكفر في أسوأ صوره متجسداً في وجهي!.

ولنتساءل: من من هؤلاء يحتمل أنه يرضي الله تعالى أكثر ويمكن اعتباره من المؤمنين الذين يحسنون صنعاً؟ .. ومن هم الآخرون الذين تذكرهم الآية الكريمة وتعتبرهم الأخسرين أعمالاً؟ .

دعنا من الحديث عن غير المسلمين، فربما لا يرغب القارئ سماع الرأي فيهم، وقد لا توجد قوة في الأرض تقنعه أن بعضهم يحسنون صنعاً بأي شكل من الأشكال .. فماذا عمَّن يؤمنون بالله ورسوله وما جاء به الكتاب الخاتم؟.

سيقول أهل السنة بكل فرقهم ومذاهبهم: طبعاً نحن أصحاب الحق .. وكيف تجرؤ عل التشكيك في ذلك ونحن من نتمسك بكتاب الله وسنة نبيه المصطفى؟ .. ألم يقل ﷺ: **(تركتُ فيكم أمرينِ ، لن تَضِلُّوا ما تمسكتم بهما: كتابَ اللهِ وسُنَّةَ رسولِهِ)**؟ .. ألا تعلم أن هذا الحديث متفق عليه عند البخاري ومسلم؟.

وسيقول الشيعة بكل أطيافهم: إن أصل الحديث ليس كما ذكر للتو، بل الصحيح هو حديث الثقلين الذي يقول فيه عليه وعلى آله السلام: **(إني تارك فيكم الثَّقَلَين: كتابَ اللّه وعِتْرتي)** أو **(قد تركتُ فيكم ما إنْ تَمَسَّكتم به لم تَضلُّوا .. كتابَ اللهِ وعِتْرَتِي أهلَ بيتِي لن يَتَفرَّقا)** .. وبناء على ذلك فنحن على حق، ونتمسك بكل ما وصلنا عن آل بيت رسول الله ﷺ وبكل أقوال الأئمة المعصومين الطاهرين، وننتظر الإمام الغائب ليبين لنا ما غاب عنا من حق وصواب.

ومرة أخرى .. سواء كنت الشخص الأول أو الثاني .. قل لي بربك .. أين هو الحق الذي اخترته بنفسك؟ .. وأين هو الحق الذي فكَّرت وتدبَّرت وعرفته حتى وصلت إليه؟.

الفرص المتساوية للجميع

الخلق كلهم عيال الله

إن عدل الله الكامل يقتضي أن يكون لجميع البشر فرصاً متساوية للنجاح في امتحانهم، أو أن يحكم عليهم وفق الفرص التي أتيحت لهم .. فهل ينسجم إيماننا بعدل الله المطلق مع ادعائنا أنه عز وجل يميز فئة من الناس في بيئة معينة أو طائفة محددة بالعقيدة الصحيحة لدينه الحق يولد فيها المحظوظون ويعيشوا على الحق والصواب، بينما يحرم من هذه الحظوة ذوي الطالع السيء من بقية خلقه ممن نسميهم "كفاراً ومشركين وفرق ضالة ونواصب وروافض وخوارج وغيرهم" ليضعهم في ظروف تجعل من الصعب عليهم أن يصلوا إلى الحق بسبب ما ورثوه عن عائلتهم من أفكار ليعيشوا في الباطل والضلال؟ .. وهل هناك عاقل يمكن أن يصدق ذلك؟ .. **هل نشم في ذلك رائحة للعدل؟ .. فكيف يحاسبهم عز وجل على ما أجبرهم عليه؟.**

وكيف ينسجم إيماننا بعدل الله مع اعتقادنا أنه تعالى قد حدد مصيرنا بمساقط رؤوسنا وأسماء عائلاتنا وسيحاسبنا في آخرتنا على دين اختاره لنا غيرنا دون إرادتنا؟.

وإن كانت الوراثة أو مكان الميلاد هو ما يحدد فيما إذا كنا سنعيش على حق أو ضلال .. وكنا من أولئك المحظوظين! الذين اجتباهم الله وأنعم عليهم ووضعهم على صراطه المستقيم من أتباع الحق المبين .. وكنا نشكر الله تعالى ليل نهار على اختياره لنا من بين بقية خلقه .. فما ذنب أولئك الذين يولدون في عائلات منحرفة شاذة أو كافرة مشركة، وكانوا وسيبقون هم وكل من يخلفونهم من الضالين والمغضوب عليهم إلى يوم الدين؟!!.

كيف يحاسب الله المسيحي (الكافر بعين المسلم) على ذنب لم يقترفه؟ .. ألم يكن حظه العاثر هو الذي أوجده في عائلة مسيحية علَّمته منذ نعومة أظفاره أن الدين الصحيح هو الإيمان بالآب والإبن والروح القدس إله في ثلاثة أقانيم وأنشأته على تقديس الصليب وعقيدة الخلاص؟.

وكيف يعاقب الله المسلم (الكافر بعين المسيحي) على ذنب لم يقترفه؟ .. أليس حظه العاثر ذاته (في نظر المسيحي) هو الذي جعله يؤمن بما جاء به محمد ﷺ ويرفض ما يدَّعيه جاره المسيحي ويعتبره انحرافاً، فلا يؤمن بتخليص المسيح ولا بصلبه وموته ولا بعودته وقيامه على الطريقة المسيحية؟.

وكيف يحاسب الله الشيعي الذي يتبع مذهباً بعيداً عن مذهب أهل السنة في رأي عدد قليل منهم .. وفرقة "ضالة منحرفة" في رأي الشريحة الأوسع من عامتهم .. وربما تكون فرقتهم غير مسلمة، بل كافرة مشركة أيضاً في عيون تجار الدين .. لا لشيء إلا لأن حظه العاثر كان في أنه ولد من أبوين شيعيين في الشقة الواقعة على يمين الدرج في الطابق الخامس من البناء .. بينما يصبح جاره سعيداً في الدنيا والآخرة لمجرد أنه ولد من أبوين سنيين يعيشان في نفس الطابق من ذلك البناء ولكن على الجهة اليسرى من الدرج؟.

كيف يحاسب الله السني من "النواصب الكافرين" المنكرين للولاية والإمامة في عيني الشيعي لأنه ولد في دمشق أو القاهرة ولم يولد في قم أو مشهد أو كربلاء؟.

هل يعقل أن يكون الحق حصرياً عند طرف من هؤلاء يتوارثونه فيما بينهم جيلاً بعد جيل ويكون معدوماً عند غيرهم؟ .. وهل يعقل أن يكون الحظ أو الحظوة دون شيء سواه هو من يحدد أولئك الذين يولدون في عائلات يحبها الله ويغمرها بفضله؟ .. ألا نكون واهمين إن ظننا أننا ولمجرد أن الله أكرمنا فولدنا في عائلة تؤمن بالله واليوم الآخر بطريقة ما فاتبعنا طريقتهم نكون من المؤمنين؟.

وهل هناك مخرج من هذا التناقض بغير الاقتناع أن الاعتقاد الوراثي **المدَّعى لا يساوي عند الله شيئاً، وأن** الدين الآبائي إن لم يكن فاسداً فهو دين عاجز وناقص، وأن الآبائيين جميعهم على دين واحد ولا أحد منهم على شيء .. ولن ينتج الاعتقاد الموروث شيئاً مميزاً؟ .. وأنه عندما يقلِّد إنسان عائلته ومحيطه فيما يعتقدونه أو يقومون به دون علم ولا دليل، ودون أن يشغِّل عقله ويفكر ولو لمرة واحدة .. فما الذي ينفع سواء كان هذا الاعتقاد صحيحاً أو خاطئاً.

وعندما يكون همُّ الشخص الآبائي –كما هو عادة – التزام الطريقة التي تسعد أهله وأقاربه وعشيرته وأصحابه، والسير على شاكلتهم، وأن يبقى على العهد مع من ولدوه وربوه وعلَّموه .. فما علاقة هذا بالله عز وجل ودينه؟.

وكم هو مسكين ودرويش من تجاوز سن الرشد وما زال يتبع معتقد عائلته كما هو دون تفكير ولا تقويم .. وكم يستحق الشفقة من كان السبب الوحيد لإيمانه بدين من الأديان هو أنه جاء إلى هذه الحياة فوجد أهله وعشيرته وطائفته يتبعونه .. لقد أقال عقله .. وفقد إنسانيته .. وأصبح في أحسن الأحوال مجرد يد عاملة إضافية لخدمة تلك العشيرة والطائفة.

فإن كانوا على ضلال فهو يتحمل المسؤولية معهم .. وإن تصادف أن كانوا على حق، فلن يكون له بذلك أي فضل .. وما لم يتفكر ويصل إلى الحق بنفسه، فلا معنى لإيمانه واعتقاده .. ولو تفكر ووصل إلى ما يطابق دين آبائه، فلنا أن نشك بطريقة تفكيره أيضاً[1].

وهذا هو موقف البشر يسجله لنا كتاب الله الكريم يفاخرون بما لديهم ويستخفون بما لدى الآخرين، ولكن هذا لا ينفع ولا يصنع إيماناً: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ .. ونحن (الآبائيون) اليوم نقول أن لا أحد على شيء سوانا ومن يتبع ديننا الموروث .. بل من يتبع عين الفرقة والجماعة التي ولدنا فيها .. والباقون "من الوراثيين مثلنا" من شيعة ومتصوفون وسلفيون ومذهبيون وقرآنيون .. ويهود ونصارى وبوذيون وهندوس، وصديقي الذي قابلته على الحدود الصينية المنغولية .. كلهم ضالون جاهلون .. ومن العجيب أنهم لا يفكرون!.

1 لأنه يجب ألا يتطابق كما سنرى لاحقاً.

إعفاء الأطفال والمراهقين من المسؤولية

اللوم يقع على الراشدين البالغين

وهنا نتساءل: هل يحق لنا أن نلوم الناس على ما اكتسبوه من أفكار ومعتقدات وآراء اكتسحت عقولهم واستحوذت عليها في فترة حضانتهم وطفولتهم ومراهقتهم؟.

بالطبع لا .. والقرآن لا يذمُّها عند الأطفال والمراهقين والشباب الصغار .. فهؤلاء، وهم في هذه السن – وإلى أن يبلغوا رشدهم – لا حيلة لهم فيما هم عليه من عقيدة وأفكار .. فما تمت ممارسته عليهم هو بطريقة أو أخرى نوع من الإكراه الذي لا يفلت منه إلا القليلون.

كما قد يبرز أمامنا تساؤل مشروع آخر: **إذا كان تعليمنا الدين الموروث لأولادنا** ليس له أي قيمة **فما الذي له قيمة إذن؟** .. وإذا كانت تربيتهم على الدين الذي نحمله لا تنفع او تفيدهم في شيء، **فلمن نتركهم؟** .. هل نتركهم ليتعلموا دين غيرنا أم نتركهم دون تعلم؟.

وهنا يمكن القول أن تعليم ديننا لأطفالنا أمر واقع لا يمكن لأحد أن يلغيه أو يتجنبه .. ولكن إذا كان لا بد من توريث العقيدة، وكان الخروج من الآبائية المذمومة يقتضي أن يعرض الراشد ما تعلَّمه في طفولته على عقله، أفلا يجب علينا مع تعليمهم الدين الموروث أن نعلمهم طرق الحكم على المسائل ومبادئ التفكير العلمي السليم وكيف يحاكمون الأمور بعيداً عن التقليد الأعمى لنا ولغيرنا بغير علم ولا دليل؟.

وإذا كان على أبنائنا وبناتنا أن يعيدوا النظر فيما نلقِّنهم ويقومونه من جديد ثم يختار كل منهم ما يجده صواباً ويرفض ما لا يتقبله عقله .. أفلا يجب علينا تعليمهم ما ينص عليه كتاب هذا الدين أن يفكروا ويقوّموا ما يعرض عليهم من أفكار، وأنهم وحدهم المسؤولون عن البحث عن الحق وعن اتباعه، فلا يتكبروا ولا يعرضوا، حتى يكونوا على الصراط المستقيم؟.

وإذا كان على كل منهم أن يبحث عن حقيقة دينه الأقرب إلى دين الله ورسالته، ويشكِّل بنفسه إيمانه الجديد الذي يتوافق مع تفكره وتدبره ومعرفته، ويتحمل مسؤولية خياره .. ألا يمكننا تعليمهم التفكر في كتاب الله بعيداً عن أفكارنا المسبقة وطريقة فهمنا، وكيف تخلق الأفكار وتنمو ثم تزول لتحل محلها أفكار أخرى أنفع وأقوى وأعمق وأوسع في تطور مستمر لا يقف عند حد ولا نهاية؟.

وهل هذا ما يحصل فعلاً؟ .. وكم عدد الذين يوصون أولادهم أن الدين يجب أن يُختار لا أن يورَّث، وأن الحق يجب أن يبحث عنه بعيداً عن مساقط رؤوسهم؟، ومن يوجههم أن يفتشوا عن طريقة الإيمان التي يجدونها أقرب إلى ما يريده الله منهم، ويبحثوا عن الدين الأقرب إلى دين الله القويم؟.

إنها لجاذبية هائلة تلك التي يخلد فيها الإنسان إلى أرض آبائيته ويتمسك بها .. والغالبية العظمى من البشر في كل المجتمعات هم مقلدون آبائيون .. فهناك مرحلة في عمر الإنسان يكون فيها غضاً طرياً يعتمد كل الإعتماد فيها على غيره دون حول ولا قوة، ولا يلام فيها على تقليده وتبعيته لعشيرته .. رضيع ثم طفل ضعيف ثم مراهق حائر يتلمس طريقه معتمداً في شؤون حياته على عائلته.

ولكن عندما يستمر في الإتباع والتقليد والآبائية ويصر عليها بعد بلوغ سن الرشد، وتنعدم الرغبة عنده في التحرر والتفكير المستقل .. فهذا ما يجب ذمه وإدانته .. وما لم يملك الإنسان إرادته الخاصة وقدرته على اختيار أفكاره ومعتقده فسيفقد أعز ما فيه، ولا يتجاوز مرحلة طفولته ومراهقته، لأنه يكون قد عطَّل أهم ما وهبه الله وميَّزه فيه عن بقية مخلوقاته.

فالإيمان القويم والاعتقاد السليم لا يورث بل هو محصلة لإعمال العقل .. وأول الطريق في تحقيق رشد الإنسان يكون في تفعيل عقله وإرادته حتى يتمكن من الخروج من رحم الآباء، ويتحرر من سجن الامتثال والتقليد.

وقد يطول وضع الإنسان على حال آبائيته هذه أو يقصر .. وغالباً ما يمتد معه حتى آخر يوم من حياته .. فمعظم الناس يتابعون على هذا اليقين دون إعمال عقولهم .. والأمر النادر هو أن ينتقل أحدهم في مرحلة ما من عمره من هذا الطور إلى طور التفكر والاختيار وعدم الخضوع للإكراه، فيفعِّل إرادته ويفهم رسالته ويعمل على إنجازها.

وأتباع كل عقيدة أو مذهب أو دين عادة ما يتمسكون بما يعتقدون به مما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم، ويكون عندهم من الأدلة ما يقنع عقولهم، ويجدون أو يختلقون من الحوادث والمصادفات، وحتى من المعجزات المصطنعة الخاصة بكل منهم ما يؤكد لهم صحة إيمانهم وقوامة منهجهم، ويقللون من شأن أدلة الآخرين وسذاجة قناعاتهم.

وقليل هم الذين يستطيعون السباحة عكس هذا التيار الجارف .. وهؤلاء الذين يفكرون ويشككون ويحطمون آصار آبائهم وأغلال عشيرتهم بهدف الوصول إلى الأهدى والأقوم، هم الذين يحبّهم الله ويهديهم ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .. ولهم أثر بالغ في تغيير المجتمعات وتقدمها وإعلاء شأنها، وعليهم أن يتحملوا مسؤولية كبيرة في الارتقاء بالإنسان نحو تحقيق أمل الله وعلمه فيه.

وتكرر في القرآن الكريم ذمُّ أولئك الذين يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم .. ووصف حالهم ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ .. فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ وفي ذلك دعوة لهم للخروج عن اتباعهم وتقويم ما نقلوه إليهم .. وهؤلاء الآبائيون يقفون على الدوام في مواجهة دعوات التجديد والتفكر والإصلاح، ويتصدون لحماية التقليد الأعمى للسلف واتباعهم فيما وصلوا إليه .. وسيحملون وزرهم في تعطيل الملكة النقدية والتفكير عند أتباعهم وأشياعهم ومن يقتنع برأيهم .. فإذا كان أهل أحدهم من المسلمين فلا يجد حرجاً من القول بواجب المسيحي والبوذي أن يراجع دينه علَّ الله يهديه إلى الإسلام .. ولكنه يتجاهل ضرورة قيامه بتلك المراجعة على دينه .. فهناك أمور يحرم الاقتراب منها وتعتبر ثوابت حتمية ونهائية!.

فماذا لو كان هؤلاء الآباء على ضلال مبين؟ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ ؟ .

وماذا لو كان الدين الذي نقلوه إلينا مليئاً بالأوهام والخرافات أو يئن تحت حمل ثقيل من أفكار ومعتقدات وآراء من ابتكار بشر مثلنا تمادوا في الافتراء والتحريف والإخفاء والادعاء؟.

ماذا لو أساؤوا الفهم أو التفسير أو التقدير في بضع مسائل فكانت كفيلة بتحطيم حياتنا أو بخراب آخرتنا؟ .. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ ؟ .

وماذا لو كان انحرافهم أو إساءة فهمهم في مسألة واحدة هو الذي نغَّص علينا عيشتنا أو دمَّر علاقاتنا أو فرق بيننا أو حرمنا من سعادة أو راحة أو مكسب معين أو جلب لنا الشؤم والنكد والعذاب والضياع؟.

قد لا تكون حال المسلمين بكل هذا السوء .. حسناً .. ولنتفق أنها ليست كذلك.

ولكن ..

ماذا لو صار فهمنا لدين الله اليوم أوسع وأعمق وأهدى من فهم الآباء في زمانهم؟ .. وماذا لو كشف لنا العلم والواقع فهماً أهدى من فهمهم حصيلة معلومات جديدة لم تكن في متناولهم عندما قدموا فهمهم القديم؟.

أمَّاذا لو قدَّم لنا أحدهم فهماً أهدى مما ورثناه عن عائلتنا؟.

وكيف نصف أنفسنا إذا أصررنا على فهم أقل هدايةً وصلنا من آبائنا أو ورثناه عن عائلتنا؟ .. **أفلا يكون موقفنا مطابق لمن ذمهم القرآن الكريم على التمسك بالموروث مهما كان الدليل الجديد يستوجب تعديله أو التحول إلى نقيضه أو ينسفه من جذوره؟.**

ألا يردد القرآن دعوى الأنبياء لهؤلاء الآبائيين بالقول: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ .. ويدين موقفهم المعتاد: ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ .

وسيصرُّ كثيرون ممن تصلهم الفكرة للتو فيقولون: إننا لسنا بحاجة لأن نفكر .. نحن مقتنعون مئة بالمائة أن ما وصلنا هو الحق .. وواثقون من صحة الدين الذي نحمله .. والحمد والشكر لله على ما هدانا إليه .. ولا حاجة لنا في تشغيل عقولنا ولا أن نتعب أنفسنا ولا أن نراجع ولا أن نتفحص ولا أن نختار ولا أن نرفض.

أو يقولون: هذا ما نعرفه .. هذا ما وصلنا .. والدين واضح، ونحن لا نستطيع أن نفهم أكثر مما يفهمه المشايخ والفقهاء .. وما تتكلم فيه يصلح قبل نزول القرآن الكريم، وقبل تعاليم رسول الله ﷺ .. أما الآن وقد أصبح دين الله معروفاً، فكلامك هذا في غير مكانه ولا زمانه .. ولماذا نضيع وقتنا في هذه الفلسفة والكلام الفارغ؟.

حسناً .. إذا كنت واحداً من هؤلاء فستجد من يهنئك على هذه الراحة والثقة، وستجد من يغبطك على التمسك بالدين الموروث .. ولكن .. ألا تعرف شخصاً يحمل ديناً أو مذهباً يختلف في كل تفصيل من تفاصيله عن الدين الذي تحمله، وهو يعيش بالاطمئنان والارتياح ذاته ويتمسك بدينه مثلك أو أكثر؟ .. فأيكما أكثر إيماناً وإخلاصاً وقرباً من الله، ومن منكما محق باطمئنانه وارتياحه؟ .. ومن أين جاءه هذا الاطمئنان والارتياح؟.

ألا يؤمن الهندوسي بما يؤمن به إيماناً راسخاً مع أن عقيدته تبدو لنا سخيفة إلى حد كبير؟ .. ألا نتهمه ببساطة أنه يؤمن بهذه الطريقة لأنه لم يفكر جيداً؟.

وماذا عنا؟ .. متى فكرنا جيداً؟.

دعنا من الهندوس والبوذيين "الكافرين الضالين" .. ولنسلِّم أن الدين الذي جاءت به الرسالة الخاتمة صافياً دون تحريف ولا تزييف هو دين الله الحق .. فهل الدين الذي نحمله اليوم هو فعلاً عين الدين الذي جاءت به رسالة الله الخاتمة؟ .. ألا يُحتمل أنه جرى عليه مع مرور الزمن شيء من التشويه على أيدي بعض الجاهلين أو الماكرين فتحول عن وجهته وتحولنا معه عن دين الله، فلم يعد ينقذنا أو يساعدنا أو يخرجنا إلى النور؟.

وإذا ثبت لنا أن التشويه قد حصل فعلاً، وأنه حصل بأشكال وأوجه متعددة، أفلا يكون الخروج على الدين الشائع والعودة إلى دين الله القويم وصراطه المستقيم أمراً واجباً وملحّاً؟.

الباب الثالث: الخلل الحقيقي .. انسداد في الشريان الأبهر

الخطوة الأولى: تقويم الإيمان

إذا كان ما ندعيه من دين لا يؤثر فى قلوب معتنقيه وأعمالهم وأوضاعهم ولو لمرة واحدة أخري خلاف تلك المرة اليتيمة .. فما هى مشكلتنا مع هذا الدين؟.

وإذا سلَّمنا بعقبات يعرفها القاصى والدانى كالجهل والتخلف وانحسار الاهتمام بالعلم والمعرفة، والتى حاول الروَّاد معالجتها ولم تحركنا محاولاتهم من مكاننا، فهل نصرُّ علي حصر مشكلاتنا فى هذه العقبات ونكرر محاولاتهم؟.

ألا يمكن أن نشك فى عوائق أخري كطبيعة فهمنا للدين مثلاً ؟.

وإذا فرضنا أن الدين الذى ندعيه هو دين الله تعالي، أفلا يجب أن نبحث فيما إذا حصل فيه تشويه فأصابه خلل ما عطَّل مفعوله؟.

وهل هذا الخلل عرضى ثانوى أم هو خلل كبير؟.

وهل هو فى مسائل هامشية، أم لا بد أن يكون فى أمور أساسية وجوهرية؟.

ما هي أسباب مشكلاتنا؟ .. هل هي في طريقة فهمنا، أم في ضعف إرادتنا، أم في أخلاقنا، أم في البيئة السيئة وانتشار الفساد ومطالب الحياة التي تقطع أنفاسنا؟ .. أم هي في الأمية وفشل التعليم ونقص العلم والمعرفة؟ .. **وكيف نخرج من الوضع الذي نعيش فيه من تخلف وتيه وظلام؟.**

يُرجع الكثير من رجال الدين مشكلاتنا إلى ضعف في إخلاصنا لله تعالى، ويقولون أننا مقصِّرون في التقوى والخوف منه عز وجل .. وتوصَّل بعض المفكرين إلى أن مشكلتنا ليست في إرادتنا وإخلاصنا .. فإيماننا وتقوانا على ما يرام ولا غبار عليهما، وتكمن المشكلة في قدراتنا .. وما نحتاجه هو تعزيز قدراتنا .. وقدراتنا الفهمية على وجه الخصوص[1] .. بينما سبق لمفكرين آخرين أن رجَّحوا أن التخلف بكل ما يفضي إليه هو سبب معاناتنا،

1 جودت سعيد، العمل قدرة وإرادة، دار الثقافة للجميع، الطبعة الأولى، 1980.

وتعود إليه كل آلامنا .. وعلينا فهم مكونات الحضارة، والعمل على تحقيقها على المستوى الفردي والاجتماعي، لنخرج من حال الانحطاط التي لم تبارحنا منذ قرون، وعندها ستحل جميع مشكلاتنا الأخرى[1].

وفي كل ذلك شيء من الصحة .. ولكن .. لو كانت مشكلتنا تنحصر في الإخلاص والإرادة والتقوى، فلم لم تنفع معنا كل مجالس الذكر والوعظ والإرشاد وكل جرعات الترغيب والترهيب؟ .. ولو كانت مشكلة أمية وقراءة وثقافة فقط أي لعجز في القدرات الفهمية، فلماذا يعاني المتعلمون والقارئون ما يعانيه البسطاء والعوام، وربما أكثر؟ .. وإذا كانت مشكلة تخلف، فلماذا لم تنجح محاولات النهضة ومشاريعها؟، بل لماذا تراجعنا وزاد تخلفنا وتيهنا؟.

ألا يمكن أن تكون المشكلة معقدة ذات عقبات وعوائق مركبة من جميع هذه العوامل ومن عوامل غيرها؟.

ماذا لو كانت المشكلة أيضاً في الدين الذي نحمله ونظنه دين الله القويم؟.

وماذا لو كان سبب عدم إثماره للنتائج المرجوة منه –كما هو حالنا – عائد لعطل صغير أو كبير في فهمنا لجانب أو أكثر من جوانب هذا الدين؟.

إذا فكرنا في التجهيزات التي نستخدمها في حياتنا اليومية وتؤدي دوراً هاماً في حياتنا كالسيارة مثلاً .. فعندما تتعطل وتتوقف عن الحركة ولا تقوم بأداء وظائفها الأساسية، فإننا لا نبحث عن المشكلة في طلائها ولا في ماسحات النوافذ .. بل نعرف أن عطلاً قد أصاب نظاماً أساسياً من أنظمتها كنظامي الحركة أو الكهرباء.

والإنسان يمكن أن يستمر بالحياة إذا كسرت يده أو أصيب بجرح في ساقه .. أما عندما يموت، فإننا نعلم أن خللاً ما قد أوقف جهازاً أساساً من أجهزته، كجهاز تنفسه أو قلبه؟.

وإذا كان الدين في قناعتنا هو قاطرة النهضة والنجاة التي تجر خلفها كل العربات لتنقلنا من حال التيه والتخلف إلى نور الله والحضارة الإنسانية، ومن ثم تنجينا يوم القيامة .. فإن (الإيمان) و (الفكر) الذي يقوم عليه هذا الإيمان يمكن تشبيههما (بالمرجل أو المحرك) الذي يحرك هذه القاطرة والذي ينبغي أن يكون صنعه سليماً ومتقناً ومتيناً .. و(الوقود) الذي يشغّل هذا المرجل، والذي ينبغي أن يكون صافياً وذو مردود جيد.

وكما لا يمكن الفصل بين (المحرك والوقود) الذي يستخدم فيه، فلا يمكن الفصل بين (الإيمان والفكر) ولكننا نقوم هنا بالتمييز بينهما لضرورة تسهيل شرح الموضوع.

---

1 مالك بن نبي

ودين الله الذي يعمل هو دين مبني على إيمان (قوي وصحيح) و(فكر سليم) .. وهما اللذان يفضيان إلى موقف سليم وعمل سليم، أي إلى ما يعبر عنه القرآن الكريم بمصطلح (العمل الصالح) الذي يعزُّنا في الدنيا وينهض بنا ويبني حضارتنا، وينجينا في آخرتنا.

ولأن الإسلام الذي نحمله لا يعمل لصالحنا .. فلا يمكن أن نعيد ذلك إلى عيب في أمور ثانوية أو هامشية، بل لا بدَّ أن خللاً رئيساً في مسألة رئيسة أو موضوع رئيس قد أصاب هذا الدين .. ولا بد أن مشكلة كبيرة قد أحدثناها في جوهر ديننا .. مشكلة أكبر من الكبائر ذاتها .. ولكننا لا نريد أن نصدق ذلك.

إذن فلنفترض جدلاً احتمال وجود خلل ما فيما نحمله من دين .. ولتكن مهمتنا هنا التمحيص أو التثبت من صحة أو خطأ فرضيتنا[1] .. ولنبدأ بالبحث عن وجود هذا الخلل في (الإيمان)، ثم النظر فيما يرافقه ويرتكز عليه من (فكر)[2].

وسنركز الاهتمام في الفصلين التاليين على تقويم (الإيمان)، فنبحث في مؤشرين هما (سلامة الإيمان) و (مستواه وطاقته) .. فإذا وصلنا إلى نتيجة مقنعة أن لا مشكلة في سلامة إيماننا، وأنه إيمان قويم ومتين يرضي الله تبارك وتعالى، فهذا يعني حكماً أنه يرتكز على فكر سليم، ولا بد أن يثمر عملاً صالحاً تظهر نتائجه في واقعنا .. ولن نحتاج إلى بحث مسألة الفكر، بل أن نرضى به كما هو دون تغيير ولا تبديل.

أما إذا وجدناه إيماناً سقيماً أو منحرفاً أو ضعيفاً أو عقيماً، وأنه السبب خلف إجهاض مساعينا للنجاة في آخرتنا أو في تحقيق نهضتنا أو في كليهما معاً، فنكون أمام مهمة البحث في (سلامة الفكر)[3] الذي يرافقه ويرتكز عليه وكشف مواطن الخلل فيما وصَلنا من آبائنا وفقهائنا ورجال ديننا ومفكرينا.

---

1 الفرضية هي أن المشكلة التي أبعدتنا عن دين الله القويم هي عدم سلامة الإيمان أو في ضعفه، أو في ارتكازه على فكر مزيف يُضلُّ طريق حامليه ويقضي على ثمار إيمانهم المرجوة.

2 عندما نذكر الفكر فإننا نقصد (المنظومة الفكرية) .. وهي الإطار العام للتفكير الذي تتولد عنه الكثير من القناعات والمفاهيم (الثقافة) التي تنتج عنها المواقف والممارسات والأعمال.

3 سيخصص الكتاب الثالث والأخير من مجموعة كتب (الخروج) للمهمة المعقدة في تقويم (المنظومة الفكرية).



الفصل السادس: تقويم سلامة الإيمان

من الجبر والإكراه إلى المعرفة والاختيار

إذا كان كلام القرآن يؤكد على أهمية الإيمان السليم، فهل نعاني من مشكلة في سلامة إيماننا؟.

وهل يمكن للإيمان الآبائي السائد القائم على الجهل والتقليد من غير جهد ولا إعمال عقل، أن يثمر النتائج المرجوة، أم هو إيمان عقيم بلا قيمة؟.

وهل يمكن اعتباره إيماناً ضعيفاً يجب تقويته، أم أنه مناقض في أسسه ونتائجه للإيمان الصحيح؟.

وهل يمكن الوثوق بأصحابه؟ .. أو الاعتماد عليهم؟ .. أو يُنصح بالتضحية من أجلهم؟.

الإيمان الموروث

إيمان المقلدين والمقهورين

يدل الواقع على أن الغالبية العظمى من المسلمين اليوم كغيرهم من أصحاب الديانات والعقائد الأخرى هم مؤمنون بالوراثة .. وبغض النظر عن دقة ملاحظتنا هذه، فلا شك أننا نشهد آثاراً حسنة عند من يسلِّمون بوجود الله ويؤمنون باليوم الآخر، لأن الآباء والأجداد والعمات والخالات كرروا ذلك على مسامعهم مذ كانوا أطفالاً .. بل قد يحصل تسليم كامل لله وفقاً لهذا الإيمان .. فنجاهد أنفسنا للالتزام بإقامة الصلاة، ونؤتي شيئاً من الزكاة إذا كنا نملك المال، ونصوم رمضان ونحج البيت إن استطعنا إليه سبيلاً .. ثم تسير حياتنا بعد ذلك كما تسير حياة بقية الناس.

وحيث لا يعلم سرَّ الناس وخفاياهم إلا الله وحده، وحيث لا يمكننا أن نشق على قلوبهم لنعرف درجة إيمانهم، فعلينا ترك شأن علاقتهم بالله ومصيرهم في آخرتهم إلى الله جل وعلا .. وليس لأحد الحق في تصنيف أصحاب الإيمان الموروث من كل الطوائف والأديان، أو الحكم عليهم أو منحهم درجات، أو توزيعهم على مقاماتهم في الجنة ومقاعدهم من النار.

كما أنه ليس لنا أن ننكر قيمة الإيمان الوراثي عند عموم المسلمين أو نحكم على أصحابه، أو نجرِّد شخصاً يعلن إيمانه من لقب (المؤمن)، فنكفِّره أو نتهمه فيما لا نراه من عمله مهما كان اعتقاده ضعيفاً أو وراثياً أو تقليدياً .. وإلا فكيف نفسر التزام الكثيرين منهم بالفروض والعبادات وابتعادهم عن المحرمات؟ .. وكيف نبخسهم ما يفضي إليه إيمانهم من عفة وأمانة وبر بالوالدين وغيرها من الأخلاق الحميدة؟ .. أليست كلها نتاج الإيمان الآبائي الذي لا يروق لبعضنا؟.

ولكن ..

ألا نلاحظ وجود مظاهر سلبية كثيرة على مستوى الفرد والمجتمع لا يستطيع المؤمنون الآبائيون التخلص منها؟[1] .. وأن هذا النوع من الإيمان قد يرفع صاحبه إلى درجة معينة ولكنه لا يساعده على تخطيها للوصول إلى درجات أعلى مطلوبة؟ .

1 تم الحديث بالتفصيل عن هذه المظاهر في الباب الأول (تشخيص الوضع الراهن).

ومهما حاولنا تغذية هذا النوع من الإيمان بالعاطفة والحب، فإنه عادة ما ينحرف .. فصاحبه قد لا يعرف الله الذي يؤمن به، ولا يعرف القرآن الذي يصدِّقه، ولا يعرف الإنسان، ولا يربط الإيمان بالعمل الصالح .. أو قد تكون معرفته ناقصة أو مشوهة، فتكون لها آثار سلبية تبدد ثماره الإيجابية، وقد تتجاوز ذلك إلى خسارة كبيرة.

وبدل أن تساعد هذه المعرفة على صنع الحضارة تصبح عقبة كأداء في طريق النهضة وعائقاً في تزكية الفرد وتقدم المجتمع .. وينقلب الدين الذي جاء لإنقاذه وتحريره وحماية إنسانيته وكرامته ورفع الظلم عنه ليصبح أمضى سلاح في تجهيله وإخضاعه واستغلاله وإهانته .. ويا لها من مأساة عندما يقف أحدنا مدافعاً بروحه وماله عن دين أصبح عقبة في طريق فهم دين الله، ويعمل على دكّه من جميع أركانه واقتلاعه من جذوره.

وإيمان **التقليد والقهر والجبر هو إيمان** يقف فيه صاحبه عند درجة التسليم بوجود الله واليوم الآخر فلا يتجاوزها .. صحيح أنه يعتبر هذا الوجود من الحقائق الأكيدة فلا يشكك فيها .. وهذا جيد .. ولكنه – مع وجود الاستثناءات– فإن إيمان المقلِّد بناء بلا أساس .. فمع كل الوعظ والوعد والوعيد .. لا يثمر النتائج المأمولة .. فلا يمنع الصائم القائم من غش الناس وخداعهم وسرقة أموالهم وظلمهم والغدر بهم .. لأن الروح التي نفخها الله عز وجل في هذا الإنسان ما تزال خامدة راكدة أو مغيبة مهمشة، وتفعيلها لا يكون إلا بتحقيق الحد الأدنى من إنسانيته في تشغيل عقله.

هو من حيث المبدأ إيمان، وأصحابه مؤمنون موحِّدون .. ولكنه إيمان غير الإيمان الذي يدعو إليه الله ورسوله وكتابه .. ولا يثمر كما الإيمان الناتج عن المعاناة والتفكر، ولا يتجاوز حد الاعتراف بوجود الله .. فهو لا يصل إلى معرفته تبارك وتعالى بعلمه وعدله وقدرته وأسمائه الجليلة الأخرى.

فقد يقود العلم القاصر بالله حامليه إلى الظن بأن الله لا يعلم كل شيء ويتصرفون على هذا الأساس ﴿وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ . وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنْ الْخَاسِرِينَ﴾ .. ولا يقدرونه جل وعلا حق قدره ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ .

وهو عادة إيمان سطحي ومضطرب وعقيم، ويقود إلى عمل ناقص وغير مضمون النتائج .. وكثير من أصحابه مستعدون لبيع رضى الله ورسوله وما جاء في كتابه ورسالته لقاء تلبية حاجة صغيرة من حاجاتهم .. وقد يؤمك أحدهم في الصلاة ويرتل القرآن بطريقة تجعلك تتأثر وتبكي .. ثم يسرقك أو يغشك أو يخونك فيما تأتمنه عليه .. وأنَّى لإيمان بالله واليوم الآخر قائم على الآبائية والجهل أن يحصننا من هذه الخطايا وأنَّى يكون صحيحاً؟.

هو إيمان .. ولكنه ليس الإيمان الذي يرفع الدرجات ويخرج صاحبه إلى النور .. ونحن نعلم بوجود الكثير من الناس ممن آمنوا ولكنهم لا يطيقون القيام بعمل صالح واحد، وآخرين ممن آمنوا بالله إيماناً مختلطاً مع الجهل والخرافة والشرك الاعتقادي أو الشرك الاجتماعي .. فيشركون به تعالى أنبياءه وأولياءه، أو يشركون به آباءهم وأولادهم، أو يشركون به المال والمناصب والحكام، أو يخلطون صفات الرسل والأولياء بصفات خالقهم ورازقهم، أو يطرونهم ويبالغون في تقديسهم أو يسرفون في الحديث عن عصمتهم ومعجزاتهم، أو يتوسلون بهم ويسألونهم وينادونهم ويستغيثون ويحلفون بهم من دون الله، أو يذكرونهم أكثر مما يذكرونه عز وجل.

إن الإيمان الصحيح لا يورَّث ولا يقوم على العاطفة وحدها .. وإيمان **الاختيار الذي (يعمل) هو إيمان** قويم يبنى على العلم والوعي والمراجعة والتفكر والمعرفة والتقويم والاقتناع .. ويختلف بما لا يقاس عن إيمان **آبائي وراثي عاجز** قائم على التقليد والجهل والإكراه .. وهذه فكرة يمكن بسهولة أن نستنتجها من القرآن، وقد قال بها الأولون، ونحفظ عنهم أن (إيمان المقلِّد لا يُقبل) .. ولكننا نردد هذا الكلام اليوم دون تطبيق .. ولو كان الأمر على هذه الدرجة من الأهمية كما يقولون، وكان الانتقال من التقليد إلى التفكير يمثل حداً فاصلاً بين قبول الإيمان ورفضه، فلماذا لا يسلَّط الضوء على ما ينطوي عليه من خطورة؟ .. وأين هي الدعوة الجادة والبرامج العملية للتفكر والمعرفة؟ .. وأين هم الذين يؤكدون للناس أن يستقلوا في تفكيرهم عمن سبقوهم، وألا يقدسوا أو يعظموا أمثالهم من البشر ولا يتبعوا الأفكار الجاهزة المعلبة مهما كثر أتباعها؟.

وكم عدد الذين كتبوا يوجِّهون الناس كيف ينظرون ويعقلون مقارنة بالذين يعلمونهم كيف يحفظون ويجوِّدون، ويقلدون ويحبون، وينشدون ويمدحون، ويدعون ويتوسلون؟ .. أم أن إيمان المقلِّد لا يقبل فقط عندما يكون التقليد لغير دينهم وطائفتهم ومجموعتهم، وأنه لا بأس به ولا اعتراض عليه حين يأتي الحديث على تقليدهم؟.

وإيمان الاختيار هو حصيلة (المجاهدة) التي توصل إلى الطريق السليم ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .. والإنسان الذي يتأمل لساعات وأيام طويلة في مخلوقات الله ويمعن النظر في هذا التناسق والتوازن والعظمة التي أبدع الله عز وجل فيها الكون وما فيه من مخلوقات، والذي يجاهد في معرفة حقيقة خالقه وحقيقة خلقه، وسر وجوده في هذه الحياة، هو وحده الذي يقدِّر الله حق قدره، ويحسب حساباً ليوم لقائه والعودة إليه، ويؤمن به فيلبي كل ما يريده منك، فلا يكون جشعاً ولا ينافق ولا يخدع ولا يخون ولا يظلم ولا يمالئ فاسداً أو ظالماً.

فهو ليس فقط أن تؤمن بوجود الله تلقيناً .. بل أن تعرف كيف أنه إله رحمان .. عظيم وعليم .. قوي لطيف وخبير .. وكيف هو الأحد الصمد الخالق المهيمن الكريم الرحيم.

هو أن تعرف نفسك ومهمتك الأولى وتعيش حياتك كلها من أجل إنجاح مشروع الله في خلقه وأرضه .. وأن تبحث عن حقيقة رسالته عز وجل إليك، وتمشي في الحياة على السبيل الذي طلب منك سلوكه فلا تتبع سبيلاً غيره .. سبيل يوجّه مسيرة حياتك ويقوّم طريقة عيشك، ويصحح عاداتك ويهذب تقاليدك، ويوجهك كيف تكسب مالك وكيف تنفقه، وأين تضع علمك وخبرتك ومصادر قوتك، ويفرض عليك مشاعرك ومواقفك من الناس باختلاف مواقفهم من هذا السبيل.

إنه كإيمان عمار وسمية وجميع إخوانهم وأخواتهم .. إيمان يزوّدنا بالطاقة والثقة بالنفس لنزيل ما علق بهذا الدين من شوائب، ونرمي بآفاتنا ونخرج من تقديس الأوهام والخرافة والآباء، فيغير النفس من الأعماق وتتغير معه حياتنا.

ويقارن محمد الغزالي رحمه الله أولئك الذين آمنوا بالله عز وجل عن طريق التفكر ومعرفة آياته في الكون من ذوي الفطرة السليمة الذين هداهم الله إلى ما لم يهتد إليه ورثة الدين من أصحاب العمائم البيض والسود والذين – حسب تعبيره – قد مرّغوا حقائق الفطرة في الوحل وظلموا الدين وآذوا رسول الله فعكّروا صفاء الدين ونفّروا الناس منه .. ويقول عنهم بلسان الخبير المجرب دون أن يقصد التعميم: (*لقد عايشت هؤلاء الورثة (رجال الدين) واقتربت من نفوسهم فوجدت الدين الحق أبعد شيء عنهم .. وإذا كان الدين فطرة مستقيمة لا معوجة وفكرة ميسرة لا معسرة، فحظوظ هؤلاء من الدين لا تساوي شيئاً، ومهمتهم في المعابد لا تغني عنهم فتيلاً .. وأدنى منهم إلى القبول الإلهي رجال مفعمة قلوبهم إعزازاً لخالق الكون وإن لم يحسنوا ترجمة هذا الإعزاز إلى ألفاظ التكبير والتسبيح والحمد، ولا إلى مراسم العبادة المقررة !*)[1].

فتعظيم الله وتقديره حق قدره لا يتحقق من خلال ترديد الأوراد، بل عبر إمعان التفكر في عظمة خلقه وإبداعه وقدرته وربط هذا التفكر بما أخبرنا به عز وجل في كلماته الخالدة.

كما يقول الغزالي في مناسبة أخرى: (*عظمة الإيمان تعتمد ابتداء على فقه في آيات الكون يقف المرء فيه على أسرار الإبداع الأعلى، ويشعر بما يستحقه الخالق الكبير من مجد وحمد*)[2].

ويعلمنا الله في كتابه أن أغلب الناس وأكثرهم لا يبلغ درجة الإيمان المطلوبة، وأن الندرة النادرة منهم هم الذين يعيدون النظر حقاً ويبنون إيمانهم على التفكر .. ويتكرر في القرآن الكريم وصف الأكثرية من الناس في مختلف العصور بأنهم لا يؤمنون ولا يشكرون ولا يعلمون ولا يعقلون ولا يرغبون باتباع الحق .. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ .. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ .. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ .. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ . ﴿لَقَدْ

1 الإسلام والطاقات المعطلة، محمد الغزالي، دار القلم، دمشق، ط2 – 2005

2 ركائز الإيمان، محمد الغزالي، دار القلم، دمشق، ط4 – 1999.

جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ .. ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ .. ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا ﴾ .

وعندما يكون لهذه الأكثرية نصيب من الإيمان والتفكر والذكر والشكر فعادة ما يكون هذا النصيب قليلاً

﴿فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ و﴿قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ و﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ .. ويخلطون إيمانهم بالشرك بالله ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ .

فالإيمان الخالص الذي يرضي الله ويتحقق به علمه بهذا الإنسان هو عادة إيمان قلة قليلة من الناس .. إنه إعمال العقل ومراجعة ما يكتسبه الإنسان من اعتقاد .. فقد أكَّد الله تعالى أن هذا الصنف من الناس ممن يؤمنون ويعقلون ويذكرون ويشكرون هم قلة قليلة، وقد تكون نادرة في مجتمع جاهل متخلف ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ .. ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ .. ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ .

الثقة بالمؤمنين الوراثيين والتعويل عليهم

ماذا علمتنا التجربة؟

يعلمنا القرآن الكريم أن تعاملنا مع جميع الناس دون استثناء ينبغي أن يكون قائماً على العدل والإحسان والصدق والوفاء وعدم الظلم، وهذا ما يعبِّر عن أخلاقنا وإيماننا، فلا نحاربهم أو نعاديهم بسبب معتقداتهم ولا بناء على تخميننا لإيمانهم، ولا نعتدي عليهم في أي ظرف من الظروف.

ولكن المعاملة والتعارف شيء، والموالاة والثقة شيء آخر .. وعندما يتجرد الإنسان من الإيمان بالله عز وجل ويخلو من أي تهذيب روحي وأخلاقي يكون جاحداً لربه، فلا يشكره على نعمته ولا يعترف له بفضله وكرمه .. فما الذي نأمله منه في تعامله مع بني جنسه من البشر؟.

وبشكل عام .. ومع استثناءات قليلة .. فإن غير المؤمنين بالله، ومهما بدا لنا من مظاهر تحضُّرهم ومدنيتهم لا يمكن أن يؤمن جانبهم، وما إن تسقط تحت رحمتهم أو تسلِّمهم نفسك حتى يمارسوا معك أبشع أنواع التسلط والاستغلال والظلم والفساد.

وقد علمتنا التجارب أننا نرتكب خطأ فادحاً عند الثقة العمياء بهؤلاء أو الاطمئنان الكامل إليهم، أو عندما نتخذهم أولياء، أو نأتمنهم على أنفسنا وأموالنا، أو نبيح لهم أسرارنا وخططنا وما لا يجب أن يعرفه أعداؤنا عنا.

ولما كان التقليد ووراثة الدين في الغالب لا ينفع أو يفيد في تحقيق العمل الصالح .. وإذا كان حال إيمان الناس في زماننا هو إيمان قائم على الآبائية أو التقليد، والأكثرية منهم لا تربطهم صلة بحقيقة الإيمان ولا بدرجته المطلوبة الكافية لتوليد الأخلاق الرفيعة والمواقف الصالحة .. فكيف يجب أن نتعامل معهم في المسائل الجادة والحاسمة؟ .. وهل يكفي ما نراه من تغير في مظاهرهم من لباس ولحية ومبالغة في الحجاب وبهرجة المساجد؟ .. أم أن شيوع مظاهر التدين لا علاقة لها بأخلاق الإنسان وإيمانه وصلاحه؟ .. وإذا أمعنا النظر في الواقع وقارنَّا، ألا يمكن أن نستنتج أنه عادة ما يتناسب انتشار هذه المظاهر مع تدهور إيمان الناس وأخلاقهم وتحضرهم؟.

فتغيير المظاهر والإكثار من بعض الشعائر وكثرة المساجد أو كثرة من يرتادونها ليست أدلة على السير في طريق العمل الصالح والتحضر، ولا على تقدم المسلم في مشروع (نهضته ونجاته) .. بل الدليل هو العلاقات الاجتماعية

الطيبة وشيوع العلم والمعرفة وإتقان العمل والإنجاز والتعامل الحسن مع البيئة والطبيعة وسنن الله في الكون والمجتمع والإنسان.

أفلا يجب أن نعامل الصديق والقريب والغريب منهم على حد سواء بحذر شديد؟ .. ألا ينبغي عدم التورط معهم؟ .. وأليس من الحكمة عدم الاسترسال في الثقة بهم عندما يتعلق الأمر بمسائل لا تمنح فيها الثقة لغير المؤمنين ولما يتسبب إلى فشل في أعمالنا وجهودنا ومخططاتنا؟ .. وما الذي يبرر لنا منحهم فرصة ليفسدوا علينا حياتنا ويدمروا مستقبلنا؟.

وكيف نثق بهم وطريقة تفكيرهم الآبائية المنحرفة تتضمن فيما تتضمنه قناعتهم بامتلاكهم للحق المطلق دون غيرهم، وبأنهم كاملون، أو ضامنون للقبول مهما ساءت أعمالهم؟.

وكيف نأمن شرهم وهم يعتقدون أنهم مهما تمادوا، فتسقط العقوبة عنهم بقليل من الاستغفار، وبأنهم من الأمة المرحومة المشمولة بشفاعة الرسول الكريم التي لا عذاب عليها ولا حساب؟.

وهل تجب موالاتهم كما ينبغي موالاة المؤمنين امتثالاً لأمر الله تعالى ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾؟ .. أم أن معاملتنا لهم يجب ألا تختلف إلا بمقدار ضئيل عن طريقة معاملة غير المؤمنين؟ .. فلا نأتمنهم على أنفسنا وأموالنا وأسرارنا وأعراضنا إلا بعد اختبارهم وتجربتهم والتأكد من خلو مواقفهم من مظاهر وأمارات الغدر والنفاق؟.

وإذا علمتنا تجربتنا أن فيهم من يخدعون، ومن يعدون فلا يوفون، ومن لا يراعون عهداً ولا يحفظون أمانة ولا يؤدون حقاً .. بل علّمتنا أن فيهم من يقف في صف الظالمين ويقومون بأعمال يخجل منها بعض من لم يذوقوا في حياتهم طعم الإيمان ولم يشمُّوا رائحته .. فما الذي يبرر تعاملنا معهم بالودِّ والثقة والاحترام؟.

وباستثناء شريحة من الناس قد لا ينطبق عليهم ما سردناه من صفات، ولأسباب لا علاقة لها بالإيمان الموروث .. فإن من يؤمن إيماناً تقليدياً آبائياً صرفاً بغير تفكير ولو في الحد الأدنى هو إنسان غير جدير بالثقة، ومن الممكن دائماً أن يغشنا أو يسرقنا .. وفي أسوأ الأحوال يمكن أن ينقلب علينا فيغدر بنا أو يخوننا أو يُسلمنا أو يظلمنا أو يقف في صف أعدائنا وظالمينا.

عندما عملت أختي معلمة في مدرسة للأطفال .. حدثتني عن مديرة المدرسة المتدينة جداً، والمحجبة جداً، والتي تقرأ سورة (يس) قبل خروجها من البيت كل يوم.

اتفقت مع صاحب مبنى المدرسة على أجرة سنوية معينة، ونصَّ العقد الموقع بينهما على أن تستقبل عدداً محدداً من الأطفال .. ولكنها قامت – ومن وراء صاحب المدرسة – بتسجيل عدد أكبر من العدد المتفق عليه .. ولا

يكاد يمر يوم إلا وتكذب فيه على أهل الأطفال، كأن تخبرهم بتوفر جهاز كومبيوتر ووجود معلمة مختصة لتعليمهم استخدامه، وأخرى للاعتناء بنظافتهم، وأخرى للرياضة .. كما تكذب على المعلمات، وتحاول أن تقتطع ما تستطيع من رواتبهن دون وجه حق، وتماطل في دفع مستحقاتهن .. فكيف نفهم هذا النوع من الإيمان؟.

وعندما عزمتُ على أداء فريضة الحج صرفت وقتاً طويلاً بالبحث عن حملة الحج المناسبة بسبب الكثير مما سمعته عن أمور وحوادث لا ترفع الرأس في تعامل بعض من ينظِّمون هذه الرحلات .. ولكن الشخص الذي وقع عليه اختيارنا لنكون في حملته مُنع من السفر في ذلك العام، فنُصحنا ببديل سريع عنه ممن لا يزال عندهم شاغر للحجاج .. ولا أراكم الله كم كانت تصرفات هذا البديل مبتذلة ورخيصة .. وكأن الغاية الوحيدة لقيامة بقيادة الحجاج إلى بيت الله الحرام هي جمع المال بكل وسيلة .. وقد ختم رحلتنا بتحميل أطنان من البضائع والمهربات ليتم وزنها في الطائرة على أنها بضائع تعود ملكيتها للحجاج الذين يرافقهم.
فكيف يمكن أن نفهم أن رجلاً يطلق لحيته ويقوم الليل راكعاً ساجداً ويؤم المؤمنين ويعظهم على الطالع والنازل كما يقولون، ثم تجده في موقع آخر يكذب عليهم ويحاول خداعهم واستغلالهم ولا يتردد في سرقتهم وقد تصل فيه الصفاقة إلى خيانتهم؟.

ولكن هذا لا يقارن مع ما حصل مع صديق أثق بصحة ما حدَّثني به .. التقيته بعد فراق طويل في جنازة شقيقة صديق مشترك بيننا .. ولاحظت أنه كان – على الرغم من معرفتي بتدينه – يتحدث كمن يكره رجال الدين ومن يظهرون بمظاهرهم من رداء ولحية، فسألته عن التغيير الذي فعلته فيه الأيام .. وصارحني بما حصل له بعد عودته من رحلة حج طالما حلم بها .. وهو أن رجل الدين قائد حملة الحج التي شارك فيها، وبعد كل الصلاة والقيام والدعاء والوعظ والبكاء الذي رآه منه أثناء تلك الرحلة .. وبعد أن عادوا إلى دمشق .. حاول بصفاقة وسفاهة لا يمكن فهمها ولا تفسيرها أن يغري زوجته[1].

وهناك قصص لا تعد ولا تحصى تبرهن مقولتنا بأن التدين الآبائي التقليدي يسقط عند أبسط اختبار أو تجربة .. وأن هذا الصنف من الإيمان والاعتقاد لا يؤدي إلى عمل صالح راسخ ولا يمكن الوثوق بأصحابه على الدوام .. وأن الذين يمكن الوثوق بهم هم من آمنوا بعد إعمال عقولهم وفكروا وفهموا معنى عظمة الله وعلمه بكل صغيرة وكبيرة.

---

1 القصة كما ذكرت لي هي أنه وبعد أن سرد صديقي للشيخ في فترة الحج واثقاً به كثيراً من تفاصيل حياته وخصوصياته ومنها أنه كثير السفر .. صار الشيخ يتصل بالزوجة ليلاً فتخبره أن زوجها مسافر .. ثم أخذ يدردش معها بحجة إطمئنان الشيخ على رعيته .. وكانت تخبر الزوج، فيعتقد ان الأمر عادي ويعاود الاتصال به شاكراً إياه على اهتمامه .. ويعاود الشيخ الاتصال وفتح حديث مع الزوجة الغافلة .. ويدور الحديث عن الصلاة والصيام .. ثم عن موضوع آخر .. ثم عن علاقة الرجال بالنساء .. وكل ذلك بعلم الزوج ذي النوايا الحسنة .. إلى أن انتهت القصة عندما فاجأ الشيخ اللعين الزوجة مصارحاً باهتمامه بها قائلاً : اتركيه وأنا أتزوجك!.

وقد يكون ما استشهدت به هنا من أبسط الأمثلة التي تضرب للبرهان على صحة هذه المقولة .. وفي جعبتي أمثلة أخرى، كما أتوقع أن يعرف القارئ أمثلة أوضح وأقوى وأكثر إقناعاً ودلالة .. ولا بد أنه عرف مثالاً عن رجال دين معتبرين أو دعاة معروفين مشهورين تمكنوا من إخفاء نفاقهم لسنوات طويلة إلى أن فضحتهم مواقفهم، فاكتشف الناس الكذب والكفر الذي يطغى على أخلاقهم وقيمهم وأعمالهم ومعاملاتهم فكان فيهم لصوص محترفين استخدموا مظاهر الدين وهمهماته ليجمعوا أموال الناس بحجة استثمارها وتنميتها ثم سرقوها واختفوا.

ولكن المثال الصارخ الذي يؤيد موقفنا هم من تجاوزوا في انحرافهم وفسادهم حدود المكر والغش والدجل، وداسوا على الأعراف والأخلاق الإنسانية والقيم التي يقرُّ بها أصحاب الخلق من المؤمنين وغير المؤمنين، فوقفوا مع سفاكي دماء مخربين أو ظالمين مجرمين أو عديمي أخلاق فاسدين.

ونتساءل هنا: هل يمكن الاعتماد على الناس في مجتمع تقليدي آبائي في أي مشروع للنهضة أو للنجاح في أي مشروع حضاري؟ .. وهل يمكن المراهنة عليهم؟.

وماذا عن التضحية من أجلهم؟ .. وهل يستحقها المؤمنون الوراثيون وهم لم يشغِّلوا عقولهم بعد؟ .. وكيف يستحقونها ومعظمهم جاهلون وجبناء ويمكن أن يغيروا مواقفهم ومبادئهم من أجل تحقيق مصالح زهيدة في حياتهم، أو الخوف من فقدان أبسط هذه المصالح؟.

وعندما لا يكون الناس ناضجين راشدين ولا جاهزين للوقوف مع الروَّاد ممن يضحون بحياتهم أو راحتهم من أجلهم فما الجدوى من هذه التضحيات؟ .. أليس من الغباء أن يوقف هؤلاء الروَّاد حياتهم من أجل الدفاع عمن لا يفكرون ولا يفهمون؟.

وكم قص علينا القرآن من قصص وسرد لنا التاريخ من أحداث .. وكم من نبي أو مجدِّد أو مفكر أو عالم وجد نفسه حائراً أمام مواقف لا يمكن فهمها ولا تفسيرها عندما يصبح مداناً من قبل أولئك الذين كرَّس حياته ووقته ليحصلوا على شيء من الوعي أو الفهم .. فلم يلق منهم إلا الخيانة ولم يحصد سوى خيبة الأمل، وما كان منهم إلا لومه واتهامه بالهرطقة والزندقة والسحر والجنون .. وكم من رائد أو مصلح وجد نفسه موسوماً بالتهور ومتهماً بالتوريط لما أذنبه في السعي من أجل حرية الناس وكرامتهم .. وكم عبَّرت هذه الفئات عن رضاها عما كانت عليه من ركود واستقرار، وعن ندمها وأسفها على زعزعة حال الاطمئنان والانبساط التي اعتبرها ذلك "المتمرِّد المتهور" في غاية الذل والانحطاط، فطالبوا بالعودة إلى حالهم الأول ولو وضعوا فيه تحت النعال.

وكم تكررت مقولة سحرة فرعون عن موسى وهارون التي وثقها لنا كتاب الله عز وجل ﴿ قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴾ ؟ .

وهل نحن بحاجة إلى المزيد من الإخفاقات لنتعلم بعد فوات الأوان أن الشريحة الكبيرة من هؤلاء الوراثيين، والتي تشكل غالبيتهم، مع المؤسسات الدينية التي تضللهم والنظم التي تحكمهم وتتحكم في عقولهم وتظلمهم وجهان لعملة واحدة؟ .. ومتى نقتنع أن من قام بالتضحية بنفسه ومستقبله وحريته من أجلهم كان قد راهن رهاناً خاسراً وغبياً[1].

بل هل نصل إلى نتيجة تخفف عنا شيئاً من الألم والحسرة حين نفهم أن هؤلاء اللصوص وتلك المؤسسات والأنظمة عندما تتحكم وتتعسف وتظلم وتنهب هذه الشعوب فهي إنما تطبق ذلك على وجهها الآخر النائم المطمئن الذي عملت لعقود على تخديره وغسل دماغه؟.

لست هنا في صدد الإجابة على هذا التساؤلات التي تخطر على بالي عندما أنظر فأرى الملايين من "المسلمين" الذين يذهبون إلى صلاة الجمعة ويصومون رمضان، بل عادة من يمارسون كل طقوسه وتقاليده وأفراحه ويتابعون كل مسلسلاته أفضل منا، يقفون في صف واحد مع المجرمين والفاسدين والمستعمرين .. أو أتذكر موقفاً بالغ السوء من هؤلاء الناس، كالوقوف إلى جانب مضلليهم وجلاديهم والفاتكين بهم بدل الوقوف في صف من أرادوا توعيتهم وتحريرهم من جهلهم وآبائيتهم وظلم من يستغلونهم، ويعادوا من ضحَّوا بحياتهم وراحتهم من أجلهم .. ولست أملك جواباً عليها في الوقت الراهن.

ولكن التجربة علمتنا أن الأمر الذي ينبغي التأكيد عليه هو إعطاء الأولوية للعمل المستمر لسنوات وربما لعقود في تعزيز علمنا ومعرفتنا ووعينا، ونقل هذه المعرفة إلى الناس وتوعيتهم وإعدادهم ليكونوا على الدرجة المطلوبة .. والأمر الأكيد أيضاً هو ألا نُقدم على استعجال النتائج عندما لا نرى مؤشرات أولية واضحة ولو في حدِّها الأدنى على تغيير في وعي الناس وفهمهم وإمكانية تبديل مواقفهم المعهودة، ونتأكد أنهم أصبحوا مستعدين للاعتماد عليهم .. فلا بدَّ للنجاح وتحقيق نتائج مجدية من وقوف نسبة معقولة منهم في صف الرواد الذين يتصدرون معركة الصراع الفكري .. وعندها فقط يمكن أن يتحرروا من آبائيتهم والوصول إلى كامل حقوقهم الإنسانية وإسقاط المتآمرين والمستعمرين ومن يحارب دينهم.

---

1 هنا نطرح تساؤلات فقط، ولكن سيتم التأكيد لاحقاً على أن عدم الثقة بالبسطاء وعدم التهور من أجلهم بسبب جهلهم ووقوفهم مع أعدائنا ومحاربتهم لنا ولأفكارنا لا يعني عدم الوقوف إلى جانبهم .. بل يجب العمل على توعيتهم مهما كانت الظروف والوقوف مع قضاياهم العادلة في كل الأحوال مهما كان موقفهم سلبياً منا.

من العقم إلى الإثمار

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾

عندما نقرأ القرآن ونمعن التفكير في سوره وآياته يمكننا بسهولة أن نكتشف وجود خطأ ما في تعريفنا لكثير من المفاهيم الأساسية كالإسلام والإيمان والعمل الصالح، وأنها تختلف في كتاب الله عما تعلَّمناه من كتب التراث وعما يقول به رجال الدين .. وأن هناك شك في صحة فهمنا وتفسيرنا لمصطلحات الكفر والشرك والفساد، ومصطلحات كثيرة أخرى كالتقوى والقدر والذكر والدعاء والابتلاء.

وإن صحَّ وجود مشكلة في تعريف هذه المفاهيم والمصطلحات، فلن يكون صعباً أن نستنتج أننا نعاني من مشكلة في التفاعل معها .. وسنفصل في ذلك لاحقاً[1] .. وسنحصر اهتمامنا هنا بأحد هذه المفاهيم الهامة وهو (الإيمان).

وأياً كان صنف الإيمان الذي نحمله، فإذا علمنا أنه يرضي الله عز وجل ويثمر عملاً صالحاً، فيجب ألا نحزن أو نقلق أو نحمل هماً .. ومن أصدق من الله وعداً وعهداً؟ .. فهو تعالى سيخرجنا إلى النور ويعزنا وينصرنا ويستجيب لدعواتنا وستتحقق به عاجلاً أم آجلاً آمالنا في النهضة والحضارة والسير على منهج الله القويم ونيل رضاه والفوز بجنته.

ولكن يبدو أن **الحقيقة** مؤلمة فعلاً .. ولو كنت متأكداً من سلامة إيماننا لما فكرت في محاولة مراجعته وتقويمه .. بل أعتقد أننا نفهم الإيمان بطريقة عرجاء وقاصرة ومشوهة .. وأننا بحاجة لمواجهة أنفسنا بكثير من المصارحة والمكاشفة لنتمكن من سبر أغوار هذه القضية الهامة ومحاولة وضع الأمور في نصابها دون إهمال ولا تأجيل، مبتعدين عما تعوَّدنا عليه من مجاملات ومديح ومبالغة في الاطمئنان والطمأنة .. ونرتكب خطأً فادحاً إذا بقيت هذه المسألة غائبة عنا أو بقي فهمنا لها خاطئاً.

هناك حديث مروي مشهور يسأل فيه جبريل عليه السلام الرسول الكريم محمد عن معنى الإيمان والإسلام والإحسان قائلاً: فحدِّثني عن الإيمان .. فيجيبه ﷺ: (الإيمانُ أن تُؤمنَ باللهِ واليَومِ الآخرِ والملائكةِ والكِتابِ

1 سيأتي العمل على بيان المشكلة وإعادة تعريف المصطلحات ومحاولة فهمها بطريقة أهدى وأقوم في الكتاب الأخير من مجموعة (الخروج).

والنَّبيِّينَ وتؤمِنَ بالموتِ وبالحياةِ بعدَ الموتِ وتؤمِنَ بالجنَّةِ والنَّارِ والحِسابِ والميزانِ وتؤمنَ بالقَدَرِ كلِّهِ خيرِه وشرِّه .. فإذا فعَلتُ ذلكَ فقد آمنتُ).

وهذا الحديث يتطابق في الجزء الأكبر منه مع قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ .

ومع آيات كثيرة أخرى تؤكد على محورية الإيمان بالله **واليوم الآخر** ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ .

بل يعتقد معظمنا أن هذه هي أركان الإيمان الخمس أو الست، وأن معنى تحقيق الإيمان كاملاً هو اعترافهم بهذه الأمور ويقينهم بصحتها .. وكثير من المسلمين يعتقدون أن مجرد النطق بالشهادة قبل لفظ الأنفاس الأخيرة حدث عظيم ويحرصون على أن ينطق بها من يحتضر من ذويهم قبل موته ليطمئنوا على مصيره، ثم يلقنونه هذه الشهادة بعد دفنه ورمي التراب فوق جثته .. فهل ينحصر معنى الإيمان بأن نعترف أو نقر أو نشهد على صحة وجود ما نؤمن به، أم أن له معان أخرى أعمق وأوسع وأشمل من هذا الفهم الدارج الذي تكرسه المنظومة الفكرية السائدة وتؤكد عليه الكثير من الشواهد وعادات الناس وما هو شائع في الكثير من مواقفهم؟.

وإذا كان المقصود بالإيمان هو الإقرار بوجود الله الواحد الذي لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، والاعتراف بوجود الملائكة وكتب الله المنزلة ورسله واليوم الآخر، فنحن كعرب ومسلمين من أكثر أمم الأرض من حيث نسبة عدد المؤمنين في مجتمعاتنا .. وفيما عدا قلة موزعين بين ملحد أو مفسد فاجر يعلنون كرههم لله ورسوله، فإن معظم الناس في مجتمعاتنا يعلنون هذا الإيمان، وإن اختلفت نسبته بين شخص وآخر.

فهل هذا يكفي؟ .. وهل هذا هو حقاً الإيمان السليم الذي يريده الله تعالى منا والذي دعا إليه أنبياؤه ورسله وجاءت به كتبه؟.

إذا كان الجواب (نعم) .. فعلينا أن نجيب على سلسلة طويلة من الأسئلة الصادمة التي سبق أن طرحناها[1] .. لأن كل تفصيل من تفاصيل واقع المسلمين (كأفراد ومجتمعات) يخالف بحذافيره ما يخبرنا به كتاب الله الكريم عن حياة المؤمنين، ويتطلب تقديم أجوبة شافية عن أسباب هذه الأوضاع في عوامل أخرى بعيدة عن "إيماننا السليم".

أما إن كان الجواب (لا) .. واقتنعنا أنه ليس الإيمان الذي يريده عز وجل أو أنه لا يكفي، فقد خطونا خطوة هامة نحو الاتفاق.

---

1 سبق طرح هذه التساؤلات في الباب الأول .. حيث بينا الفارق الكبير بين واقعنا وما يجب أن يكون عليه واقع المؤمنين.

ليس من الإنصاف أن نطلق التعميم في جوابنا بالنفي .. ولا شك أن من يحكم على جميع الناس بهذه الطريقة فإنما يقف منهم موقفاً مجحفاً، فغالبية الناس في العالم الإسلامي يعلنون إيمانهم بالله واليوم الآخر، وهناك مؤمنون تقليديون وراثيون آبائيون في غاية الرقي والتحضر والإخلاص .. ويمكن أن نرى آثاراً مدهشة ورائعة لإيمان الإقرار عند عدد لا يستهان به منهم.

ولكننا إذا انتقلنا إلى تقويم الواقع، فسنرى أن هذا الصنف من الإيمان لا يفعل فعله في حياة الناس، ولا يثمر ثماره على أرض الواقع حضارة ورقياً وحسن تعامل وتعاون .. ولا يستنهض فيهم الطاقات المطلوبة ليحوّل سلوكهم من الركود إلى النشاط، ومن التقليد والجمود إلى التمرد على الأفكار البالية .. ولا يجعلهم يقومون بأعمال استثنائية من خلال ممارسة ما يعتقدون به والنضال من أجله، ونادراً ما تكون لهم رسالة يعملون على إنجازها كاملة وبأروع صورها دون كلل ولا ملل كما هو متوقع من المؤمنين.

وهو (من غير تعميم) إيمان عقيم، بل قد تكون له نتائج وآثار مغايرة تماماً وأحياناً معاكسة لما يؤمل من الإيمان الصحيح .. فهو إيمان جهل وغياب أفقد الكثيرين منا وجهتهم ولم يعد يساعدهم على حل مشكلاتهم أو التغلب على أسباب قصورهم وتخلفهم، ولا على إبعاد أنفسهم عن دوامة الفساد في الأرض، أو لدفعهم إلى بذل جهودهم لمنع هذا الفساد أو الحد منه، ورفع الظلم عن المظلومين وإحقاق الحق وصون كرامة الإنسان.

ولو كان الإيمان المطلوب هو مجرد الإقرار بوجود الله واليوم الآخر، أو كان الإيمانَ الوراثي الذي يحمله غالبية المسلمين اليوم، لكان له دور جليٌّ في حمل الأكثرية من ورثته من المقلدين الآبائيين على شيء من الاكتراث والمبالاة فيقومون بعمل ما لئلا يبقى الوضع الراهن على ما هو عليه .. ولما رضي المقرُّون به مهما كان سيئاً، ولا أسهموا في تكريسه، ولما كان لسان حالهم يقول إن الدنيا بخير على الرغم مما يقوله المتشائمون وجلادو الذات من أمثالنا.

ثم إذا كنا نؤمن بوجود الله تقليداً أو تلقيناً أو بسبب فطرة فُطر الناس عليها .. فما الذي يقودنا إلى الإيمان بالملائكة مثلاً؟ .. بل ما الذي يعنيه أن نؤمن بهم؟ .. هل يعني أن نؤمن بوجودهم؟ .. وما الذي يقدمه ذلك أو يؤخره؟.

وهل إيماننا باليوم الآخر يعني أن نقر بوجود هذا اليوم؟.

إن الله تبارك وتعالى موجود على كل حال، فما الذي يضيفه إقرارنا بهذا الوجود؟ .. واليوم الآخر آت سواء صدقنا ذلك أم لم نصدقه .. والملائكة موجودون على كل حال، فما الذي يضيفه إقرارنا بذلك؟ .. ووجود كتب الله تعالى ورسله السابقين قائم على كل حال، فما الذي يضيفه إعترافنا؟.

وهل يقول لنا العلم شيئاً عن اليوم الآخر أو الجنة أو النار أو الحساب أو العقاب؟.

وماذا يعني أن نؤمن بكتب الله؟ .. وكيف نؤمن بها وهي غير موجودة أصلاً بين أيدينا؟ .. ومتى اطلعنا عليها وفهمناها لنؤمن بها ومعظمنا لا يعرف شيئاً عنها ولم يقرأ سطراً واحداً مما تحتويه؟.

وإذا فهمنا من الآية أن إيماننا بالتوراة والإنجيل مثلاً هو شبيه بإيماننا بكتاب الله الخاتم الذي تعهد الله تعالى بحفظه والموجود بين أيدينا .. فأين هي الكتب الأخرى كما أنزلها الله لنقرَّ بما جاء فيها؟ .. ألسنا نعتقد أنها حُرفت وزورت ولم تعد كما كانت يوم أنزلها الله عز وجل[1] على رسله؟ .. ألا يخبرنا القرآن أنه قد أعمل فيها الكثير من التزوير والتحريف والإخفاء والإضافة ما جعلها بعيدة عن أصلها؟ .. أم أن معنى الإيمان بها هو أن نؤمن أنها كانت رسالة من الله على أيدي الرسل .. وأنها كانت حقاً كما نزلت .. وما الذي سيقدمه اعترافنا وإقرارنا هذا؟.

وكيف نؤمن برسل لم نرهم ولم نعرفهم؟ .. وما قيمة إيماننا بهم بغير علم ولا دليل، والله عز وجل يدعونا في كتابه الكريم ألا نتبع إلا ما نملك عليه علماً وبرهاناً ودليلاً؟ .. أليس عز وجل يأمرنا: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ ؟.

إن العلم لا علاقة له في الوقت الحاضر بهذه الأمور .. كما أن التفكر والنظر لا يوصلنا إلى أي معرفة تخصُّها أو تتعلق بها أو تدل عليها .. وهذه مسائل خارجة عن حدود العلم وتخصصاته ومجاله، كما أنه لا صلة لها بالتفكر وطرقه.

ثم إن الإيمان الذي يقف عند الاعتراف بوجود الله شأنه كشأن الإيمان الآبائي .. قد يكون له قيمة أحياناً، ولكن قد لا تكون له قيمة أبداً عندما لا يعرف المؤمن ما يجب أن يصدِّقه فيما يقال له عن الإله الذي آمن به وما يجب ألا يصدِّقه .. أو لا يعرف ما يجب أن يقبله مما يروى له عن أنبياء الله ورسله وما يجب أن يحرقه ويرميه .. بل قد يكون إيماناً سطحياً فارغاً **يُدخل صاحبه في نفق مظلم** عندما تفسر له رسالة الله بطريقة شاذة أو منحرفة ويستمر بقبول هذا الفهم والتفسير دون أي مراجعة أو تفكير .. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ .

وماذا يعني أن يطلب الله تعالى من الذين آمنوا .. أن يؤمنوا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ .. هل يقصد بـ (**الذين آمنوا**) أولئك الذين يقرُّون بوجود الله ورسوله واليوم الآخر؟ .. وماذا يعني أن يطلب منهم أن يؤمنوا؟.

---

1 لا يوجد بين اليهود والنصارى من يدَّعي أن العهد القديم والعهد الجديد كتب منزَّلة من الله عز وجل .. بل يقرُّون أنها كتابة بشرية لا علاقة لها بما نعتقد أنه أنزل على موسى وعيسى عليهما السلام (التوراة والإنجيل).

أمَّاذا يعني أن يطلب منهم أن يتقوا الله حق تقاته؟ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ .. وهل هم من المؤمنين الذين يقولون ما لا يفعلون؟ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ .. ولو لم يكن إيماناً فلماذا يخاطبهم بهذه الصفة؟.

يظهر من هذه الآيات أنه إيمان .. ولكنه ليس إيماناً بالنوعية والمستوى الذين يريدهما تعالى .. وليس هو الإيمان الموصوف في كتاب الله الذي يفضي إلى ما يجب أن يفضي إليه من تقوى وعمل صالح والتزام بأمر الله ورسوله وتحقيق رضاه.

وربما نكون هنا أمام معنيين للإيمان وللمؤمنين:

الإيمان الأول يقصد به المسلمون الذين آمنوا بالله واليوم الآخر إيماناً آبائياً تقليدياً أو إيماناً في حدود الإقرار بوجود الله عز وجل والاعتراف باليوم الآخر وما فيه من جزاء وحساب، والشهادة بالتصديق برسوله الخاتم وأن ما جاء به من عند الله حق وخير .. ويصومون رمضان ويحجُّون ويذكرون الله تبارك وتعالى ويدعونه ويصلُّون على رسوله الكريم .. بل يشمل هذا النوع من الإيمان برأي عدد من المفكرين ليس فقط الذين يسعون إلى صلاة الجمعة .. بل جموع اليهود الذين يطبقون ديانتهم الموروثة بتفاصيلها .. والنصارى الذين يصلُّون صباح الأحد في الكنيسة ويتبعون تعاليم رجال دينهم سالفاً عن سالف .. ولو كان إيمانهم مشوهاً منحرفاً طاله الكثير من التزييف والتضليل.

أما الإيمان الثاني فيقصد به من أقروا بوجود الله تعالى ثم تفكروا، فعزز تفكرهم إيمانهم، فأثمر موقفاً سليماً وعملاً صالحاً.

الأول هو صفة المؤمن بمعنى (**مشروع مؤمن**) وهم الغالبية الساحقة ممن نسميهم مسلمين، وربما تنطبق عليهم الآية الكريمة التي وصفت حال الأعراب﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ .. وهؤلاء هم الذين يدعوهم الله عز وجل إلى تصحيح وتصويب وتقوية إيمانهم .. فهم لا يزالون على شيء من الاستكبار على الحق وقلة الشكر لله بعيدين عن الالتزام بأمره ولو خالف ما جرت عليه عاداتهم وتقاليدهم وما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم .. وهم يقدِّمون كلام البشر وآراءهم على كلام خالق البشر ورازقهم ومعيلهم .. وهم يعيشون في قليل أو كثير من الظلم والجهل والفساد والتكذيب .. ولا يختلفون في ذلك عمن سبقهم من الأمم التي انحرفت شيئاً فشيئاً إلى الضلال البعيد.

وأصحاب النوع الثاني هم الذين يرضى الله عز وجل عن صحة إيمانهم ودرجته .. وهم من وصفهم القرآن بأنهم ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ .. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ

وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ .. ويتمتعون بصفات ومواقف لا تجدها في عامة المسلمين .. فهم ليسوا ممن ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ وإنما كما يصفهم: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ .

ولكننا نخطئ حين نساوي بينه وبين الإيمان القائم على الاختيار والعقل .. فالأول (عادة) هو إيمان عقيم .. يقف صاحبه على شفا جرف هاو يمكن أن ينهار في أي لحظة فيسقط معه إلى قليل أو كثير من الظلم أو الشرك أو الفساد .. وهو في المحصلة النهائية والعامة لا يعطي النتائج المرجوة (عمل صالح) .. أما النوع الثاني فهو إيمان فاعل يقف على أرض ثابتة صلبة، وصاحبه مصان من الانزلاق إلى ما يغضب الله تعالى ويسيء إلى عباده ومخلوقاته أو يفسد في ملكه.

وعندما نساوي بين إيمان الإقرار التقليدي السطحي الموروث والإيمان القائم على التفكر والعقل والاختيار والاقتناع .. نكون كمن يساوي بين نور الشمس الساطع ونور شمعة في كهف .. كلاهما نور ولكن شتان بين النورين .. أو نكون كمن يساوي بين الفحم والماس .. كلاهما من عنصر كيماوي واحد هو الكربون .. ولا أحد يقول أن الفحم ليس له فوائد؟ .. ولكن شتان بين المادتين.

وقد ظهر لنا من خلال تحليل الواقع في الباب الأول، وما نرى ونقرأ ونسمع عن مجتمعاتنا الإسلامية، **أن** الإيمان الذي يقوم عليه عمل المسلم اليوم هو إيمان هش فارغ .. ويمكن لنا أن نستنتج في حدود معرفتنا وخبرتنا في الطريقة التي يتصرف أفرادها ويتعاملون فيما بينهم .. **ومن غير تعميم** .. أن هذا النوع من الإيمان لا يستطيع أن يصنع من حامله كائناً شبيهاً بتلك القامات الشامخة التي يسمع ويقرأ عنها ويحاول جاهداً تقليدها دون جدوى ..

فترى فينا من يتظاهر بالشرف، مع أنه ليس شريفاً .. ومن يتظاهر بالزهد، بينما تتمحور حياته واهتماماته وهمومه حول الدنيا وزينتها وما يستطيع كسبه وجمعه منها.

وعلى الرغم من المحاولة البائسة التي يحاول فيها صاحبه أن يبدو في أعين الناس كمن يعتبرهم مَثله الأعلى وأسوته في التقوى والخلق والتحضر، فيهتم بشكله ومظهره من لباس ولحية وعطر وتنطع وتكلُّف في الكلام والحركة، لا يمكِّن إيمان الإقرار التلقيني التقليدي الآبائي الموروث حامله من التغلب على عادة واحدة من عادات أو عاهات مجتمعه التي تتنافى مع كل قيمه، أو تقليد واحد من تقاليده البالية، ولا يؤهله لتغيير معتقد ساذج واحد من معتقداته التافهة الباطلة التي تتناقض مع كتاب الله .. ولا يساعده على تغيير سلوك واحد من سلوكياته التي لا يحبها أو لم يعد يتقبلها البشر بكل مذاهبهم ومشاربهم .. ولا ينفعه في التمكن من التخلي عن أخلاق لم تعد مقبولة حتى عند الملحدين والمشركين، ولا حتى عند عبدة التماثيل والحجر والنار والشجر، ولا عند من لا يعبدون شيئاً ولا يؤمنون بأحد.

الفصل السابع: تقويم وزن الإيمان وطاقته

بين العلم والبرهان والتسليم

﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾

هل الإيمان على مستويات ودرجات؟ .. وكيف يمكن أن نقيس هذه الدرجات؟.
وما هي الدرجة المطلوبة لنتمكن من حصاد نتائجه؟ .. وكيف نحقق هذه الدرجة من الإيمان؟.
وما الفرق بين درجة إيمان (الإقرار) الشائع ودرجة الإيمان القائم على المعرفة؟.
وما العلاقة بين العلم والإيمان؟ .. وما الفرق بين التسليم والبرهان؟.
وما هي خلاصة معنى هذا الإيمان والمؤشرات التي تدل على سيرنا في الطريق الصحيح الوصول إليه؟.

طاقة الإيمان

محورية التفكر والمعرفة

عندما يقول أحدنا أنه يؤمن بالله، فالسؤال الذي يجب أن يطرحه على نفسه هو: **ما هي قوة هذا الإيمان وما هي صحته؟** .. هل هو إيمان ضعيف أم متوسط؟ .. حسن أم قوي؟ .. أم أقرب إلى الكمال كإيمان الأنبياء والصالحين؟.

وإذا افترضنا أن المسلمين لم يوصلهم جهلهم وآبائيتهم إلى فقدان إيمانهم السليم، وأنهم لا يزالون يحتفظون بقسط منه، فهل يمكننا القول أن المشكلة ليست في (الإيمان) بل في (طاقة الإيمان)؟ .. وأن نعترف أيضاً أن إيمانهم أضحى وبدرجات متفاوتة ضعيفاً، ولم تعد فيه الطاقة الكافية ليحقق آثاره والنتائج المتوقعة منه؟.

ولو افترضنا أن الإيمان درجات، وكانت هذه الدرجات (بضع وسبعون) كما في الأثر[1]، أعلاها درجة الإيمان الكامل قولاً وعملاً والخضوع لإرادة الله، وأدناها شيء من آداب السلوك .. أفلا نتوقع من راصد محايد أن يصل إلى نتيجة مفادها أن الإيمان الذي تحمله الشعوب الإسلامية – من غير تعميم – لا يتجاوز في طاقته درجة الإيمان في أدنى شعبه، وإذا صح تقدير هذا الراصد، فهذه النسبة من الإيمان لا تقدم ولا تؤخر على مستوى الحياة والمعاملات والمواقف، وليس فيها شكر لله ولا تقدير له عز وجل حق قدره ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ .. ولا تصنع عملاً صالحاً ولا تمنع فساداً .. (ومع وجود استثناءات بطبيعة الحال)[2] .. فهذا واقعنا بين أيدينا يفقأ العين.

هو إيمان .. نعم .. ولكنه إيمان شبيه بإيمان قريش وإقرارهم ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ .. ولكنهم رفضوا تطبيق مبدأ المساواة بين البشر، وهو ما يفترض أن يحركه الإيمان الصحيح، واستكبروا على الجلوس مع بلال.

---

1 (الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق).

2 يلاحظ القارئ أنني أحاول تكرار هذه العبارة، وربما يجب وضعها كقاعدة عامة لكل ما ورد في الكتاب .. فهي تشمل الكثير من مضمونه وإن نسيت في بعض المواقع ذكرها.

وللإيمان درجات .. فالإيمان بالله تعالى يزداد من مجرد التصديق والإقرار بوجوده عز وجل، إلى اليقين بكامل أسمائه .. يقين يؤدي إلى نتائج إيجابية على أرض الواقع .. وفي أبهى صوره إحسان وبُعد كامل عن الشرك والظلم والفساد.

كما يزداد بزيادته اليقين باليوم الآخر، فإذا وصل إلى درجة عالية كان ذلك كفيلاً بأن يجعل صاحبه في أعلى مراتب الخير والبر والشكر لله تعالى.

ولا يعني السير على طريق الإيمان التحول إلى ملائكة وعدم الوقوع في المعاصي والأخطاء، ولكن ازدياد درجة الإيمان وطاقته يقلل المعاصي ويقلل الفساد .. فإذا رأينا فساداً كبيراً دلَّ ذلك على ضعف في طاقة الإيمان أو تشوه في فهمه.

والإيمان يمكن أن ينقص ويزداد .. لدرجة أن بعض الناس يكون حاله كما ذكر الحديث يُصبحُ الرَّجلُ مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويُمسي مؤمنًا ويُصبحُ كافرًا .. وربما هذه هي حال الكثيرين منا.

وفي القرآن الكريم مؤشرات على شكل نتائج تدلنا على مستوى إيماننا .. فإذا كان الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ .. ونظرنا وتساءلنا: هل يتعامل الناس في العالم الإسلامي كأخوة على مستوى الأفراد والمجتمعات والدول؟ .. وتستمر قائمة التساؤلات هذه التي سبق أن طرحناها واحترنا في الإجابة عليها.

وطاقة الإيمان هذه تزداد بزيادة معرفتنا بما نؤمن به .. فإذا أعلنَّا إيماننا بالله وكانت معرفتنا به تعالى ناقصة أو مغلوطة، فإن ذلك يسبب خللاً في مفعول إيماننا فيغدو من غير طاقة محركة وفي حده الأدنى إيماناً عقيماً.

وهناك من يقول إن الإيمان فينا مفقود أو أننا نحمل عقيدة الشرك وأن حياتنا كلها فاسدة .. وأن العدل معدوم فيما بيننا أو أنه لا يوجد فينا من يقوم بالأعمال الصالحة على الإطلاق .. ولا يمكننا أن نوافق على هذا الكلام، ولكن لنا أن نتساءل عن قوة هذا الإيمان في أنفسنا وفيما إذا كنا نعاني من مشكلة في النقص درجته وطاقته.

والقرآن الكريم يكرر عشرات المرات التلازم بين الإيمان والعمل الصالح ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ .. وإذا تخيلنا المنظومة الفكرية على شكل بناء من عدة طوابق – كما سنبين بالتفصيل في بحث (إعادة البناء)[1] – وأن الإيمان يسكن في الطابق الأول .. فقد يساعدنا الإيمان التقليدي الوراثي لنصعد درجة أو درجتين، ولكنه لا يستطيع بقوته وطاقته القاصرة أن يوصلنا إلى الطابق الثاني حيث يقطن (العمل الصالح).

1 الكتاب الثالث (تمهيد الطريق)، باب (إعادة البناء) .. في فصل (منظومة الإيمان والعمل الصالح).

وعندما يتقدم الطلاب إلى امتحان ويحصل أحدهم على درجة عشرين أو ثلاثين من مائة، فليس لأحد أن ينكر عليه هذه الدرجة مهما كانت ضعيفة .. ولكن درجة محددة ومعروفة مسبقاً هي التي نسمي من يحصل عليها ناجحاً، وهو من يمكن له أن يترفع إلى المستوى الأعلى.

وكذلك الإيمان .. فقد يؤمن الإنسان بالله بمعدل أو طاقة تساوي عشرة أو عشرين أو ثلاثين من مائة .. ولكن هناك درجة من الإيمان هي التي تكون مقبولة .. هي درجة يصف فيها تعالى أصحاب هذا المستوى بأنهم في مستوى الإيمان الحق ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ .. الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ .. أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ .

فما هي العوامل التي تزيد من طاقة الإيمان **ليفعل فعله فيؤدي أحدنا دوره وينجز رسالته ويخرج إلى النور بإذن ربه** وترتفع به إلى **موقف سليم وعمل مؤثر إيجابي في الحياة** فيحقق رسالة الاستخلاف في الأرض ويبتعد عن أصناف الفساد؟.

هل يكون ذلك بزيادة معرفتنا بما نؤمن به، أم بجرعة إضافية من الإيمان الوراثي الذي نحمله؟ .. أم أنه في تصفية هذا الإيمان الموروث ليظهر دين الله الأصيل على حقيقته بعيداً عن الشرك والجهل والظنون، وعزل ما علق به من أفكار غريبة لا تتوافق مع كتاب الله، وإزالة ما أصابه من آبائية وخرافة وجهل وتشويه وتحريف؟.

أم يكون بإعادة فهمنا لكتاب الله بعد النهل من العلوم والتزود من المعرفة التي حثنا هذا الكتاب على التزود منها وتثبت لنا صحته ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ .

وهنا نعود إلى كتاب الله محاولين فهم هذه المسألة بشكل أفضل ونتساءل:

ما الذي جعل السحرة يعلنون أن آمنا برب موسى وهارون؟ ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ .. رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ .. وكيف اختفى الخوف من الطغيان والجبروت والإرهاب الذي كان يمثله فرعون ويمارسه عليهم؟ .. وأين تلاشى الخوف من عقابه وجبروته؟ .. أين ذهبت الرهبة منه؟ .. وأين اضمحلت العبودية في نفوسهم وزال منها الخنوع؟.

ما الذي حوّل هؤلاء السحرة من مصلحيين انتهازيين يسألون فرعون: ﴿إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ ؟ .. إلى قوم يخاطرون بحياتهم من أجل عقيدتهم عندما قرروا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ .. وأعلنوا:﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ .. كيف لم يكترثوا بتهديده لهم ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ .. وكيف ارتقوا في صباح ذلك

اليوم إلى هذه الدرجة من الخسارة ليجيبوه: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ .

وما هو الإيمان الذي نقل مجموعة من العرب القساة **من قوم متقاتلين** يمارسون أنواع الجهل والتخلف إلى رجال ونساء يشعرون بأخوة لا مثيل لها، فنجد فيهم قامات من أمثال مصعب وحمزة وأبي بكر وعلي وعمر وأبي ذر .. وغيرهم؟.

ما الذي حوَّلهم إلى رجال ونساء نشعر بالحرج من ذكر اسم أحدهم دون أن نتبعه بقولنا: (رضي الله عنه)؟ .. ما الذي حوَّل ذلك العبد النكرة المطيع المقهور إلى رجل لا نذكره إلا ونقول سيدنا بلال؟.

ما الذي يتغير؟ .. وما الذي يمنع تكرار مثل هذا التغيير؟.

إن المفاجأة المدهشة المؤثرة التي جرت على يدي موسى وقلبت الأمور رأساً على عقب عندما ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ .. ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ .. وما حصل لمن آمن بعيسى عليه السلام بقوة ما جاء به من آيات غير مألوفة بإذن الله .. وما حصل للمؤمنين الأوائل بما جاء به محمد بن عبد الله من عقيدة جديدة في توحيد العبودية لله وإسقاط عبودية البشر للبشر .. ربما هذا وأكثر هو مستوى الإيمان الذي يريده الله أن يحصل لمن يؤمن به من خلال التفكر في آياته.

وبدلاً من رؤية حادثة خارقة للسنن الطبيعية، أو العيش في زمن رسول يتواصل مع السماء، يريده الله أن يفهم أن آيات كتاب الله المنشور (الكون) وآيات كتابه المسطور (القرآن) لا تقل إعجازاً وإدهاشاً وتأثيراً في عصرنا وفي ضوء معرفتنا المتزايدة عما فعله موسى في عصره بقلب العصا إلى ثعبان مبين، أو ما عرضه عيسى من آيات بينات، ولا عما جاء به الأنبياء من خرق للسنن .. فالسنن والقوانين الكونية هي بحد ذاتها آيات أكبر من ذلك الخرق الذي حصل مرة وأدهش من لم يعرفوا ما نعرفه اليوم عن عجائب سنن الله وإبداعه في خلقه.

والكون لا يزال موجوداً كما في زمان كل نبي، وآياته كما هي تبهر العقول، ويتم اكتشافها أكثر وأكثر، وقد تقدم علمنا بها، وهو يتقدم كل يوم بخطوات كبيرة وتسارع مذهل .. ولا يمكن معرفة عظمة الله ما لم نعرف العظمة في خلقه، وهذا يحتاج إلى مواكبة ما وصل إليه العلم في محاولة فهم كيفية خلق الكون والنجوم والعناصر الكيماوية، وكيف تشكلت الأرض ووجد القمر، وكيف خلقت الحياة والإنسان وبقية الكائنات، وتلك الدقة العجيبة في هذا الخلق في مراحله التي امتدت إلى مليارات السنين﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وذلك التوازن الدقيق الذي بدونه ما كان للشمس أو الأرض أو الحياة أو الإنسان أي وجود ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ .. ولما وجدت الكثير من العناصر التي نجدها على الأرض﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ .. ناهيك عن التراتب

والتسلسل المحير للخلق ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ .. عندها فقط يمكن أن نعرف هذا الرب الذي ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ .. وكيف قدَّره وأحسن تقديره وأبدع فيه.

وآيات الله في الكتاب المسطور لا تزال محفوظة كما نزلت على الرسول الخاتم عليه الصلاة والسلام، ولكنها تحتاج لمن يعيد قراءتها وفهمها، ليس كما فهمها من تأثروا بها أول مرة فحسب، بل بفهم جديد يتجاوزه في ضوء ما يقدمه العلم من معلومات وما يكشفه لنا من آيات عظيمة في الكون والأرض والإنسان والمجتمعات.

والقرآن الكريم عندما يتحدث عن المؤمن الحقيقي فإنما يتحدث عن إيمان إنسان ناضج راشد فاهم عارف يقرأ ويسير وينظر ﴿فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ﴾ .. ويتفكر ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ .. فيقوده ذلك إلى الإيمان بخالق عظيم بما تنطوي عليه أسماؤه الحسنى الجليلة .. فيتوجَّه بالعبودية له وحده عز وجل ولا يشرك به أحداً ويطيعه ويستسلم لأوامره ويحسن عمله وفق منهجه.

والإيمان بالله لا يعني فقط أن ندعوه وحده، ونذكره وحده، ولا يعني فقط أن نمتنع عن التوسل بمحمد وآل محمد واللجوء إليهم أو إلى غيرهم من الأولياء والصالحين .. ولا يعني فقط ألا نقارن بكتابه أي كلام آخر بما في ذلك كلام نبينا محمد بن عبد الله العبد الفقير إليه تعالى[1].

بل يعني أن يمتلئ القلب بالشعور بعظمة الله وقدرته وعلمه وحكمته وفضله وعدله .. وأن يفيض باليقين أن ما أمرنا وأوصانا به هو الحق المطلق .. فنستسلم لأوامره .. ونطيعه فلا نعصيه، ولا نطيع غيره بما يخالف أوامره .. ونكرس حياتنا من أجل نجاح منهجه على الأرض، ونسهم في محاربة مظاهر الفساد والظلم وإهانة الإنسان .. ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ .. ونكون مع الحق والعدل والإصلاح من أكبر قضية في العالم .. إلى أصغر قضية في حارتنا وبيوتنا.

1 غني عن الذكر ألا نقارن بكلامه المحفوظ عز وجل كلاماً منقولاً وصلنا عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا كلام صحابي أو تابعي .. ومن باب أولى ألا نقارن بكلامه عز وجل كلام فقيه أو مفسر أو مجتهد بما فيهم من لهم مكانة خاصة عند المسلمين كبعض الرواة والمحدثين والأئمة والفقهاء من بخاري أو شافعي أو رفاعي .. ولا – بطبيعة الحال – رأي رجال الدين الصالحين أو كل من هب ودب من مشايخ ورجال دين من التافهين والنصَّابين .. وهؤلاء الأخيرون جميعاً وبدرجات متفاوته من الكرامة والاحترام عبيد، لا تبقى قيمة أو معنى يذكر لأقوالهم وآرائهم عندما يحين ذكر الله وكلامه.

العلم والإيمان والقرآن

العلاقة الوثيقة

جعل القرآن الدليل على صحته في العلم والبحث والتفكر والمعرفة ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ .. وحث على النظر في آيات الله في خلق الأرض والكون والإنسان .. فهذا الكتاب في أصله أرسل لقوم يتفكرون ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾، ويعقلون ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .. وليتدبَّر به أولو الألباب ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ ﴾ .

والمسلمون، وبسبب قرائن كثيرة يجدونها في كتاب الله ومقارنتها مع ما يحيط بهم، يؤمنون بأن هذا الكتاب هو كلام الله عز وجل، وبأنه لا قبل لبشر الاتيان بمثله أبداً .. ومن ثم يؤمنون دون حاجة إلى دليل أو برهان بما جاء فيه من معلومات وأخبار بما في ذلك ما ورد فيه مما لا يمكن إثباته بوسائل العلم التي بين أيديهم.

إنه إيمان غيبي تسليمي .. نصل في محصلته إلى حال من الإقرار والاطمئنان واليقين بأن (القرآن) الذي بين أيدينا اليوم هو كلام الله، وبأنه حق كله ﴿ المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ .. ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . . لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ .. ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ .. وبأنه حق فوق العلم[1] القليل الذي حصَّلناه ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ وفوق عقلنا القاصر الذي لا يستطيع إدراك كل شيء، وفوق التاريخ المليء بالظنون والأهواء، وفوق التجربة التي لم تكتمل بعد، وفوق الأحداث التي لا نعرف تأويلها وفهمها جيداً، وفوق العواقب التي لا ندرك الحكمة من كثير من تفاصيلها .. وقس على ذلك بقية الأمور الواردة فيه .. فإن تهيأ لنا وجود خطأ أو سهو في هذا الكتاب فيجب أن نراجع أنفسنا وطريقة فهمنا.

فالقرآن في نظر المسلمين حق عندما يتحدث عن عظمة الله تعالى وأسمائه .. وحق عندما يخبرنا بقصة خلق الكون والأرض والإنسان .. وحق عندما يذكر لنا كتب الله وقصص الأنبياء والمرسلين .. وحق عندما ينبئنا بأخبار الأمم السابقة .. وحق عندما يصف لنا الجن والملائكة .. وحق عندما يحدثنا عن الآيات التي حصلت في

1 ربما لا يزال مبكراً لتقول أن دليل صحة القرآن تأتي من العلم والمعرفة .. وأنه فوق العلم (الراهن) وليس العلم بإطلاق.

أزمان سابقة .. وحق عندما يتحدث عن سنن الله التي لا تتغير ولا تبدل .. وحق عندما يخبرنا عن مصيرنا بعد الموت .. وحق عندما يصف لنا أحوال اليوم الآخر بما فيه من حساب وثواب وجزاء ومن جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين الصالحين المؤمنين النافعين المستقيمين، وما فيه من عقاب وعذاب ونار وقودها الناس والحجارة أعدت للمشركين والكافرين والمعرضين والمفسدين والظالمين.

وعندما يحدثنا القرآن عن الأمور الغيبية الكونية منها والتاريخية والمستقبلية والأخروية، **فليس هناك بين أيدينا – في الوقت الحاضر على الأقل – أي أدوات علمية تثبت بالبرهان أياً منها** .. بل إن كثيراً من هذه الغيبيات لا تعتبر من مواضيع العلم أصلاً، أو يمكن لمن شاء أن يقول أن العلم لا يزال قاصراً عن سبر كنهها .. ولكن إيماننا بصحة كتاب الله هو الذي يجعلنا نسلّم بصحة ما جاء فيه، ولا نستثني من ذلك جملة أو كلمة واحدة.

ويمكننا على هذا الأساس أن نُجمل فهمنا لمعنى حقيقة الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر بالنسبة لنا كمسلمين، بأنه التسليم بها تماماً كما وردت في القرآن الكريم دون زيادة ولا نقصان.

وعندما نوقن أن القرآن حق كله لا يقف معنى الإيمان بالله عز وجل أن نقر ونسلِّم بوجود الله فحسب، بل أن نعرف أنه جل وعلا لا مثيل له في خلقه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ .. فأسماؤه عظيمة وجميلة وجليلة وفريدة .. إله واحد لا شريك له في الخلق والملك .. ونؤمن بعلمه الكامل وعدله المطلق، ورحمته التي وسعت كل شيء .. وأنه تبارك وتعالى رحمان عظيم ، كريم رحيم، لطيف خبير ، عزيز جبَّار حكيم .. وأنه نور السماوات والأرض، وأنه المالك ولا مالك غيره، والرازق ولا رازق غيره .. وأنه هو وحده المسيطر والمدبر والفعال لما يريد .. وأن له كمال القدرة والهيمنة على الكون والحياة والإنسان وجميع المخلوقات.

كما نؤمن بكل أسمائه الأخرى، ولا نبتكر من عندنا أو نصدق من يدَّعون بجهل صفات منافية لها أو صفات تقلل من شأنها أو تتناقض معها أو أي صفات من نسج خيالنا ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ .. ثم نتصرف على هذا الأساس .. فلا نقارن به تبارك وتعالى أياً من مخلوقاته .. فكل شيء هالك إلا وجهه .. وغيره ممن خلق من مخلوقات وبشر ، ومن رسل وأنبياء بمن فيهم محمد وآل بيته وأصحابه، وكل الرسل السابقين، ومن نعظِّمهم من ملائكة وملوك وأباطرة وأئمة .. كلهم عبيد يتنافسون أمام جلال سلطانه العظيم بأعمالهم وبما أنعمه عليهم لإرضائه ونيل مغفرته.

وعندما نعرف الله جيداً، كما سنعود إلى ذلك في فصل (معرفة الله)[1] من خلال التعرف على هذا الكون المدهش وما فيه من آيات، ومن خلال ما عرَّفنا تبارك وتعالى بجلاله العظيم في كتابه الكريم .. نعظِّم الله ونتواضع أمام

---

1 موضوع (معرفة الله) هو أحد فصول (البحث عن مخرج) من الكتاب الثالث (التمهيد).

قدرته وعلمه، ونشكره على فضله ونعمه، ونستسلم لإرادته ونلتزم بأوامره، ونسعى لتحصيل كل معاني التقوى والعمل الصالح.

وعندما نؤمن بالقرآن نؤمن باليوم الآخر كما وصفه لنا هذا الكتاب الكريم دون زيادة ولا نقصان .. فنؤمن بيوم يكون فيه القيام ومن ثم الحساب والجزاء ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ .. يلقى فيه الناس مصيرهم بما يتناسب مع أعمالهم في الحياة الدنيا ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ .. ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ .

وهل هناك مصدر يمكن الإعتماد عليه في معرفة اليوم الآخر غير ما جاءنا من الله عز وجلَّ عن طريق كتبه ورسله؟.

وبإيماننا أن القرآن حق كله نؤمن بالملائكة كما ذكرهم لنا ووصفهم، فهم لا يعصونه عز وجل، ولا يحيدون عن أمره قيد أنملة .. ونتعرف من خلاله على صفاتهم وأحوالهم .. وذلك كله دون زيادة ولا نقصان عما ورد في كتاب الله عز وجل .. كما يمكن لنا الاستئناس بإيماننا بالملائكة وصفاتهم في كل حديث صحيح ورد عن رسول الله ﷺ دون أن يخالف القرآن الكريم في ظاهره أو باطنه من قريب أو بعيد، ودون إجبار أحد على هذه القناعات أو اتهامه إذا لم يقتنع بها.

وبإيماننا بالقرآن نؤمن أن كتباً وصحفاً أنزلت على رسل الله السابقين، ونؤمن أنها نزلت كما وصفها حق وهدى ونور .. فالتوراة حق .. والإنجيل حق .. وصحف إبراهيم وموسى حق .. والزبور الذي أوتي لداوود حق .. ونؤمن أن رسالة كل الرسل والأنبياء قد جاءت من مصدر واحد، فهي متوافقة في أسسها كلها من إدريس ونوح عليهما السلام إلى إبراهيم فموسى وعيسى وصولاً إلى محمد صلى الله تعالى عليهم وعلى جميع الأنبياء والمرسلين .. وهي تنص على أمور مشتركة ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾ .. وتدعو الناس إلى إقامة القسط فيما بينهم ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾، وتدعوهم إلى نبذ الظلم والشرك والفساد بكل أشكالها.

أما بخصوص الكتب الموجودة اليوم ويعتقد بها ويقدسها أصحاب الديانات الأخرى كالعهد القديم ولا سيما الأسفار الخمسة الأولى منه والعهد الجديد .. فلا نصدق منها إلا ما يتوافق مع كتاب الله الخاتم وينسجم مع العلم المثبت الواضح .. أما ما يخالفهما أو يختلف عنهما فلا يعنينا في ديننا في شيء .. ولنا الحق بعدئذ أن نصدق ما يقنعنا ولا يخالف هذين المصدرين، ونتداوله ونستشهد به كأي مرجع بشري أو تاريخي لا يخلو من الظن، نصدق ما نشاء منه ونتجاهل ما نشاء.

وبإيماننا بالقرآن نؤمن برسل الله أجمعين .. وأنهم رسل من الله تعالى .. حملوا رسالته إلى البشر .. ونؤمن في الوقت نفسه أن هؤلاء الرسل الكرام، ممن ذكرهم الله في كتابه أو لم يذكرهم، قد أدَّوا أمانة الرسالة التي أوكلت إليهم وبلّغوها على أكمل وجه، لأن الله يعلم حيث يجعل رسالته، ويعلم من يختار لهذه المهمة .. ولكن الناس من بعدهم هم الذين حرَّفوا هذه الرسالات مراراً وتكراراً .. فلم تعد الكتب الأصلية موجودة بين أيدينا .. ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ .. ونؤمن أن رسالتهم واحدة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ .. ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ .

فالمطلوب من الإيمان بالرسل هو أن نعرفهم جيداً كما ذكرهم لنا القرآن الكريم ونعرف صفاتهم كما وصفها .. ونعرف كيف فكروا وكيف آمنوا بالله عز وجل وأسلموا له تبارك وتعالى؟ .. كيف كانت أخلاقهم، وماذا كانت رسالتهم؟ .. إلام دعوا وماذا بلَّغوا، ومن ناصروا ومن عادوا، وفي سبيل ماذا جاهدوا وقاتلوا وحاربوا؟ .. وكيف كانت تصرفاتهم ومواقفهم وسلوكهم؟ .. ثم لا نفرق بينهم – بمن فيهم رسولنا الخاتم الكريم – ولا نقول أنه خيرهم أو أعظمهم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ .. فالله تعالى أعلم بمقاماتهم عنده ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ .. أما نحن فلا شأن لنا بتقويمهم أو منحهم علامات أو بجعل محمد صلى الله عليه وسلم إمامهم وأفضلهم .. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ .. بل نقف عند وصف القرآن الكريم له صلى الله عليه وسلم بأنه خاتمهم ﴿وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ ، وبأنه رسول ذو خلق عظيم﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، وما وصفه في مناسبات أخرى.

كما يعني **إيماننا بالقرآن** أن نصدق ما ورد فيه فيما يخص خلق الكون والأرض والإنسان ولا نتردد في رفض ما يتناقض مع ما قصَّه علينا وبيَّنه لنا .. أما عن كيفية حصول هذا الخلق والذي تحاول الفرضيات العلمية الجواب عليه سواء في نظرية الإنفجار العظيم أو نظرية التطور والبقاء وغيرهما من النظريات والفرضيات .. فمهمة الإنسان أن يستمر في البحث لإيجاد الأجوبة الشافية والمقنعة من خلال السير في الأرض والبحث عن الأدلة والبراهين ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

كما إن لنا أن نستخدم الوسائل المتاحة للإنسان لاكتشاف ما يمكن اكتشافه، ولنا أن نقتنع بما يخبرنا به العلماء من نظريات، وأن نردَّ ما لا يقنعنا من فرضيات.

كما أن الإيمان بالقرآن الكريم يعني فيما يعنيه أيضاً التسليم بما جاء في هذا الكتاب، وإنكار ما يخالفه أو يختلف عنه فيما يخص عوالم وغيبيات أخرى كالجن والشيطان، وما يخص حال الإنسان بعد موته وساعة بعثه وقيامه وحسابه، وأن نقف في هذه المسائل عند ما أخبرنا به دون زيادة ولا نقصان.

أما قناعاتنا الأخرى التي وصلتنا من مصادر أخرى (غير القرآن والعلم) فهي تقع في خانة الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ .

والأمر المهم في التعامل مع هذا الكتاب الكريم هو أن نجتهد في معرفته وفهمه من غير أفكار مسبقة وصلتنا من طائفتنا ومذهبنا وآبائنا، وألا نقف في فهمه عند ما فهمه أسلافنا بعد أن قيدوه في زمان معين ومكان محدد، ولا عند فهم الجهلاء أو العارفين ممن يعتبرون أنفسهم سادتنا وكبراءنا.

خلاصة معنى الإيمان كما نفهمه من القرآن

مؤشرات السير على الطريق الصحيح للعودة إلى الفطرة

كيف إذن نحوز على النوع الصحيح من الإيمان أو نتأكد أننا على الطريق الصحيح في تحصيله؟ .. هل يكون تحصيله مثلاً في مزيد من الحب والتقديس؟ .. أم في تكريس إيمان الإقرار التقليدي الآبائي؟ .. أم في زيادة جرعات الوعظ والترغيب والترهيب؟.

قد يكون الحب والتقديس مؤشراً على الإيمان والعاطفة القوية وشدة الانتماء .. فقد نقدس الرسول ونحبه، ونقدس القرآن ونعظم شعائر الله .. وقد يوصلنا الحب والتقديس إلى التضحية بالنفس والمال والفداء والإيثار والإحسان .. ولكنه إذا ترافق مع الجهل، فقد يؤدي أيضاً إلى الانحراف والفساد، وقد يفضي إلى الانتحار .. وفي أقصى درجات الجهل والغياب سيؤدي بالتأكيد إلى الشرك بالله واستسهال الإجرام في القتل الحرام، أو الوقوف في جانب المجرمين القتلة أو في صفِّ الظالمين المفسدين المعادين لله ودينه، ومع ذلك نعتقد واهمين أننا ومن نواليهم على صواب، وأننا ممن يحسنون صنعاً.

فما هي نوعية الإيمان المطلوب من المؤمنين في أكثر من آية قرآنية من الآيات التي ذكرناها؟ .. وما هي وسيلة هذا الإيمان وما الذي يعززه ويزيد من طاقته؟ .. هل هي في مراجعة إيماننا الآبائي؟ .. أم هي في العلم والتفكر والمحاكمة العقلية؟ .. أم في زيادة معرفتنا فيما نؤمن به؟.

إن الإيمان حالة وجدانية قد لا تحتاج لدى بعض الناس أكثر من التفكر في زهرة أو فراشة .. والتجربة الذاتية القلبية في الإيمان بالله والتقرب إليه والاستسلام لأمره مسألة شخصية كل إنسان أدرى بما يجب عمله تجاهها .. وقد قيل فيها الكثير.

وقد تفيد المعرفة في وصول غير المؤمنين إلى الإيمان وقد لا تفيد .. والنية السليمة والقلب السليم – وليس المعرفة – هما أساس هذا الإيمان الأولي .. فالكثير من مشاهير علماء الطبيعة والكون ممن لديهم معارف كثيرة يعلنون إلحادهم، لأنهم دخلوا إلى محراب العلم والمعرفة بنفوس متكبرة جاحدة .. ولكن دور المعرفة الأهم ليس في قدح الإيمان الأولي الوجداني بل في تعزيزه وتصويبه وتمتينه.

وهذا ما نقصده بقولنا أن التفكر وإعمال العقل والمعرفة ينبغي أن يكونا أساساً للاعتقاد السليم والصحيح .. وكل اعتقاد يبنى دون تدعيم وتمكين هذا الأساس هو موضع شك من حيث قيمته ووزنه .. ويجب أن نعود إلى أنفسنا ونتساءل فيما إذا كان اعتقادنا هو الاعتقاد الصحيح الذي يرضاه الله، ونتأكد أننا لا نفهم دين الله بطريقة عرجاء أو مقلوبة أو مشوهة.

ومع أن القرآن الكريم يؤكد في آيات كثيرة على أهمية العلم والسير في الأرض، والنظر والتفكر في الخلق والتاريخ والمجتمعات، ويلحُّ على البحث في علوم الطبيعة والكون وغيرها من العلوم المعروفة، (فقد تحايل رجال الدين على هذه الآيات وميَّزوا العلوم الدينية عن العلوم الكونية، ثم ادعوا أن العلم الحقيقي هو العلم الديني واعتبروه نافعاً دون غيره .. وانحصر مفهوم (العلم) عندهم فيه، فأطلقوا زوراً على رجال الدين لقب "العلماء" وعلى طلاب كليات الفقه والشريعة لقب "طلاب العلم".. وانجرَّ وراءهم العالم الإسلامي ليركز اهتمامه على العلوم الشرعية وأهمل العلوم الأخرى .. وصار العقل والعلم (الذي اعتبروه نسبياً) أسيراً (للنصوص التي اعتبروها مطلقة) بما في ذلك الفهم الخاطئ لنصوص القرآن الصحيحة، والنصوص الموضوعة، ولما أدخل عليها من افتراء .. وجُرِّم الاجتهاد وتوقف، وساد التقليد وحوربت الدعوة إلى العلم والعقل التي يدعو إليها القرآن الكريم واعتبرت في بعض الأحيان خروجاً على دين الله .. وترى فيهم إلى اليوم من يحاجج قائلاً: (لو كان الدين بالعقل لكان مسح أسفل القدم أولى من مسح وجهها)

فإذا كان القرآن الكريم يحثهم على البحث في بداية خلق الأرض والإنسان ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ .. ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [1] .. نجد الثقافة الدينية الشائعة تقول لهم أن هذا الأمر للندب وليس للتنفيذ .. ويوضح علي شريعتي كيف حصل ذلك فيقول: (*لقد صنفوا الأوامر الصريحة الواردة في القرآن إلى صنفين: الأمر الإنشائي نظير(أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة)، وهذا النوع من الأوامر لا بد من امتثاله والانقياد له .. والأمر الإرشادي نظير* ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾*، وهذا ما لا يجب امتثاله، إذ المراد فيه بيان أهمية المأمور به لا غير!)* [2].

ولكن الإيمان السليم هو دون غيره ذلك الإيمان المعزز بالعلم أي بالتفكر والمعرفة .. وتزداد طاقته وتتنامى مع حسن التفكر وتنامي معرفتنا في عظمة الله في خلقه ومعرفة الإبداع الذي ينطوي عليه .. تفكر ومعرفة في الكون،

1 دارون مثلاً الذي طبق هذه الآية الكريمة أفضل من أي مسلم يقرأ القرآن حورب بشدة لقوله بنظرية التطور، وبغض النظر عن النتائج التي توصل إليها، فقد يكون أقرب فيما توصل إليه وأحسن فهماً لكتاب الله مما نظن أنفسنا.

2 معرفة الإسلام، علي شريعتي ، دار الأمير، بيروت ط2 – 2007

وفي أنفسنا، وفي نعم الله من حولنا، وفي كتاب الله وآياته. .. وهي ما تصوِّب معرفتنا بالله ورسوله ورسالته، وتقوِّم معرفتنا بمهمتنا ورسالتنا الحقيقية في هذه الحياة.

ولا يمكن أن نتوقع البدء في السير على هذا الطريق أو الوصول إلى إيمان في المستوى المقبول مع تفشي الجهل والأمية واحتقار القراءة، ولا مع تهميش البحث والفكر، ولا مع الحطِّ من شأن الثقافة والعلم والكتاب.

وهذا الإيمان هو الذي يقودنا إلى النتيجة الحتمية في التسليم لله والعبودية الكاملة له عز وجل دون غيره، وهو الذي يفضي إلى التقوى والعمل الصالح .. وعندما يكون هذا النوع من الإيمان على درجة عالية فإن نتائجه تظهر في كل زاوية من زوايا حياتنا، فيخرج نباته بإذن ربه في جوانب الحياة أمانة وصدقاً ورحمة وعدلاً وتعاوناً وعلماً وعملاً وقوة وثقة وحسن معاملة .. وبه يزول الشرك بالله بكل درجاته، والفساد بكل أصنافه، ويضمحل الظلم بأشكاله وألوانه، ويُلغى الإكراه والجبروت والطغيان، ويُستهجن الاستعباد والقتل والإجرام وإهانة الإنسان.

لأن المؤمن الذي عرف ربه حق المعرفة، وفهم كتابه وآياته جيداً تسير حياته على ضوء نوره الذي لا ينضب معينه، ويكرس إمكاناته للنجاح في مهمته وامتحانه.

وبمثل هذا الإيمان يحقق الإنسان رسالته في الاستخلاف الصحيح في الأرض .. ويصبح رفيقاً بنفسه وبمن حوله .. حريصاً على بيئته ورحيماً بكل مخلوق .. وتتحقق بشيوعه وعود الله للمؤمنين في الهداية والخروج إلى النور .. ويتولَّاهم الله تعالى ويحقق لهم نصرهم وعزهم، ويستجيب لأدعيتهم، ويمكِّن لهم في الأرض.

وإذا لم نكن في هذا المستوى بعد .. **فالمؤشرات التي** تدل على أننا نسير على الطريق السليم المؤدي إليه هي مقدار سعينا في التزود من العلم والمعرفة، ومقدار الوقت الذي نصرفه في البحث والنظر والمراجعة .. وطريقه هو طريق الشك الذي يؤدي إلى إسقاط الأفكار المزيفة والمعرفة المزورة والآراء الدخيلة والتفسيرات التي لم تعد تتناسب مع عصرنا وعلمنا ومعرفتنا .. والطريق إلى هذا الإيمان القويم يسلكه دون غيرهم ذوي العقول ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ الذين يبذلون جهوداً دؤوبة يعقلون ويفقهون للوصول إلى الأهدى والأقوم .. وهم من سيهديهم الله تعالى حتماً إلى صراطه المستقيم وسبيله القويم ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

خاتمة وخطة عمل

توجيه الجهود نحو تذليل العقبات الأخطر في مشروع النهضة والنجاة

أكتب هذه الخاتمة وأنا أقول في نفسي: ترى من من القراء تحمَّلني وصبر على قراءة هذه الصفحات الجافة ليصل إلى هذه السطور في زمن التغريدات القصيرة ومقاطع الفيديو المغرية المدهشة؟.

بل من منهم من لم يرمه بعد قراءة مقدمته أو جزء منها؟ .. وهل ما أقوم به في هذا المشروع سيقربنا ولو خطوة صغيرة واحدة إلى النور؟ .. أو هل سيسهم في صعودنا ولو درجة واحدة من النفق الذي نعيش فيه راضين مطمئنين؟.

ولا أستطيع أن أخمّن كم كنت مقنعاً للقارئ فيما قدَّمته في هذا الكتاب – إن كنت قد قدَّمت شيئاً جديداً عليه أصلاً – ولكن النتيجة الطبيعية التي أتوقعها هي أنني لم أستطع إقناع جميع القراء، ولم أقنع أياً منهم بكل شيء .. وهنا أتوجه بخطابي لمن استطعت إقناعهم بالنتيجة التي توصَّلت إليها علَّني أتفق معهم على مرحلة جديدة ومستوى أعلى.

لقد حاولت في بداية هذا الكتاب أن أثبت للقارئ أن أوضاعنا ليست على ما يرام، وأننا لا نسير في الطريق الصحيح للوصول إلى أي من هدفي (النهضة والنجاة) .. وكانت الوسيلة في ذلك هي النظر في واقعنا، حيث ظهرت الهوة الواسعة والعميقة بين الفكر الذي ندعي أنه دين الله والفكر الأصيل لهذا الدين .. فكان كشف هذا الواقع في تصوري الدليل الذي قدَّم أقوى البراهين، وأقنع بوجود تناقض بين هذا الواقع وما يجب أن يكون عليه فكر وحال من يحملون دين الله القويم.

وقد اهتم الباب الثاني في محاولة معرفة طريق النجاة الشخصية كأولوية عاجلة توضِّح الطريق السليم لمن أراد ذلك .. وقلنا أن منطلق ذلك يكون في التخلي عن التقليد ورفض وصاية الآخرين والتحرر من الآبائية والأفكار الموروثة والمجاهدة الشخصية بإعمال العقل بالتفكر والبحث وزيادة المعرفة.

ثم كان لا بد من البحث عن جذور ما نعانيه من مشكلات .. وقلت أنها لا بد أن تكون ناجمة عن خلل في أمر جوهري، وليست نتيجة لتقصير أو خطأ في مسألة ثانوية .. فبدأت من تقويم الإيمان كخطوة أولى .. ووجدت

أننا قد نكون نعاني فيه من إحدى مشكلتين أو من كليهما .. الأولى هي نوعيته وصحته، وهي ناجمة عن التقليد والوراثة والاتباع .. والثانية هي الضعف في طاقته، وهذا الضعف ناجم عن قلة العلم والمعرفة بما نؤمن به.

فإذا اعترفنا بهذه النتيجة، ثم افترضنا أن إيماننا الآبائي في أرفع مستوياته قد يفضي بطريقة ما إلى عمل صالح ويجنبنا الشرك والظلم والفساد، فقد يكون كافياً لإنقاذنا برحمة من الله تعالى في آخرتنا، وهذا في علم الله وتقديره الذي ليس لنا سبر أغواره ولا الخوض فيه.

وهنا يختلف حال كل منا عن الآخر .. ولكل إنسان القدرة على تقويم إيمانه بنفسه ﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . . وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾، وعليه التصرف بما يناسبه .. ففي حين يكون الضعف في طاقة الإيمان عقبة لدى البعض، يمكن للآخرين ادعاء أنه ليس كذلك، وبالتالي لا يشكل واحدة من العقبات الكبرى في طريق **نجاتهم** .. كما أنه ليس لنا إلا التسامح في الحكم على من لا يمكن إقناعهم أو تغيير ما ورثوه من العوام والأميين وغير المتعلمين، وقبولهم على ما هم عليه، وحسن التعامل معهم، والوقوف إلى جانب حقوقهم العادلة، وترك أمرهم إلى الله عز وجل.

أما أصحاب العقول الذين يريدون أن يقودوا مهمة إنجاح مشروع الله في الأرض والإنسان ومناهضة المشاريع الظالمة المفسدة التي تعاديه، فعليهم أن يعملوا باستمرار على تقوية إيمانهم بالعلم والمعرفة بلا حدود.

فالإيمان – سواء بانحرافه أو بطاقته الضعيفة أو بكليهما معاً – لن يكون كافياً لإخراجنا من حال التخلف والإنحطاط التي نعيشها .. ولن يكون كافياً للتصدي لمهمة الإصلاح والعدل، ولا لإعداد العدة لنصرنا وعزنا ووراثة الأرض التي وعد الله بها الصالحين من عباده ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ .

ونستنتج من ذلك أيضاً أننا — وبدرجات متفاوتة — لا نزال بحاجة إلى بذل المزيد من الجهود ومعالجة حال القصور لتصحيح هذا الإيمان وتعزيزه وزيادة طاقته إن لم يكن من أجل نجاتنا في آخرتنا، فمن أجل تحقيق خطوات عملية في النجاح في إقلاع مشروع نهضتنا واستعادة دورنا الحضاري الذي يعتمد كله في حالتنا على إيمان قوي وسليم ومثمر[1] .

ومع تأكيدنا على أهمية العمل على تجاوز مشكلة (الخلل في سلامة الإيمان وضعفه) .. فهذا لا يعني أنه مشكلتنا الوحيدة ولا هو المتسبب الوحيد أو الأكبر في مصائبنا .. فهناك مشاكل أخرى سبق أن نوّهنا إليها.

---

1 يجب أن ننوه هنا أن هناك مظاهر عجز في مواطن أخرى تقضي على جهودنا وتقعدنا وتقف حجر عثرة في طريق نجاتنا ونهوضنا وتحقيق حضارتنا، وتستوجب كشف القناع عنها لنوليها القسط الأكبر من اهتمامنا .. ولكننا نحاول هنا التركيز على أهم هذه العوائق.

ولكن ينبغي علينا أن نكرس جهودنا (اليوم) على العوائق[1] التي حالت ولا تزال تحول بيننا وبين رؤية طريق خلاصنا والبدء في السير فيه بأمان، وقد منعت ولا تزال تمنع تحقيق نتائج أولية تشجعنا وتبعث الأمل فينا .. وهي ما يجب معالجته والتأثير فيه لإحداث ظرف مناسب للتغيير.

ويمكن أن نحددهما برأيي بعائقين رئيسين:

العائق الأول هو الفكر المشوَّه العقيم الذي نقدِّسه وندافع عنه ويرتكز عليه إيماننا وتقوم عليه ثقافتنا وسلوكنا ومعاملاتنا ومواقفنا وأعمالنا.

والعائق الثاني هو قلَّة أو انعدام الوعي بالعوامل الخارجية بأشكالها المختلفة (التشويه والمحاربة وإحباط المحاولات) ومن يدعمها من أعداء الداخل والمغرر بهم.

وكما وصلنا في هذا الكتاب إلى نتيجة مفادها أن الفكر الذي يرتكز عليه الإيمان هو أحد أهم أسباب فشلنا في مشروع نجاتنا .. فسنرى أن النتيجة التي توصَّل إليها الكتاب الثاني (**على الطريق أم في النفق؟**)[2] هي أن انحراف هذا الفكر قد شكل عائقاً خطيراً في طريق استعادة دورنا الحضاري، وقد أُهمل دوره السلبي إلى حد كبير، ولم تُعِرهُ مشاريع النهضة ما يستحق من العناية، ولم تهتم بمعالجته أو تقويمه، بل اعتبرته معصوماً أو شبه كامل .. فحال ذلك دون نجاحها، بل دون تقدمها خطوة واحدة.

ولطالما شكلت المنظومة الفكرية السائدة أحد عوامل العجز الكبرى في فهمنا ووعينا .. ولا فرصة لنا في تغيير حقيقي في حياتنا ما لم نبدأ بالمراجعة والتقويم للتحرر من قيودها وتصحيح انحرافها، والتخلص مما ألقي في ساحتها من أحمال على مر العصور، وتنقيتها من الشوائب والعوامل المعيقة ومن كل الشذوذ والتزييف .. فلا يمكن أن نتحدث عن بناء حضارة وتغيير أمة ونحن نحمل منهجاً فكرياً متناقضاً وعقيماً ومليئاً بالآصار والأغلال .. ولا يمكن أن نتحدث عن نهضة إسلامية ونحن لا نزال نحتفظ بهذا الكم من الأفكار الدخيلة على جوهر المنظومة الفكرية لدين الله وأصلها.

أما السبب وراء اعتبارنا (قلَّة الوعي) عقبة أساسية في طريق نهضتنا ونجاتنا، فسيتوضح بشكل أفضل في الكتاب الثاني عند مراجعتنا لفكرة (**القابلية للاستعمار**) التي أطلقها (**مالك بن نبي**) وإعادة صوغها بطريقة جديدة .. فقد بلغت بنا المؤامرات حدَّاً شُلَّت فيه حركتنا، وأوصلتنا إلى حال ينطبق عليها المثل الشائع (اتسع الخرق على الراقع).

1 ليس المقصود هنا كل العوائق والمشكلات، فلا قيمة لإعادة الحديث عن المعروف منها والذي فصَّل فيه المفكرون .. ولكن الهدف هو تسليط الضوء على عوائق هامة وخطيرة لم يسبق (بحسب علمي) إعطاءها ما يكفي من العناية فأجهضت جهودنا.

2 مهمة الكتاب الثاني هي تحديد موقعنا الحضاري والعقبات التي تقف في طريق النهوض وما يجب عمله لتجاوزها.

وقد تعدد الفاعلون في هذه المؤامرات الخارجية والداخلية التي تكيد المسلم، ابتداء من الشيطان، مروراً بالاستعمار والقوى الكبرى ووكلائهم من أبناء جلدتنا، وصولاً إلى الإعلام ورجال الدين المدجَّنين .. ولم تعد تنفع الجهود في التغيير الاجتماعي (الداخلي) أو فيما يسميه القرآن (يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ) ما لم نخفِّف من ضغوطها وآثارها.

ولا يمكن البحث في كل صغيرة وكبيرة مما أدخل على منظومة دين الله، ولسنا في ترف من الوقت ليسمح لنا بتتبع كل المؤامرات التي تتغير وتتلون وتظهر لنا بوجوه جديدة .. وليس هناك من طريقة للإحاطة بكل ما يخطط له من يمكرون بنا .. وعلى افتراض أننا كشفنا كل الزيف والانحراف وكل المؤامرات السابقة والراهنة .. فالشيطان حسب اعتقادنا سيبقى يحاول تضليلنا، وسيبقى له أولياء وعابدون .. وستبقى المعركة محتدمة .. وستتطور الوسائل والآليات.

والاستراتيجية الأقوم والأفضل للتعامل مع هذين العائقين تكون برأيي من خلال بذل الجهود في اتجاهين:

الاتجاه الأول هو **في تقويم الفكر** من خلال (تصويبه وتحصينه ووقف اختراقه) وتجاوز ما فيه من أفخاخ ومطبَّات .. وهو جانب هام من التنفيذ العملي لتغيير ما بالنفس في قوله تعالى ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ .

ويكون ذلك بإزالة القداسة عن المنظومة الآبائية القائمة في عقل وقلب القارئ عن طريق سرد أدلة قوية لإقناعه بوجود خلل في أسسسها وخصائصها، وضرب أمثلة عن الآليات الشيطانية الماكرة الخفية في تشويه دين الله.
ومن ثم التوجُّه لإعادة بناء المنظومة الفكرية الأصيلة لدين الله القويم التي تنسجم مع كتابه الكريم[1] .. منظومة مبسطة ومفهومة ومحكمة، ومنفتحة على الدوام على أي فهم أهدى وأنفع .. لتكون الحامل الفكري السليم لإيمان سليم، والقاطرة الفكرية لمشروع نهضة إسلامية مأمولة.

أما الاتجاه الثاني فهو تحصين المسلم من محاولات تجهيله وتضليله وتغييب وعيه واستغلاله .. ويكون ذلك من خلال **التوعية** بآليات عمل المناوئين والمعادين، وكشف مؤآمراتهم الحقيقية، والتخفف من ضغوطهم وكيدهم .. وتنبيهه إلى آليات القاصي والداني من أعدائه انطلاقاً من قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ .. بما يتضمنه فهمنا لمعنى الهداية هنا من كشف خطط العدو، ودفعها واتقاء شرها والصبر على كيد الكائدين ومؤمراتهم ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ .

1 ليس من أجل وضع قالب جديد أو امتثال جديد أو قيود جديدة على روح الإنسان وفكره ووجدانه .. بل من أجل التحرر من القوالب والسجون وإطلاق الروح والعقل والوجدان .. كما أنه ينبغي التأكيد أن النموذج الموضوع لمنظومة دين الله هو نموذج بدائي إسعافي لا ينبغي الوقوف عنده ولا عند غيره .. وأنه سيأتي من يطوِّر ويحسِّن ويزيد في الفهم أو يأتي بالأهدى والأقوم في عملية لا تنتهي إلا بنهاية وجود الإنسان في هذا الكون.

وبلا شك .. فإنه سيكون لمثل هذا العمل في (التقويم والتحصين) الأثر البالغ في تمهيد الطريق لتحقيق هدفي (**النهضة والنجاة**) معاً[1] .. فلا نعود نبالي بمحاولات الأعداء ولا بجهل الجاهلين السابقين منهم واللاحقين والتي لن تتوقف إلى يوم الدين.

وأرجو من الله عز وجل أن تستحق هذه المحاولة[2] – بما فيها من نقص وقصور – شرف الانضمام إلى المحاولات الجادة الرصينة المخلصة التي عملت ولا تزال تعمل على مراجعة المنظومة الفكرية لدين الله، وأن تدعم الجهود الكثيرة التي تسعى للوصول إلى منهج متكامل ومبسَّط وأقرب إلى كتاب الله، وتساهم فكرةٌ ما فيها في سد ثغرة صغيرة من ثغرات هذا المشروع.

فما يهمنا في اللحظة الراهنة هو أن نتجنب الجهالة والحماقة، وأن نصحح ما نستطيع من الشطط والانحراف، وأن نتوصل إلى اتفاق على قواعد ومبادئ عامة نحدد فيها وجهتنا فنعرف أننا لسنا بعيدين عن منهج الله القويم، وأن نبدأ السير في خطواتنا الأولى، ثم لا نتوقف عن تصحيح المسير.

---

1 ومن هنا فقد توجَّه الكتاب الثالث (تمهيد الطريق) من مجموعة (الخروج إلى النور) للمساهمة في هذه المهمة الشاقة.

2 وتبقى هذه المحاولة قابلة كغيرها للخطأ والانحراف .. وهي مطروحة للنقد والحوار والتعديل – للتواصل مع الكاتب: jamal.jamaleddin@gmail.com

الكتاب الثاني

على الطريق أم في النفق؟

مشروع النهضة

في تحديد موقعنا من المسيرة الحضارية، وكشف العقبات التي تقف في طريق النهوض

ونقرأ فيه ما يلي:

إن لواجب المساهمة في مهمة إقامة مشروع نهضة في العالم العربي والإسلامي موقع متقدم في امتحان المسلم وحسن أدائه لرسالته .. ومشاريع النهضة التي وضعت العقيدة وما فيها من إيمان وعاطفة في خدمة هذه المهمة لم تنجح.

يتناول هذا الكتاب في بابه الأول شرحاً للوضع الراهن فيما يخص إنجاز مشروعي النهضة والنجاة، ويوضح أن الفعالية الحقيقية هي في النجاح في مشروع النجاة، ويشرح العلاقة الجدلية الوثيقة بين هذين المشروعين وشروط النجاح في تحقيق كل منهما ومدى أهمية كل منهما لنجاح الآخر.

ومن هنا كان لا بد من المرور مع القارئ بشكل سريع ومقتضب على النماذج الأساسية من مبادرات النهضة ومشاريعها وما آلت إليه،

ويركز الباب الثاني بشكل أكبر على مشروع النهضة، فيستعرض أفكار رواده الأوائل .. ثم يركز على اثنين منهما هما علي شريعتي ومالك بن نبي، ثم يفرد فصلاً كاملاً للنظر في فكر مالك ومشروعه الأكثر تكاملاً.

أما الباب الثالث فيبحث في أسباب العجز والإخفاق في هذه المحاولات. ثم يبين مواقع الخلل فيها وينظر في العوائق الأساسية التي حالت دون نجاحها. ويظهر الحقيقي من الوهمي من هذه العوائق، بعد كل التجارب التي عشناها ولا سيما في المرحلة الأخيرة التي كشفت سوآت وعورات كثيرة قد تكون أكثر مما كشفه قرن كامل.

ولأنه لا يزال هناك بعض الغموض الذي يلف مصطلحات عديدة كالنهوض والخروج إلى النور والنهضة والحضارة، ولأنه لا تزال الآراء والمواقف تختلف فيما يتعلق بالإعتراف بموقعنا الحقيقي منها، وتختلف بشكل خاص فيما يتعلق بأهم ما يجب عمله لتحقيقها .. فقد تم تركيز البحث في هذا الباب لتوضيح المقصود بكل من هذه المصطلحات، وتحديد موقعنا منها وبيان العوائق التي تخرجنا مما نحن فيه إلى مكان أفضل، وما الذي ينبغي القيام به حيال ذلك.

والنتيجة التي يصل إليها الكتاب في المحصلة النهائية هي أننا لسنا بعد على طريق النهضة أو الحضارة، بل لا نزال نعيش في نفق مظلم من الجهل بهذه الطريق .. وإذا أردنا النجاح في تحقيق تقدم ملموس في واقعنا فإن علينا العمل أولاً على إزالة العوائق من طريق خروجنا إلى النور سواء كانت عوائق داخلية (فكرية) أو خارجية (مؤامرات حقيقية) .. وأن هذه المهمة يجب أن تكون شغلنا الشاغل في وضعنا الراهن من هذه المرحلة.

الكتاب الثالث

تمهيد الطريق

إزالة العوائق من طريق النهضة والنجاة

في التحرر من قيود المنظومة الدينية المزيفة السائدة، وإعادة بناء المنظومة الفكرية لدين الله القويم

ويجد القارئ فيه البحوث[1] التالية:

البحث الأول: بين منظومتين

يبدأ هذا البحث بمقدمة توضح الأسباب الموجبة لإجراء مقارنة بين منظومة دين الله والمنظومة الرائجة للدين بين المسلمين، ومبررات توقيت نشر هذه المجموعة من الكتب، مع سرد جانب من تجربة الكاتب الشخصية التي امتدت لسنوات في عملية المراجعة والبحث والتفكير .. ثم يتناول تعريف المنظومة الفكرية بشكل عام وأهميتها وكيف تؤثر على تفكير الناس ومواقفهم، وكيف تتغير هذه المنظومة مع الزمن .. ثم يوضح ما نعنيه بالمنظومة الفكرية لدين الله، وكيف تشكلت، وكيف حصل التغيير فيها وحرفها عن جوهرها عند الأقوام السابقين من يهود ونصارى .. ومن الذين قاموا ويقومون عادة بذلك .. وكيف قص علينا القرآن ما قاموا به لئلا نقع مثلهم .. وكيف وقعنا .. ثم يشرح كيف مثَّل القرآن الكريم الوثيقة الشاملة لهذه المنظومة كرسالة خاتمة من الله إلى الإنسان .. وأين حصل التلاعب بأسس دين الله فيها على الرغم من تعهد الله تعالى بحفظ كتابه الكريم.

فالفارق الكبير بين منظومة دين الله الأصيلة الموضحة في كتابه المحفوظ وتلك التي يفكر ويعيش وفقها عموم المسلمين يدل على وجود انحراف كبير عن المنظومة الأصيلة .. فالمنظومة الراهنة تقوم على أسس دخيلة تم تحصينها للتعتيم على مؤامرة ماكرة خبيثة، يدافع عنها ورثتها بتعصب وجهل منقطعي النظير ليس لمنع الواقعين فيها من الخروج منها فحسب، بل لمنع من جاهدوا فأنار الله قلوبهم من التمكن من الدخول إليها لإنقاذ هؤلاء الضحايا التعساء .. كما أن لها خصائص لا تمت بصلة إلى خصائص منظومة دين الله ولا سيما تلك التي عبر عنها القرآن الكريم ووصفها بوضوح مراراً وتكراراً كالبيان واليسر وعدم التناقض ومحورية التفكر والعلم والدعوة إلى التخلص من الآبائية والتقليد.

البحث الثاني: القرآن والإنسان وحبائل الشيطان

موضوع هذا البحث هو كشف الحيل الشيطانية في حرف الناس وإضلالهم عن صراط الله القويم .. فبعد أن تعهد الله تعالى بحفظ كتابه الكريم كاملاً باعتباره الدليل الإرشادي (الكاتالوك) لهداية الإنسان وتوجيهه إلى نور الله وسبيله القويم في حياته الدنيا والفوز في مصيره الأخروي، لم يعدم الخبثاء من طرق ملتوية ماكرة للتلاعب في طريقة فهمه .. فكان إبعاد الناس عن هذا الكتاب الكريم على الدوام الهدف الأول لإبليس ومن يسير على نهجه.

يبين الكاتب آلية عمل الشيطان وجنوده، ولا سيما رجال الدين الفاسدين، في إضلال الناس وتجهيلهم، وكيف يتعاون هؤلاء مع السلطات الظالمة وأصحاب الإمتيازات والحيازات غير المشروعة والدوائر المعادية لدين الله الداخلية منها والخارجية في إبقاء حال الجهل والتقليد والغياب عن الوعي في أنحاء العالم الإسلامي .. ويحاول كشف جوانب من الاستراتيجية المتبعة في ذلك بدءاً من تحريف المعاني، وتشويه المفاهيم وتقزيمها وإشغال الناس بهوامش الأمور، وغيرها من الوسائل والأدوات الخبيثة .. كما يبين استراتيجية القرآن في مواجهتها، وضرورة تمسك المؤمنين بما أوصاهم به تعالى في هذا الكتاب والإعتصام بمنهجه حتى لا يقعوا في حبائل الشيطان وأوليائه الماكرين.

1 لم يتم وضع الكتاب في شكله النهائي بعد، فقد يخرج ككتاب واحد أو في عدة أجزاء.

ويختم هذا البحث ببيان المؤشرات الدالة على التحريف في دين الله والتي تثبت نجاعة الإستراتيجية المعادية في الوقت الراهن بسبب بعد المسلمين عن منهجية كتاب الله .. فتحوَّل الإنسجام عندهم إلى تناقض، والوضوح إلى غموض، وتكرَّست الآبائية التي حذرنا الله تعالى منها، فأوصلنا ذلك إلى مآلات ندفع ثمنها تفرقاً وصراعات وعذابات أليمة.

البحث الثالث: البحث عن مخرج

لئلا يترك القارئ معلقاً عند نقطة قناعته بالتزييف الحاصل الذي تم توصيفه في البحثين السابقين دون أي توجيه أو تدبير .. فقد كان من المهم المساهمة في إبداء الرأي حول منهج الخروج من هذه الحال .. فكان هذا البحث الذي طرح منطلقاً للعودة إلى طريق الله القويم يبدأ بتقوية جناحي العلم (التفكر والمعرفة) .. فقدَّم وجهة نظر الكاتب حول هذه البداية، وبين المقصود بمعنى التفكر ومعنى المعرفة، وكيف نفكر وبماذا نفكر .. وما تجب معرفته.

فالتقيديون الوراثيون لا قدرة لهم على فهم كتاب الله ورسالته، بل لا فرصة لمعظمهم في معرفة الله ورسوله، ولا معرفة الإنسان ومهمته وطبيعة امتحانه والحكمة من وجوده .. لأن هذا الفهم لا يمكن أن يقترب منه إلا العلماء الحقيقيون .. علماء الكون وإعجازه، والخلق وعظمته، وتاريخ الأرض والإنسان وما مرَّ به على مدى العصور ..

وهو على أي حال علم لا يزال الإنسان واقفاً على شواطئ محيطه الواسع .. وما عليه إلا التواضع والانكسار .. كما يجب أن نقر بأن هذا الفهم يتغير من جيل إلى جيل ومن يوم إلى يوم .. والجاهلون وحدهم هم الذين يريدون تثبيت فهمهم القاصر وفرضه على الناس .. وهم من ندعوا الشباب إلى تخطيهم وتجاهلهم.

وبعلم الكاتب المتواضع، حاول تقديم طريقة فهمه (الراهنة) والتي ستتغير وتتطور وتفهم بشكل أفضل في المستقبل لمجالات المعرفة الأساسية [الله – الخلق (الكون والأرض والإنسان) – الرسالة – الرسول]، وعمل على إزالة بعض الأفكار المسبقة الخاطئة عن كل منها .. وفصَّل بقدر ما يسمح به حجم الكتاب في جوهر تكوين الإنسان وخلقه والغاية من وجوده ومجالات امتحانه، وفي معرفة الله تبارك وتعالى وعظمته وقدرته وعلمه وعدله وكثير من صفاته، وفي فحوى رسالته إلى البشر، وبشكل خاص رسالته الخاتمة (القرآن الكريم) وما تتصف به من حق وعلم ونور وهداية وانسجام واستقلال وديمومة وشمول، وفي معرفة الرسول الخاتم الكريم الذي بلغنا هذه الرسالة، وتفنيد كل ما نسب إليه ﷺ من خرافات ومبالغات وإساءات وأوهام.

البحث الرابع: إعادة البناء

يبدأ هذا البحث بالحديث عن المؤشرات الدالة على مدى نجاحنا في عملية التفكر والمعرفة التي تحدَّث عنها البحث السابق، والتأكد من جدواها .. حيث يبين ما يجب قطفه من ثمار هذه العملية وعياً وفهماً وموقفاً جديداً وشجاعاً نتخلص فيه من طريقتنا القديمة في التفكير ونكون مستعدين للبحث في شكل ومضمون المنظومة الفكرية لدين الله من منظور تفعيل المنهج القرآني بعيداً عن الإرث الثقافي الذي ورثناه رغماً عنا، وصافياً من الشوائب والأحجبة التي أخفت حقيقته.

ثم يعرض بضع نماذج أولية لفهم هذه المنظومة .. إلى أن يصل إلى نموذج واضح وسهل الفهم والتطبيق تتحقق فيه الأولويات والغايات القرآنية من إيمان وعمل صالح، ونتخلص بفهمه من الجهالات البشرية التي شغلتنا عن تحقيق هذه الأولويات .. وتوضع فيه جميع الممارسات الدينية من فروض وواجبات في مكانها اللائق دون الخلط بين هذه المكونات أو تضخيم الهيِّن منها أو التقليل من شأن ما أكد القرآن الكريم على مكانته ولا سيما الصلاة والزكاة .. فقد لا تنقذنا عبادات وطقوس وشعائر وخلق كريم وابتعاد عن الحرام ما لم نعرف هذه الأولويات وترتيب أهميتها، ولا ينفعنا الانشغال بمعرفة وتطبيق تفاصيل الطقوس على طريقة مذهبنا وفرقتنا، ولا ما يجب قوله في الأذان وأين نضع أيدينا في الصلاة وشكل غطاء الرأس للرجال ولا معرفة الأحكام في الصيد والمزارعة ودبغ الجلود، ولا حفظ الآراء والأقوال، ولا الإكثار من الدعاء والأذكار، إذا وقعنا في الكفر أو الشرك أو أوقفنا جُلَّ حياتنا لمناصرة الشر أو الظلم أو الفساد أو مارسنا إحدى هذه الموبقات.